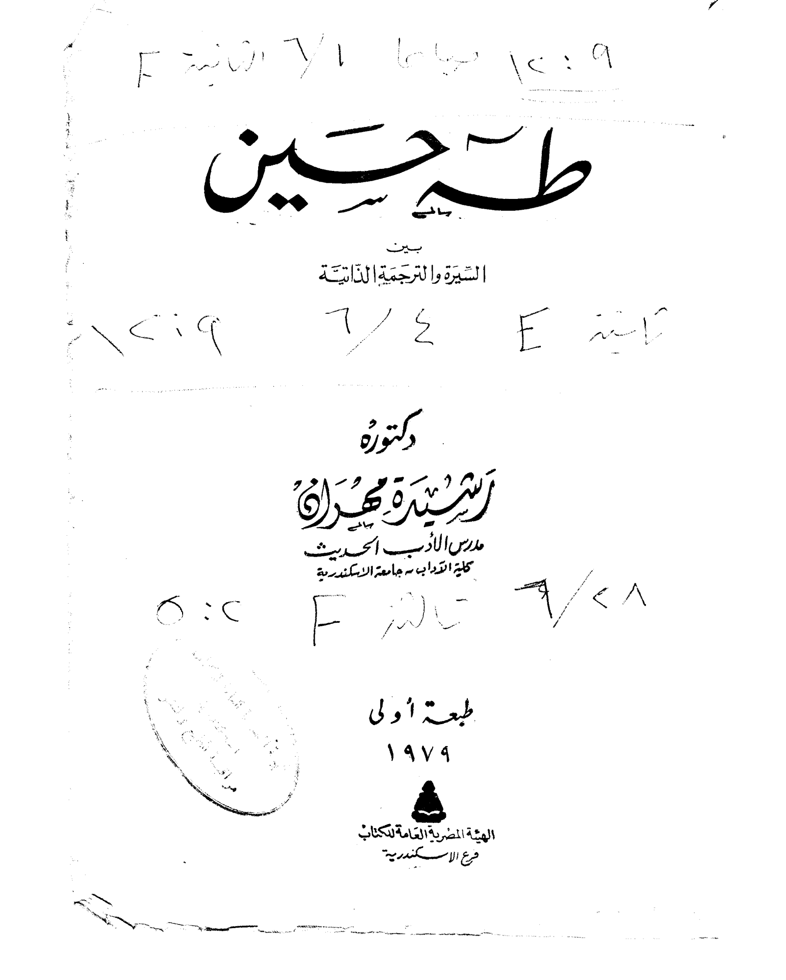


طه حسين

بين

السيرة والترجمة الذاتية

دكتورة

رشيدة مهران

مدرس الأدب الحديث

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

طبعة أولى

١٩٧٩

الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الإسكندرية

إهداء

إلى أستاذى المعلم ... الذى وضع
قدمى على أول الطريق ......
عرفانا وتمثلا ... وإكبارا ... ...

د. رشيدة مهران

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحمٰن عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنسانَ

عَلَّمَهُ البيانَ صدق الله العظيم

مقدمة

« طه حسين » علامة بارزة فى تاريخ أدبنا العربى ، دفعنى لدراسته إعجاب كبير بالأديب ، وأدبه . إذ أعجبت به كانسان عظيم ، وكأديب ومفكر ثم كمثل للصمود والتحدى .

وأعجبت بأدبه لأنه يحمل طابع الشمول والتجديد والخلود . فكان أن أقبلت على قراءته بشغف ونهم ، ثم لفت نظرى موضوع « السيرة والترجمة الذاتية » لأن الموضوع فى حد ذاته طريف وجديد .

أما الطرافة فيه فلانه يمس نفس الأديب وأحاسيسه تجاه شخصه ، وتجاه الآخرين . وأما الجده فيه فلان أحدا من الباحثين لم يتناول هذا الجانب من أدب « طه حسين » بالدراسة العميقه والتفصيل الدقيق .

والموضوع فى حد ذاته — أى موضوع السيرة والترجمة الذاتية — حديث فى الأدب العالمى والأدب العربى على حد سواء .

لهذا وجدت نفسى مدفوعة لدراسته بدافع الاعجاب والطرافة والجدة.

ولقد حوت المكتبة العربية عديداً من الدراسات المباشرة فى فن السير والتراجم ، أفدت منها فى بحثى هذا ومهدت لى الطريق إلى هذا الفن بصفه عامة ، وفى أدب « طه حسين » بصفه خاصة . من هذه الدراسات القيمة : كتاب « فن السيرة » للدكتور « إحسان عباس » وكتاب « السيرة تاريخ وفن للدكتور » « ماهر حسن فهمى » وكتاب « السير والتراجم » لـ « محمد عبد الغنى حسن » ، وكتاب « الترجمة الشخصية » للدكتور « شوقى ضيف » وكتاب « فن السيرة الأدبية » لـ « ليون ادل » ،

وقـد جعلت بحثى هذا فى خمسه أبـواب ، الباب الأول بعنوان « السيرة والترجمة الذاتية فنا وتطورا » عرضت فيه للجوانب الفنية لهذا الفن من حيث البناء والتطور . وعرفت بفرعى هذا الفن والفروق بينهما ، والميزات التى تميز كاتب السيرة وكاتب الترجمه الذاتية ، وتطور فن السيرة عند العرب وعند الأوربيين .

وقد حرصت فى هذا الباب على اعطاء صورة عامة لخصائص هذا الفن .

أما الباب الثانى فكان بعنوان « طه حسين حياته وفكره » استعرضت فيه باختصار وقائع حياة الأديب الكبير ثم العوامل التى كونت فكره حتى خرج علينا بهذا النهج الجديد من التفكير . ولا غرو فقد كان فكره حصاداً لثقافات متعددة ، فتجمع لذلك الفكر عنصر الأصالة إلى جانب عنصر التطور .

وفى الباب الثالث عرضت لـ « السيرة العامة فى أدب طه حسين » وقد ضم هذا الباب ثـلاثة فصول . خصصت الفصل الأول منها لمؤلفاتـه فى السيرة التاريخية التى ظهرت فى كتابى « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » التى مزج فيها « طه حسين » بين السيرة والتاريخ والخيال فجاءت نوعا من الأدب القصصى .

والفصل الثانى خصصته لدراسته فى السيرة السياسية التى تمثلت فى كتاب « الشيخان » وكتاب « الفتنه الكبرى » بجزأيه « عثمان » و « على وبنوه » . والتى تعرض فيها « طه حسين » لنهج الشيخين السياسى لا لسيرتهما الشخصية . وتعرض فى الفتنة الكبرى لفترة من أحرج فترات التاريخ الإسلامى بروح المؤرخ المتجرد .

وخصصت الفصل الثالث لدراسته الشخصية الأدبية التى تناول فيها شخصيتى « أبى العلاء » و « والمتنبى » وقد مزج فيها بين المناهج المعروفـه ، وأخذ من منهج الاجتماعيين والنفسانيين والجماليين وأضاف من عنده كثيراً ، وكان فى هذه الدراسة قريبا كل القرب من « أبى العــلاء » بعيدا كل البعد عن « المتنبى » .

وفى الباب الرابع تناولت « الترجمة الذاتية » فى أدب « طه حسين » عارضة كتب : الأيام ، أديب ، وشجرة البؤس . وخلصت من هذه الدراسه الى أن الأيام هى الترجمة الذاتية فى أدب « طه حسين » ، وأن كلا من أديب وشجرة البؤس إنعكاس لعنصر الذاتية فى أدبه .

وركزت دراستى فى كل من السيرة العامة والترجمــة الذاتية على منهج « طه حسين » الذى ارتضاه لنفسه فيها .

وعقدت فى الباب الخــامس بعد مقارنـات بين « طه حسين » وغيره من أدباء عصره . وكان هدفى من هذه المقارنـات توضيح معالم ذلك المنهج الذى انتهجه المؤلف فأتخذت للمقارنة فى باب السيرة العامة حياة « محمد » للدكـتور محمد حسين هيكل ، « وعبقرية محمد » و « عبقرية الصديق » للاستاذ عباس محمود العقاد . وقـد تبين لى من هذه المقـارنة أن « طـه حسين » يخالفهم فى المنهـج . وقد ألقت دراستى لها مزيدا من الضوء على دراستى « لطه حسين » .

وفى باب الترجمة الذاتية تناولت كـتب « حياتى » « لأحمد أمين » و « أنا » لـ « العقـاد » و « ذكريات عارية » لـ « لسيد أبو النجا » و « سجن العمر » لـ توفيق الحكيم . ومن الأدب الغربى كـتاب « اعترافاتى » لـ « جان جاك روسو » وكـتاب « سيرتى الذاتية » لـ « برتراند رسل » .

وتبين من هذه الدراسه أن « الأيـام » قد تميزت عن سواها من الـتراجم الذاتيه بعناصر هيأتها لها ظروف المؤلف الخاصة وساعدت على إبرازهـا وقد شرحت هذه العناصر فى أثناء دراستى لها .

وفى مقـارنتى لدراسة الشخصية الأدبية عند « طـه حسين » بغيرهـا من الدراسات فقد تناولت كـتابى « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » للدكـتور عبد الوهاب عزام ، و « أبو نواس » للاستاذ العقاد . فخرجت من هذه المقارنة بـــأن « طه حسين » كان أكـثر توفيقا فى توفير عناصر النجاح وخاصة العنصر الفنى .

وقد انتهجت خـلال هذه الدراسة المنهـج النقدى التحليلى الذى لا يكتفى بالعرض والتفصيل والسرد بل بالمناقشه والتحليل . وقد دفعنى لذلك موقف « طه حسين » ومنهجه الذى اختاره لنفسه واقتنعت أنا به فتمثلته وحاولت الاقتداء به . وأدب « طـه حسين » خـير ما يشغل الأذهان ويعطى للعقول دفعه عمل ونشاط ، وان المرء لا يقرأ له كـتابا طلبا لقضاء الوقت أو رغبة فى الاسترخـاء بل يقرأ ليستمتع ويفيد ، فـأدبه أدب يفتح أمام الفكر أبواب التأمل والفهم والمناقشة .

وأرجو أن أكون قـد وفقت من خـلال هذه الأبواب الخمسة إلى عرض منهـج أديبنا الكبير فى « فن السيرة والترجمـة الذاتية » . ويحـدونى الأمل أن أكون قد استطعت اجـلاء معالم فن السيرة العامة فى أدبـه إذ أنى لم أقف على دراسات عميقة لهذا الفن فى أدب « طـه حسين » ، وكل ما سبق من دراسات لم يتناول هذا الفن إلا بنظرة عامة لا تعتمد على الدراسة والتحليل . لذلك أرجو أن تـكون دراستى هـذه هى أول دراسة منهجية تحليلية لفن السيرة فى أدب « طه حسين » .

الباب الأول

السيرة والترجمة الذاتية فنا وتطورا

يعتبر فن السيرة من الأنواع الحديثة في الآداب الغربية . وقد أخذ طريقة إلى الأدب العربي مع ما ظهر من تلك الأنواع كفن القصة نتيجة الاتصال المباشر بينها .

ولكن ... أصوله الأولى مع ذلك كانت في تراثنا ... ولم يبدأ الكتاب من الفراغ . لهذا فإنهم حين أخذوا بأسباب هذا الفن وجدوا مادتهم وفيرة فأعادوا تنسيقها وبناءها .

وأحاول في هذه الصفحات أن أقدم تصورا لأصول هذا الفن المحدث وخصائصه وتطوره في الآداب الغربية وفي أدبنا الحديث ... لنصل منه إلى فن السيرة والسيرة الذاتية عند « طه حسين » .

... ...

وقبل الخوض في موضوع السيرة ... يجب أن نصطلح أولا على التسمية الصحيحه لهذا الفن . فهل تكون هذه التسمية « سيرة » ... أو « ترجمة » ؟

ولعلنا قد لاحظنا أن كلا من الكلمتين قد تستعمل في نفس الوقت لنوع واحد من الدراسة ... مما أوجد بعض اللبس في الأذهان يقول أنيس المقدسي : «السيرة منها العام أي الذي يتناول أشخاصا كثيرين ككتاب الطبقات لابن سعد ... وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ... ومعجم الأدباء لياقوت ... ووفيات الأعيان لابن خلكان ... ومنها الخاص كالسيرة النبوية لابن هشام ...

وللايضاح سنطلق على العام لفظة كتب التراجم ... وعلى الخاص كتب السيرة » . [1] .

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الحديثة : أنيس المقدسي ص ٥٤٧

هكذا أرتضى « أنيس المقدسى » هذه التسمية . أما « ماهر حسن فهمى »
فيقول : « كلمة سيرة فى التراث العربى أقدم فى الاستعمال من كلمة ترجمة ... من
حيث مدلولهـا فى تتبع تاريخ حياة شخص من الأشخاص . فالأولى إستعملها
« محمد بن أسحق » فى تاريخ حياة الرسول ... وبقى هذا المدلول حتى القرن
الرابع الهجرى حين كتب « إبن الداية » سيرة « إبن طولون » فتطور المدلول
من الخاص إلى العام .

والمعاجم العربية القديمة تغفل استعمال كلمة ترجمة للدلالة على تاريخ الحياة .
ولكن المعاجم المعاصرة تستخدمها بهـذا المعنى . ولعل الاستعمال وحـده الذى
فرق بين الكلمتين فى المدلول حين استعملت « سيرة » لتواريخ الحياة المسهبة و
« ترجمة » « للتواريخ الموجزة » . [1]

وإذا أمعنـا النظر فى الكلمتين وجدنـاهما تؤديان نفس المعنى . وتعطيـان
نفس المـدلول . غير أن احداهما تسبق الأخرى . فكلمة سيرة هى التى كانت
شائعة فى القديم . وكلمة ترجمة هى الأحدث ، ولكن الكلمتين بمعنى واحد .

فاذا قلنـا هذا الكتاب فى السير ... أو هذا كتاب فى التراجم . أو قلنا
هذه سيرة فـلان ... أو ترجمة لفلان ... فـإن يختلف الفهم . فهما اذن كلمتان
بمدلول واحد ... وان اختلفتا من حيث الشكل لكن المضمون واحد .

ما هى السيرة ؟

ولعل الاصطلاح على التسمية يدفعنا إلى الخطوة التالية التى تقفز إلى الذهن
مباشرة بعد النظرة الأولى فى الموضوع .

---

(١) السيرة تاريخ وفن : الدكتور ماهر حسن فهمي ص ٣

ماهى السيرة ؟ أو ماهى الترجمة ؟ :

لقد عرفها كثير من الأدباء بأنها :

(أ) « هى المؤلف الروائى الذى يسجل بوعى .. وفنيه ... الحدث ، ويعيد للحياة وجود شخصية إنسانية » . [١]

و « انها صيغة معقدة . فهى من جهة تشبه القصة الدراميه لأن موضوعها هو الحياة الانسانية » . وفرع من الأدب يحتوى على تقرير عن حيـــاة أشخاص وهى صيغة أدبية قديمة جداً » . [٢]

ويقول دافيد سيسل : « ليست صيغة مهمة فى الفن الادبى . لكن لهـا جاذبيتها الخاصة بالنسبه لدارس الأدب الحديث وذلك لأنها الصيغه الوحيدة الحديثة » . [٣] و « ان السيرة هى فرع من علم النفس التطبيقى » . [٤]

ويصفها أندريه موروا . « أنها لايمكن أن تكون إلا فنا » [٥]

وتقول فرجينيا وولف : « انها ليست فنا ... ولا علما ... انمـا هى نوع من الصنعه الراقية . وهى خادم للحقيقة والصراحة والنزاهة وهى الآلهـــة الثلاثة التى ترعى السيرة وتقف عندها » [٦]

ويصفها « ليتون ستراتشي » : « أنها أذوق . وأرق الفنون طراً » [٧]

---

(١) Encyclo Peadia Britannica Volume 3

(٢) Purnell,s new Englieh Encyclopeadia. Biography

(٣) Anthology of Modern Biogaphy. David Cecil.

(٤) Nature of Biography py Nuzzy, p. 111.

(٥) (٦) فن السيره الأدبية ليون ادل ترجمة صدق خطاب ص ١٥ ،

(٧) المرجع السابق ص٩

(٧) ويقول عنها « محمد عبد الغنى حسن » : « التراجم هى ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذى يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفا يطول أو يقصر ويتعمق أو يبدو على السطح تبعـا لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة « وتبعا لثقافة المترجم — أى الترجمة — ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة ... دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التى تجمعت لديه عن المترجم له » . (١)

(٨) ويقول « إحسان عباس » : « ليست من الأدب المستمد من الخيال بل هى أدب تفسيرى . . ... السيرة تزاوج متعادل بين حقائق التاريخ والقوة المتخيلة البارعة فى الحذف والاثبات . والبناء » . (٢)

(٩) ويقول « محمد يوسف نجم » هذا النوع يقوم على وحدة الحياة لا وحدة الحادثة أو وحدة العمل القصصى أو وحدة التأثير » . (٣)

و « هو نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى والإيقـاع القصصى ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ، ورسم صورة دقيقة لشخصه » . (٤)

« لايكسب العمل الأدبى صفة السيرة بمعناهـا الحقيقى إلا إذكان تفسيرا للحياة الشخصية فى جوهرهـا التاريخى ... أو كما يقول ناقـد عصرى : « أن

---

(١) التراجم والسير محمد عبد الغنى حسن ص ٩

(٢) فن السيرة : إحسان عباس ص ٩٠

(٣) فن القصة : محمد يوسف نجم ص ٣٠

(٤) الفنون الأدبية وأعلامها : أنيس المقدسى ص ٥٤٧ ، ص ٥٥١

فالسيرة إذن عمل أدبي يأخذ أحياناً من التاريخ ما يحتاجه ... ولكنه لايعدو أن يكون عملا أدبياً أولا وأخيراً .

... ...

الترجمة الذاتية :

والسيرة فى تكوينها الفنى تنقسم قسمين : Biography أى ترجمه غيرية أو موضوعية . و Autobiography أى ترجمة ذاتية .

وقد تحدثنا عن السيرة بوجه عام . ويشمل حديثنا هذا السيرة بفرعيها ... إلا أن الترجمة الذاتية تحتاج إلى حديث خاص لكى تتضح لنا معالمها أكثر . وليتم أيضاح الفروق بين هذين الفرعين . نقول :

أن الترجمة الذاتية ... تفاصيل حياة شخصية يكتبها صاحبها بنفسه . وقد يظن أن أى كتابة للشخص عن حياته أو عصره تكون بمثابة سيرة ذاتية . لا « فالحقيقة أنها نوع من الأنواع الأدبيه تقوم على خصائص معينة وينظر فيها إلى المقالات الشخصية واليوميات والرحلات والقصة الذاتية . انها بوضوح يجب أن تكتب بواسطة الشخص نفسه لا عن كتابات خيالية تؤخذ من مؤرخين محترفين » . (١)

« ومن الأفضل أن نرجع الترجمة الذاتية إلى الكتابات التى تركز بصفة أساسيه على النفس أكثر من ارتكازها على الحوادث الخارجيه » . (٢)

---

(١) Encylopedia Britanica, Volume 2

(٢) Encylopedia Britanica Volume 2

فالترجمة الذاتية هي أن يكتب إنسان تاريخ حياته مسجلا حوادثها ووقائعها المؤثرة في سير الحياة . متتبعا تطورها الطبيعي من الطفولة إلى الشباب ثم الكهولة .

وان كانت الترجمة الذاتية مدعاة إلى الحديث عن النفس بما في ذلك من غرور بشرى طبيعي ومباهاة . وذلك لما عرف عن الانسان من حب لذاته . ومن ثم كان لابد من الاعتدال . وبهذا تكون أصدق ما يكتب عن النفس وبهذا يتضح أن الأمر أكبر من مجرد حديث عن النفس أو ذكر للمآثر والمفاخر وإلا ما كانت لتجد صدى لدى القراء . فالانسان بطبعه ينفر من هؤلاء الذين يتحدثون عن أنفسهم: ولكنا نجد القراء يقبلون على السيرة التي تتوخى الصدق وتقدم النفس في اطار الغاية والهدف لا في اطار التباهي والثرثرة الفارغة التي لاتثير في النفس إلا الملل .

فهي نقل لتجربة الكاتب إلى القارىء ومتنفس لمشاعر الفنان المثقل بالمعاناة والسيرة الناجحه هي التي تحقق هذه الغاية الفنية التي تريح الكاتب وتفيد القارىء مقدمة في اطار قصصي أدبي جذاب .

أى أن السيرة الذاتية ليست إلا حديث النفس متسما بالصدق والجراءة والصراحة . تلك الصفات التي يجب أن يكون عليها كاتب السيرة ضرورة . سواء ذاتية أم غيرية .

صفات كاتب السيرة :

فلكاتب السيرة سمات معينة . وصفات تميزه عن غيره من الكتاب والأدباء صفات تفرضها عليه طبيعة الفن الذي يعالجه وهو فن له طبيعة خاصة . لذلك لابد أن يكون كاتبه صاحب طبيعة وحساسية خاصتين . فهو كاتب وناقد ،

محقق وذواقه فى نفس الوقت

وحين يكتب الكاتب بدافع فنيء بحت ... كاحساسه بالمعاناة النفسية التى تحتوية نتيجة ظروف أو تجـــارب خاصة ... والذى يكتب ليفيد ويستفيد . ويفيد القارىء بتجاربه ويستفيد بالتنفيس عن نفسه وإطلاق روحه من عقالهـا والحصول على تلك المتعه الفنية المتولدة عن الصدق والقدرة على التأثير . حين يفعل ذلك يكون أهلا لكتابة السيرة ... لأنه يخلصها من مظنة الدوافع المادية مثل الرغبة فى المال أو الشهرة أو الدفاع عن النفس أمام الخصوم .

« وللحقيقة الأهمية الكبرى ، فان كاتب السيرة الذى يحاول أن يستغل الشخصية التى يتناولها للاعلان عن عقيدة أو عن حزب ... حتى ولو كان ذلك بقصد الهداية انما هو مدلس وغير أهل للثقه ... ويجب ألا يؤثر تجاوبه مع الشخصية على حياده ويجب أن تترك الحقائق وحدها تتكلم من نفسها ، على أن يكون نقده مذكورا ضمن هذه الحقائق وليس مؤكدا لها » . (١)

ويرى احسان عباس مواصفات يضعها لكاتب السيرة . إذ يقول : « لابد لكاتب السيرة من يقظة ذهنيه مستمرة مشفوعة بارهاف خاص من التميز والحدس والترجيح ، ذلك لأن مهمة كاتب السيرة كمهمة أى فنان بعد أن تصبح المـادة جاهزة لديه . مهمته أن يقرب ويبعد ويستبقى ويرفض وأن يضع ميزان الاختيار أمامه فى كل شيء يستحق التسجيل . وليس يكفيه أن يكون له ما للمؤرخ من قوة ناقدة تعرف أين هو موطن الضعف وتفرق الرواية المغرضة من الرواية الصحيحة بل لابد له من ادراك ذوقى دقيق يعرف به مايحسن أن يبقيه أو

---

(1) Thə reader's Guide. Sir Willam Emrys Williams p. 88

ينفيه من الصحيح نفسه » . ويقول عنه أيضا : « كاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصى فى طريقة العرض والبناء الا أنه لايخلق الشخصيات من خياله ولا يعتمد الشخصية الأسطورية ككاتب المسرحية ومن ثم كان فى طريقته أقرب إلى المعمارى ، وهو كالمؤرخ فى قوة النقد ، وكالعالم فى القدرة على التصنيف والتقسيم » . [1]

ويدلى « أدل » برأيه فى كاتب السيرة : « اننى على يقين من أنه لو قام أحد بدراسة سيكولوجية لكتاب السير لوجد أنهم عادة قد دفعتهم أسباب شخصية عميقة إلى كتابة هذه السير . وهى أسباب لاتتصل دائما بالموضوعية والبحث عن الحقيقة . وقد قدم فرويد فى سيره للنوازع الباطنية عند الانسان تحذيرا عميقاً لكاتب السيرة الذى ينسى نفسه كلية ولا يشرع فى كتابة حياة بطله ... وانما يكتبها من جديد . وقد وصف فرويد هؤلاء الكتاب بأنهم يتسمرون عند أبطالهم بطريقة غريبة . وأعتقد أن ليتون ستراتشى كان يفكر فى مثل هذه الأخطار عندما تحدث عن حاجة كاتب السيرة إلى أن يحاول معرفة نفسه قبل أن يسعى إلى معرفة حياة انسان آخر وهذا يقودنا إلى مأزق حرج . إذ أن هناك دليلا على أن يسعى لمعرفة حياة هذا الانسان الآخر لكى يعرف نفسه معرفة أفضل وهكذا تصبح معضلة كاتب السيرة مزدوجة إذ عليه أن يقوم حياة انسان آخر بأن يصبح ذلك الانسان . كما أن عليه أن يحرص كثيراً على ألا يصوغ فى أثناء عملية كتابة السيرة صورة بطلها على غرار صورته هو وهذه فى الواقع هى العملية الدقيقة » .

---

(١) فن السيرة : احسان عباس ص ٨٤ ، ص ٨٥

ويقول : « وصف ليتون ستراتشى فن السيرة ذات مرة فقال : انه أدق وأرق فنون الكتابه طراً ... وأعتقد أن مصدر هذه الدقة كون كاتب السيرة يسعى إلى أن يبعث الحياة فيما تبقى من مادة جامدة تختلف وراء عبور انسان ما لهذه الحياة الدنيا ... فيسعى إلى أن يسترد ما كان بمثابة الروح والجسد والمشاعر ويصوغها على صورة ذلك الانسان الغابر . ومصدر الدقة أن عملية السيرة هى بطبيعتها عملية تتسم بالانسانية والتهذيب والمدنية . ولما كانت هذه العملية تجمع بين الدقة والرقه فانها تشتمل على كل ما فى الحياة من غموض ومتناقضات » .[1]

● ويعتمد كاتب السيرة اعتمادا كبيرا على مواهبه الشخصية فى النقد . فأمامه حصيلة من معلومات عن موضوعه وعليه تأملها واعادة قراءتها حتى يتيح لهذه المواهب تداعيا وحضورا .

وعليه أن يتمتع بميزتين . ميزة الناقد .. وميزة المؤرخ حيث أن طبيعة العمل الذى يقوم به تجمع أكثر من مقياس . ولعله يحتاج إلى عين الناقد بقدر أكبر من كل الصفات الأخرى التى تلزمه . فبهذه العين يستطيع التفرقة بين الصحيح والباطل من المادة المتوافرة لديه . وبها يستطيع أن يعطى تفسيرا لهذه المادة والعلاقة التى تقوم بين هذه المواد وبعضها . بل انه يحتاج لكل احساس الناقد وعلية أن ينميه ويعمل على رهافته . وبقدر تميز الحس الناقد فيه ... تتميز السيرة وتبلغ ما تبلغ من الدرجة الفنية .

فالسيرة حياة وبها تعقيدات الحياة نفسها . والخوض فيها ليس من السهولة

---

(١) فن السيرة الأدبية : ادل ص ٩ ، ١٨ ، ٢٠

بالقدر الممكن تصوره . فالكاتب مضطر الى الاستطلاع والبحث والتحليل والقدرة على نفاذ البصيرة والتعاطف بينه وبين الموضوع . وهذا التعاطف الذى يخلق الفهم المتبادل . وترى : « فرجينيا وولف » Virginia Woolf أن كاتب السيرة يستطيع أن يعمل على اثارة الخيال أكثر من أى شاعر أو روائى وذلك باخبارنا بالحقائق الصحيحة وبغربلة الصغير من الكبير وبتشكيل الكل حتى نستطيع أن نرى الخلاصة حيث أن كل كاتب سيرة تقريبا يستطيع إذا احترم الحقيقة أن يعطينا الحقيقة الخلاقة الخصبة التى توحى وتثمر . (١)

ويقول : Muyzy فى كتابه The Nature of Biography عمل كاتب السيرة هو أن يحصي نـاتـج القوى التى تتكون من الشخصية . ومشاكل العصر الذى عاشت فيه . ولاينبغى أيضا أن يصف الرجل نفسه أو شخصه أو أخلاقه أو تفرده » . (٢)

ولماهر حسن فهى رأى يقول فيه : « إذا كانت القدرة على جمع الحقائق هى المهمة الأولى لكاتب السيرة . والقدرة على تشكيلها هى المهمة الثانية ... فان وجهة نظر الكاتب لها قيمتها فى منح السيرة . بعدا فكريا وقيمة تزيد خصوبتها وتكشف كل زواياها وتمنحها قوة الاقناع والتأثير » . (٣)

وبعد هذا الحديث عن كاتب السيرة يتضح لنا أن المهمة ليست سهلة وأن كاتب السيرة أديب يخوض الصعب وهو الذى ربمـا نظر الناس اليه على أنه

---

(١) فن السيرة الأدبية : ادل ص ٧٥ . ترجمة صدقى خطاب

(٢) The Natnre of Biography p 8

(٣) السيرة تاريخ وفن : ماهر حسن فهمى ص ٧٤

صاحب صنعة سهلة باعتبار أن مادته جاهزة وميسرة بين يديه سواء كتب عن نفسه أو عن غيره ولكن الواقع غير ذلك فالحقيقة أن كاتب السيرة أديب من نوعية مختلفة عن باقى الأدباء. فلابد أن تجتمع له مواهب ربما فاقت مواهب الأديب الذى يتناول فروعا أخرى من الأدب . فهو مطالب بأن يجعل من كتابته للسيرة هدفا كبيراً ويفتح آفاقا جديدة للناس مستمدة من التجارب التى يخوضها بقلمه ... ثم عليه أن يصور هذه التجارب بصورة تجذب القارىء وتجعله يعيشها . وعليه أن يحطم الحواجز التى تعوقه عن تسجيل خواطره بصدق فاذا كان كاتباً ذاتياً . فعليه أولا أن يواجـــه نفسه وأن يتجرد من حب الذات . ولنا أن نتساءل : إلى أى مدى يستطيع أنسان أن يعرى نفسه أمام الآخرين ؟.

وهذا أصعب مافى السيرة . فمسألة العيوب والأخطاء ليست بالأمر الهين ... وهذه أمور يحاول الكاتب أن يتجنبها أو يعتذر عنها ويبررها إذا أضطر إلى ذكرها . وهذا يخلق جوا غامضا إذا ماحاول القارىء الوصول لفهم طبيعة فترة زمنية أو طبيعة شخصية .

« والخطأ الشائع الرئيسى لكاتب السيرة يكمن فى رغبته أما فى تمجيد الشخصية التى يتناولها ... وأما فى محاولة إبراز الجانب الخلقى لهذه الشخصية . ولقد تساءل أحد كتاب السيرة الألمان المعروفين » لماذا نشقى أنفسنا بالكتابة عن الشخصيات إذا لم يكن الهدف من العملية هو اعطاء المثل أو ايضاح المحاذير » . والاجابة على هذا السؤال هو أن المخلوقات الآدمية موجبة للاهتمام إكراما لها . وليس لأنها أمثلة لأمور معينة ... أو لأنها محاذير من الوقوع فى أمور أخرى ويجب أن تتحرر السيرة تماما من الوعظ أو تعمد تهذيب الأخلاق . وكل ما

هو دخيل على غرض سرد قصة أو رسم شخصية فانه يفسد فن كتابة السيرة » . (١)

ويتساءل محمد عبد الغنى حسن : « لكن هل يستطيع انسان أن يكتب عن نفسه مالا يود أن يراه الناس منه ويعرفوه عنه ؟ وهل يستطيع انسان أن يبدى نفسه للناس على سجيته وفى مباذله من غير أن يحاول ترميم العيوب التى لا يجب أن يطلع غيره عليها ؟ . (٢)

ولكن من الواضح أن النجاح فى السيرة الذاتية لا يرتبط كل الارتباط بالحقيقة وحدها . وأن كانت هى الأصل ، والا لأمكن لأى انسان يستطيع تعرية نفسه من الداخل أن يكتب سيرة ذاتية ناجحة . فالسيرة بهذا الشكل لا تكتمل ، حيث تصبح مجرد سرد لوقائع حادثة . ولابد لاكتمالها من جانب حقيقى وجانب فنى .

وفى كتاب Aspect of Biography يقول المؤلف : « هل تستطيع الترجمة الذاتية مثلا أن تسعفنا بما نود استحضاره من ذكريات الطفولة والمراهقة وإذا كان النسيان غير المقصود يفوّت علينا حين نترجم حياة أنفسنا ذكريات ما من بعيد ، فان هناك نسيانا مقصودا متعمدا حين يمنعنا الخجل والاستحياء من ذكر صغائر فى حياتنا قد لا تشرف الصفحة التى نريدها ناصعة البياض . فليست هناك سيرة ذاتية تمثل الصدق الخالص .

ولذلك كان « جون » محقا كما قال موروا حين سمى سيرته « الشعور

---

(1) The reader's Guide: W. Emrys P. 88

(٢) التراجم والسير : محمد عبد الغنى حسن ص ٢٣

يكون فيها ملتقى الحق الفنى بالحق التاريخى ، فهى ليست مجرد أخبار تاريخية ولا هى مجرد تحليلات نفسية أو اجتماعية . بل هى كل ذلك مسبوكا فى قالب فنى ذى طلاوة ورواء » . [١]

... .

فالسيرة اذن : فن ... وعلم ... وصناعة كما ذكر جميع هؤلاء الكتاب فى تعريفها . وأضيف : « وصدق » بل انى أعرفها بأنها : حديث صادق سواء عن النفس أو عن الغير . فالكاتب حين يصدق خاصة فى هذا الفرع من الأدب يأتى انتاجه مؤثرا فى الناس ... يلمس منهم أعماق نفوسهم لأنه حديث القلب للقلب .

ففى هذا الفن — فن السيرة — لابد وأن يغلف الفن . والعلم والصناعة بغلاف « الصدق » ... هذا اذا اراد الكاتب أن يصنع شيئا خالدا . ويصدق « تيمور » حين يقول : « لا فن الا إذا كان مصدر الوحى أعماق النفس وأغوار الشعور ... ولاصدق الا اذا تحققت الاستجابة والتأثر بين الكاتب وما يعالج من تصوير وتعبير » . [٢]

وكذلك يمكن أن نقول مع القائل أن « الأدب فى حقيقته ليس إلا تفسيرا عميقاً للحياة ... والمحك الحقيقى لعظمته وخلود أى أثر أدبى هو مدى اتصاله بالحقائق التى تجعل الحياة الانسانية أكثر عمقاً وأوسع شمولا » . [٣]

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها : أنيس المقدسى ص ٥٤٧ ، ص ٥٥١

(٢) فن القصة : محمود تيمور ص ٨٢

(٣) فن القصة : محمد يوسف نجم ص ٦٠

ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحـــال أن تكون السيرة مجرد سرد للحقائق الجافة أبتغاء للصدق . فـــلابد من تغليف الحقائق بثوب أدبى حتى يكون العمل عملا فنياً أدبياً . فالسيرة ليست تاريخـا محضا . لذلك كان لابد أن يدخل فى تكوينها : الفن . والعلم . والصناعة . والصدق .

ولكى تكون الترجمة بقسميها الذاتى والغيرى ... أقرب إلى الأدب فـلابد أن تكتسى ثوبا أنيقاً من البلاغة والصياغـة الأدبية ... على ألا يتسبب ذلك فى الصنعه والمبالغة فى الفن الأدبى والأستغراق فى جمـال العبارة اللفظى فتبتعد السيرة عن أصل موضوعهـا ... وتصبح عملا أدبياً فقط . فعـلى السيرة أن تأخـذ من المنبعين كليهما « الحقيقة » و « الفن » بقدر متعادل . فلتكن الحقيقة الصادقة ممزوجة بهذه الفنية الروائية التى تصور لنا الأشخاص بمـا يختلج فى نفوسهم من خير وشر حتى نلمس صورة واضحه للكائن الحى .

وإذا كان التنقيب وراء الحقيقة ومحاولة جلاء غموضهـاهو عمل التاريخ فان عمل السيرة يبتغى هذه الحقيقة فى النفس البشرية .. فى محـاولة الكشف مواهب هذه النفس فى ظروف تلك الحياة التى عاشتها . والتأثير الذى تركته فيما حولها .

والتاريخ عرض وقائع . أما السيرة فهى إعادة حياة إنسان .

« وعلى وجـه الدقـه فالترجمة يجب أن تتعلق بحياة شخص ... محاولة أن لاتحصى فقط حوادثها ... بل إعادة بعث صورة الشخص كما كان . ومن هذا التصور فالترجمة كانت مرتبطة برباط قديم بالأدب » . (١)

---

(١) Durnell;s New English Encyclopeia Vol 2 No 1

والحقيقة » أشارة منه إلى أن حياة كل فرد انمـــا هى مزيج من الحقيقة والخيال » . (1)

وهناك محاذير ينبغى لكاتب السيرة أن يتجنبها. فاذا كان كاتباغيريا فليست مهمته سهلة . فهو يواجه بالمصاعب خاصة إذا بعد العهد بينه وبين من يترجم له فليس بالشيء الهين العثور على ما يلزمه لكتابة السيرة . وقد وقف الزمن حائلا بينه وبين ما يريد وقد صدق : أدل، إذ قال: أما كاتب السيرة المتأخر فلا يسمع إلا حفيف يد الأوراق ازاء صمت القبر .

أما إذا كان من يترجم له معـاصرا ... فهذا سيجعل المهمة أسهل بعض الشيء الا أن هناك عـدة اعتبارات وظروف تتحكم فى السيرة فى ذلك الوقت وقد يسعى المترجم له نفسه إلى اخفاء الحقائق والتخفى عن كاتب سيرته . أو رغبة منه فى كتمان أسرار خاصة .

فهمة الوصول إلى المادة ليست مهمة يسيرة إذ لا بد من مصادر ومراجـع للحصول على المعلومات التى تشكل إطـارا خارجيا للسيرة ، اللهم إلا إذا كان الكاتب معاصراً للمترجم له . وفى هذه الحـال يكون الكاتب ملما بملامح العصر نفسه . إلا أن هذه الميزة تفقد أحياناً فى غمار المجاملة التى تتطلبها بعض الأوضاع الاجتماعية ... وأحياناً تقضى طبيعة الأوضاع بالمعارضة .. وتتوه الحقيقة بين هذا وذاك . وأحيانا يعتمد الكاتب على جمع الأخبار من الناس فيلقى ذلك عليه تبعة السعي خلفهم والتحقق والتثبت .

والوثائق التى يعتمد عليها كاتب السيرة تكون مذكرات أو رسائل وروايات

(I) Aspect of Biography p. 179

من الأحياء وشواهد تجمع ، وأحياناً تعوزه الدلائل فى أدق المواقف أو يقع بين التناقض فيما لديه ، أو قلته . فتصبح كتابة السيرة شيئاً عسيراً . يقول « أدل » : « من الطبيعى أن تكون كتابة حياة أديب نوعا من الفضول الشائن ... ومن أقتحام الحياة الخاصة . أن لم تهدف دائما إلى اضاءة الجوانب السحرية والغامضة فى عملية الابداع » . [١]

ويقول هنري جيمس : « أن على الفنانين أن يأخذوا حذرهم عندما يتقدم بهم العمر ... فيخلوا أدراج مناضدهم من محتوياتها ويطمسوا كل مايتصل بحياتهم الخاصة فان لم يفعلوا ذلك فان النقاد وعلماء النفس والثرثارين قد يجدون بعض السنابل بعد الحصاد . ولاشك فى أن من حق الانسان أن يحدد مايجب أن يعرفه الناس عنه ومايجب ألا يعرفوه . »

وفى مقال له عن جورج صاند عاب الطريقه التى نشرت بها غراميات هذه السيدة الفاخرة الانتاج وعاب الطريقة التى عرضت بها رسائلها العاطفية . استهل مقالته بقوله : « أن ترك كل شىء لكاتب السيرة لتسهيل مهمته يشبه تعرى الانسان أمام الجمهور ... وعندما يعرى الانسان حياته كما فعلت « جورج صاند » وكاتب سيرتها لما الذى يبقى جديراً بالمعرفة . » [٢]

وعلى ذلك تكون المسئولية مشتركة بين الكاتب وصاحب السيرة . فهناك أسرار موضوعها الكتمان ويكون من الأفضل لو أنها بقيت فى أعماق الصمت . وربما كان ذكرها لايفيد فى تقدم السيرة أو فنيتها . فعلى المكتوب عنه أن

---

(١) فن السيرة الأدبية : « أدل » ص ١١

(٢) فن السيرة الأدبية : « أدل » ص ٤٧ ، ٤٩

يجيد اخفاء مثل هذه الأسرار . وعلى الكاتب أن يفرق بين ما يقال وما لا يقال . ويتحرى الروح التاريخية الصادقة فقط .

كل هذه الأعباء يحملها كاتب السيرة فوق قلمه . ويزيد عليها صفات متميز ليكمل موهبته الخلاقة .

وأهم صفاته المميزة : العدل والإعتدال . فيذكر ما لصاحب السيرة وما عليه . فلا يندفع في اصدار أحكام تعظم من أمره ... أو تضعه فى مكان أكبر من حقيقته . أو أحكام تنقص من قدره أو تحط من شأنه . أى يكون منزها عن الهوى . متجرداً من ميوله الشخصية . أضف إلى هذه الميزات الذوق الراقى والقدرة على الانتقاء وهنا يحتاج إلى حاسة الناقد النافذة ليقوم بعملية الأختيار .

أى أن كاتب السيرة نوع خاص من الأدباء كما قلنا من قبل يجب أن يكون كاتباً ... ناقداً ... محققا ذواقا ... فهو بحق نوع متميز من الأدباء .

بين كاتب السيرة ... وكاتب الترجمة الذاتية :

آن لنا الآن أن ننظر فى هذا الفن ذى الشقين . وأن نوازن بين شقيه . وأن نتساءل : هل يستطيع أى كاتب سيرة أن يكون كاتبا ذاتياً ؟

فالكاتب الغيرى كاتب موضوعى بمعنى انه يتناول موضوعا بعينه بحقائقه ويجعل منه هدفا فنيا يبرزه بطريقته الأدبية . أما الكاتب الذاتى فهو لا يتناول موضوعا منفصلا عنه ... انما يتناول ذاته . فهو الموضوع وهو الكاتب فى نفس الوقت . وهو صاحب الأحداث لا مسجل فحسب .

والكاتب الغيرى يعتمد على وثائق ومعلومات مجمعة والـكاتب الذاتى يعتمد على ماعاشه ومارسه . فهو وحده الذى يملك المعلومات والوثائق .

وإذا كان كل من الكاتبين يبغى الوصول إلى أغـوار النفس وسبر أبعادها إلا أن لكل منها وسيلة . فالكاتب الغيرى يستعين بـكل مالديه من مواد حتى يصل إلى داخل تلك النفس التى يكتب عنها ويظهرها . فى حين أن الكاتب الذاتى يستعين بمـا فى داخل نفسه حتى يجعل من مادته شيئا ظاهرا مفهوما .

والكاتب الذاتى يمتاز أنه يكتب باحساسه الشخصي . احساس صاحب الشيء . فهو وحده يفهم أحاسيسه وشعوره فهو يكتب حقائق لكنها مغلفة بالأحاسيس والمشاعر . ولكن كاتب السيرة الغيرية يكتب الحقائق فقط بدون الأحاسيس . انه يكتبها بفهمه ومشاعره للاخرين .

والكاتب الذاتى هو صاحب الكلمة الأخيرة فى موضوعه فلا يستطيع أحد أن يضيف لمادته شيئا جديداً . أما الكاتب الغيرى فهو كاتب بين الكثيرين . ومن الممكن أن يضاف إلى موضوعه دائما شىء جديد . ومن الممكن أن يتناول موضوعه كتاب آخرون ربما يملك بعضهم أكثر مما يملك من معلومات ووثائق . ومن الممكن أيضا أن يخرج بعضهم السيرة بشكل آخر ومن منطلق جديد

والكاتب الغيرى يمتاز بأنه يملك الوقت . فهو حر فى توقيت تسجيل حياة شخص ما . فأمامه دائما حياة مكتملة . أما الكاتب الذاتى فهو دائمـا فى حيرة . متى يكتب سيرته ؟ وما هو الوقت الأمثل لذلك ؟ . هل هو وقت الشباب أو هو وقت الكهولة والأعمار قدر مقدور ؟ !

إلا أن الموضوعية ضرورية للكاتبين كليهما . حقا أن الكاتب الذاتى يعتمد كلية على الدافع الشخصي ألا أنه يجب أن يكون موضوعيا أيضا بمعنى التجرد من الولاء الذاتى . فهو يكتب عن ذاته لكن بموضوعية .

والكاتب الغيرى موضوعى أولا وأخيرا فى نظرته إلى صاحب السيرة . وإلى كل مايتعلق به من حقائق وحوادث وملابسات .

ومؤلف السيرة الغيرية مشاهد لاحكم . . أما المؤلف الذاتى فهو مشاهد وحكم فى نفس الوقت . الأول ينقل الصورة كما كانت . . صحيح إنه ينقلها فى إطار من صنعته . لكنه لايتعدى حدود الاطار بحيث لايخلص إلى أحكام أو نقد .

أما الثانى فهو ينظر إلى الداخل بعين النقد والملاحظة فهو أدرى بصاحب الصورة . . وكأنه شخص ينظر فى المرآة . فهو أعلم بما يرى . وعلى ذلك فهو لايصور نفسه فحسب . وإنما يحكم عليها محاولا التجرد من عوامل الضعف البشري التى تزين للانسان ذاته وتحببه فيها . فيكون صادقا . ولكن . . إلى أى مدى ؟ . فالصدق الخالص عبء كبير لا تتحمله الطبيعة الإنسانية . فليكن اذن صدقا بقدر المستطاع .

بين السيرة ... والترجمة الذاتية :

يتضح لنا مما عرضنا أمر السيرة الذى لايعدو فى ظاهره أن يكون رسما للشخصية وتتبعا للخط البيانى لنموها وتطورها ... الا أن فروقا بينه تبقى مع ذلك بين الفنين ينبغى أخذها فى الاعتبار .

فالسيرة الذاتية تستقطب الذات ... وتحتاج فى كتابتها إلى درجة من

المعاناة تنبع من النفس تدفع الأديب إلى أن يكتب عن ذاته . وتلك سمة السيرة الذاتية .

أما السيرة الغيرية فلا تحتاج لهذه المعاناة الوجدانية ويكفى عند كاتبها الاعجاب بالشخصية ليكون ذلك حافزا للكتابة عنها . وقد يكفى بالنسبة للكاتب الغيرى أن تحظى إحدى الشخصيات باهتمام الجماهير واعجابها ... أو يكون لهذه الشخصية شهرة وصيت ليندفع الكاتب فى الترجمة لها . ليس فى السيرة الغيرية تجربة شعورية ولا يشعر كاتبها أن شيئا ما بداخله يتحرك فيمليه على الورق ليخرج للناس .

كما أن الترجمة الذاتية تحظى بقسط كبير من الصدق ليس بطبيعة الحال هو الصدق المطلق ... لكن فيها نسبة من الصدق . فالكاتب هو الذى يكتب عن نفسه وعن ممارسته الشخصية للحياة ... وهو الذى عانى أحاسيسه وهو الذى يستطيع تصويرها . أما فى السيرة الغيرية فالكاتب متفرج يسجل الحوادث دون أن يحسها لأنه لا يستطيع أن يعيش احساس غيره حقيقة أنه لابد أن يضفى من نفسه شيئا على كتابته . ولكن هذا الشىء لا يعدو أن يكون صنعته الفنية .

والكاتب الذاتى جرىء فكثير من الذاتيين يضمن سيرته اعترافات وأحيانا يعرى نفسه أمام القراء وليس معنى هذا أن كل كاتب ذاتى له القدرة على الاعتراف لأن كثيرين منهم يحاولون التخفى فيصوغون سيرهم بضمير الغائب أو فى صورة روائية حتى يتواروا عن عيون القراء النافذة . ولاشك أن ضمير الغائب يبعدنا بعض الشىء عما بداخل الكاتب ... ولكن بعض

الكتاب يلجئون لهذه الطريقة تستراً من بعض النقائص أو هرباً من تعرية النفس . كما قلنا فان الجرأة لاتتحقق لكل كاتب ذاتى ونادراً ما نجد كاتباً مثل « جان جاك روسو » الذى يعترف بالسرقة فى اعترافاته . ونجد أيضاً « ماريا باشكر » التى أوصت ألا تنشر مذكراتها الا بعد وفاتها . وتعلل ذلك بقولها :
« لأننى قد عرضت نفسى عارية إلى حد لايسمح لى باظهار نفسى عارية هكذا ابان حياتى » (١)

فهذه الدرجة من الصدق والجرأة لانجدها الا فى الكتابات الذاتية والتى من الممكن أن تعطى صورة حقيقية عن صاحبها لايعرفهـا حتى من عاشوا بجانبه .

فبعد وفاة زوجة برنارد شو وجد مجموعة من الأوراق الخاصـة التى لم يكن يعلم بوجودها وبعد أن قرأ عدداً منها قال : لقد عشت مع شارلوت لمـدة أربعين عاما ... والآن فقط أرى اننى لم أكن أعرف الكثير عنهـا ... فيالهـا من صدمة ! ! وقال : انه لابد من وقت طويل لاثنين من الناس كى يفهم كل منهما الآخر . فمن هذه اليوميات التى اكتشفتها أخيرا والخطابات التى كتبتها إلى T. E. Lowrence تحققت من أن ثمة نواحى متعددة فى شخصيتها لم أتعرف اليها وذلك لأنها صبت روحها فى كتاباتها للورنس » . (٢)

ويسأل احسان عباس : « متى يكتب الكاتب سيرته الذاتية ؟ ونستطيع

(١) السيرة تاريخ وفن : عن كتاب الموت والعبقرية ص ١٣٧
(2) Abiographical Portrait of Charlorte Rhaw by Janet Dunlea·

أن نقول في الجواب على هذا السؤال ... أن كل سيرة انما هى تجربة ذاتية لفرد من الأفراد . فاذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت فى نفس صاحبها نوعا من القلق الفنى فانه لابد أن يكتبهـا . والناس مهما يطل عليهم الأمد وتختلف أحوالهم هم أحد رجلين . رجل وصل إلى حيث يؤمل وانتصر على الحياة وصعابها وأحسن التخلص من ورطتها وشعابها . ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الاخفـــاق . وكلا العاملين أعنى الوصول والخيبة يبلغان بالتجربة حد النضج على شرط واحد هو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة ورؤيتها عند التطلع إلى المـاضى على أساس من نظرة ذاتية خاصـــة ولولا هـــذا الشرط لكان كل انسان قادرا أن يكتب سيرة حياته » (١)

وهذه هى المعاناة التى تحدثنا عنهـا ... بل أن احسان عباس يرى أن حظ الترجمة الذاتية من البقاء مرتبط تماما بمدى عمق صراع صاحبهـــا الداخلى والخارجى .

وردا على التساؤل الذى أثاره يجيب : « ليس لدى الكتاب عمر محدود يقفون عنده لكتابة سيرهم . ولكن لاريب أن الاسراع فى كتابة الترجمة الذاتية فى سن مبكرة يفوّت على كاتبها أمورا كثيرة فقد يكتبها قبل أن تتضح له نتائج تطور خطير فى حياته وقد يكتبها قبل أن تقف مبادؤه فى الحياة واضحة جلية لعينه » . (٢)

---

(١) احسان عباس ص ١٠٦ فن السيرة .
(٢) « « « « « « .

بنـاء السيرة :

وبهذا يتضح الفرق بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية ولكن بلا شك أن الفرعين معا يتطلبان درجة كبيرة من الفنية فى كتابتها وطريقة بنائهـــما وتسلسلها . فليس الأمر حديثا عن النفس أو الغير أو جمع وثائق وحوادث وتواريخ وحقائق . وأصبح فن السيرة اليوم لا يقتصر على معالجـة أفعال شخص وتأثيرها فى زمنهـــا أو تأثره بزمن ولكنه أصبح يبرز الشخصية كقيمة ... فكان من الضرورى أن يأخذ هذا الفـن من علم النفس وعلم الوراثة أشياء كثيرة ويضعها فى قالب أدبى ويأخذ أيضا من المسرحية والقصة أسسا كثيرة ، لتحليل الشخصية ، ووحدة البناء ، والاعتماد على الحوار وعمـــق الصراع النفس .

إذن ... فبناء السيرة يقوم على أسس فنيـة تأخـذ الكثير من غيرهـا من الفنون . ويتخذ الكتّاب هيكلا أو بناء خاصـا حسب ميولهم وقدراتهم فى الترجمة الذاتية مثلا يتخذ الكاتب الشكل المناسب الذى يرتضيه ، يقدم نفسه مباشرة ، ويتحدث حديثا مباشرا . وقد يعمد إلى تقديم نفسه من الداخل . وأحيانا يلجأ إلى تحليلها . المهـم أن يتكون الصراع الذى يخلق الفن فيتخذ الشكل الذى يرتضيه .

يقول احسان عباس : « يمكن أن نقسم السير الذاتية وما شابهها حسب كيانها العام وغايتها إلى الأصناف التالية :

(١) الصنف الاخبارى المحض ... وهو يضم الحكايات ذات العنصر الشخصى سواء أكانت تسجل تجربة أم خبرا أم مشاهدة .

(٢) صنف يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير .
(٣) صنف ثالث يصور الصراع الروحي .
(٤) صنف يقص قصة المغامرات في الحياة وما يلاقيه المرء من تجارب .

ويضيف : « ويمكن أن نميز فيما يكتب من السير ثلاث مدارس :
(١) مدرسة ذات طابع أكاديمي تقوم دراستها على التشريح والتحليل والتدقيق في الاستنتاج بعد عـــرض المتناقض المضطرب من الروايات لاستخلاص الحقائق منها . وتحتاج هذه الدراسة إلى قوة خارقة من النقد اللازم لكل من المؤرخ والأديب وكثيرا ما تكون هذه الدراسة مخففة لضعف ملكة النقد فيجيء التاريخ روايات قد تكدس بعضها فوق بعض ... وغرقت في أثنائهـا شخصية الدارس . أما التكوين والبناء الايجابي فهما ضعيفان في هذا النوع من الدراسة .

(٢) والمدرسة الثانية ... قديمة في طابعها لا تؤمن بالدراسة النقدية قدر ايمانها بما قاله القدماء ، لذلك كانت عنايتها بالتراجم لا يتجاوز اعادة ما كتب من قبل في بيان إنشائي مفكك وحماسة مفتعلة .

(٣) والمدرسة الثالثة ... هي التي تنتحل السيرة الأدبية أو شكلا مقاربا لها .

(٤) والمدرسة الرابعة ... الجامعة لأصحاب هذا الاتجاه هي عنايتهم بالفــــرد وإنسانيته على أساس من الجو التاريخي في تطور حياته وشخصيته وتكاملها وكل ما خـــرج عن هذا النطاق ابتعد عمـا تفهم من معنى السيرة الفنية أو السيرة الأدبية » . [1]

---

(١) فن السيرة : إحسان عباس ص ٨٥ .

وفى مسار هذا الهيكل يضـــع الكاتب نصب عينيه الهدف الأول من كتابته للسيرة وهو عرض حياة شخص من الأشخاص فلا ينحرف عن هذا الهدف إلى تحقيق نظريات معينـة أو فلسفات محددة . ويجب عليه أن يكون يقظا متنبها حتى لاتنحرف السيرة عن مسارها فلا يجعل عاطفته منطلقا للاحكام فلا يحكم على صاحب السيرة ويقدره وفقا لاحساسه الذاتى تجاهه . ويجب أن لايشعر الكاتب حين يترجم لشخص أنه قد أصبح المدافع الأول عنه . فليتحر الصدق التاريخى دون أن يطلق لخياله العنان فيما يكتب والا أصبحت السيرة شيئا آخر كالقصة أو الرواية .

والحقيقة أن فى السيرة الكثير من الرواية والقصة والمسرحية وغيرها من فنون الكتابة ... ولكنها سيرة على كل حال ويجب ان لاتغيب هـذه التسمية عن ذهن الكاتب طوال كتابته . يقول « ادل » : « تروقنا طريقة المشهد فى السيرة الأدبية لأسباب عدة أو بالاضافة إلى كونها طريقة مسرحية تمكننا من نقل مرور الزمن بيسر أكثر . فنحن اذ نبنى المشهد فى اثر المشهد الآخر ... نشعر باستمرار بدلا من أن نشعر أننا فى لحظات متبورة . فان بنى صرح السيره على هذا المنوال ظل ثابتا ووطيد الأركان ، فلا ينغمس كاتب السيرة فى ادعاء زائف يزعم فيه بأنه يعيد بناء كل دقيقة ، وانما يخلق جـــوا زمنيا قريبا من ذلك الجو الذى خلقه الروائى . وكلما زاد تفكك السيرة وجدنا فيها فتاتا من الحقائق ونتفا من الشواهد والوثائق دون أن يكون هناك أى دمج حقيقى لها . ولعل ما أنادى به هنا هو أن كاتب السيرة يستعير بعض تقنيات الرواية دون أن يزلق فى السيرة الخيالية أو الروائية » . [1]

---

(١) فن السيرة الأدبية « ادل » ص ١٧٢

ويدلل « ادل » على صحة هذا الرأى بأندريه موروا الذى مارس كتابة الرواية قبل أن يصبح كاتبا للسيرة وقد ساعده هذا على اكتشاف الشكل المثالى لهذه المادة من الحقائق حيث أنه عرف الطريق إلى احداث هذا التوازن بين جدية الروائى الخيالية وبين الحقيقة التى تحيط بعمل كاتب السيرة .

وليس من تحرى الصدق فى السيرة أن تحكم على البطل من خلال حالة واحدة . فلا نطلق حكما عليه من خلال موقف واحد أو حالة نفسية تغلب عليه فى وقت من الأوقات فتشخيص حالة البطل على أساس ما يعـــرف من أمراض نفسية كعقدة الذنب مثلا أو غيرها وتفسير تصرفاته فى حياته بعد ذلك على هذا الأساس يخرج من نطاق السيرة إلى نطاق الدراسات النفسية أو ما شابهها .

• فبناء السيرة يقوم على شمول حياة البطل كلها متتبعا مراحل النمـــو والتعبير فى الشخصية .

ويتخذ البناء أشكالا معينة . فهناك الشكل الروائى الذى يبدو واضحا فى كتاب « على هامش السيرة » لطه حسين وهناك الشكل المسرحى ويمثله كتاب « محمد » لتوفيق الحكيم . غير أن اطار الروائى هو الغالب فى كتابة السيرة .

ويقول « ادل » عن بناء السيرة : « أعتقد أن ثلاث أفكار هندسية على الأقل يمكن أن نجدها فى بناء السيرة . فأولها وأشيعها « السيرة التقليدية » وهى وثيقة وعمـــل متكامل يرتب فيه كاتبه مادته ... كما فعل « بوزول » بحيث يجعل صوت صاحبه مسموعا . أما النوع الثانى من السير ... فهو خلق

لفظي لشيء قريب من صورة الرسام . وتمتاز الصورة هنا بأنها أكثر تحديدا . فقد رسمت بعناية واحيطت باطار . وفي النوع الثالث الذي شاع في أيامنا نجد أن المواد قد صهرت كلها وجاء كاتب السيرة ليسردها وهو العالم بكل شيء ... ونجد في هذا العمل تصور كاتب السيرة لصاحبه إلى حد كبير . وقد يسمى النوع الأول من كتابة السيرة بأنه تاريخي والثاني تصويري . والثالث قصصي تصويري أو روائي »(١)

وفي الغالب يسود الشكل الروائي السير في العصر الحديث وهو النوع الذي يتمتع بجاذبيه خاصة لدى القراء . وإذا كان الأمر كذلك واستقر بناء السير في العصر الحديث تكون السير قد أصبحت صورة فنية متكاملة . وهذا الفن قد مر لاشك بمراحل متعددة في تطوره ونموه بين صعود وهبوط ... ونقص واكتمال .

° ° °

السيرة عند العرب :

وقد عرف فن السيرة عند العرب ... وأول ما عرفوه كان عن طريق السيرة النبوية .

كان ظهور الرسول بين العرب وتطور حياته فيهم من الطفولة إلى الشباب ... إلى تلقي الوحي وبداية الدعوة وكفاحه في سبيل نشر هذه الدعوة ... وغزواته ... كل هذا كان له أكبر الأثر في توجيه العلماء إلي كتابة السيرة النبوية ، حبا وحفاظا على تاريخ نبيهم الكريم باعتباره قدوة

---

(١) فن السيرة الأدبية : « ادل » ص ١٤٥

حسنة كما وجه القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . (١) كما عنوا عناية فائقة بتدوين حديثه صلى الله عليه وسلم باعتباره جزءا من حياته وتعليماته .

ولما كانت جل العناية موجهة إلى السيرة النبوية باعتبارها أولى التراجم الإسلامية وأوسعها انتشارا وأجدرها باهتمام المؤرخين ، فقد ظهرت بجانبها العناية أيضا بتدوين الحديث . وأدى الاهتمام بالحديث إلى تفرع بعض العلوم منه كالتاريخ الذى كان يخدم رسالته ثم اتجه إلى أن يكون نواة للتاريخ الإسلامى .

وأدت العناية بالحديث إلى العناية أيضا برجال الحديث . والتعريف بهم فظهرت بعض التراجم لهم تعرف بمكانتهم من الرسول وصحابته . وأدى ذلك بالتالى إلى ظهور كتب فى نقد الرجال . وبهذه الطريقة عرفت التراجم ولفتت الأنظار إلى إمكان وضع تراجم لغير رجال الحديث من شعراء أو مفسرين أو أبطال .

وهكذا نرى أن السيرة النبوية كانت اللبنة الأولى لفن السيرة عند العرب بل انها كانت المعلم الأول للكتاب لكتابة هذا الفن . فهى سيرة متكاملة خصبة يتحقق فيها المثل الأعلى . وهى حافلة بكل الدروس التى تفيد الإنسان فى حياته . ولذلك ... وجدوا فيها البطل والحدث والتاريخ كل أولئك ميسر وفى متناول أيديهم . فالنبى بشخصيته المتميزة التى تجمع صفات البطولة الإنسانية النادرة خير من يمثل البطل الذى تدور حوله السيرة .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١

كذلك أحداث حياته ... أحداث خالدة يجب أن تسجل وتحفظ فى قلب كل مسلم وعربى .

ويقول ابراهيم الابيارى : « أحدثك حديث التأليف فى السيرة ونشأته . وأقدم من نعرفهم من رجالات هذا الباب « عروة بن الزبير بن العوام » وقد مكنه نسبه من قبل أبيه وأمه أسماء بنت أبى بكر من أن يروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبى . ومن بعده نجد « أبان بن عثمان بن عفان » وقد جمع فى السيرة صحفا ثم « وهب بن منبه » وله كتاب ألفه فى المغازى وغير هؤلاء كثيرون مثل : « شرحبيل » بن سعد بن شهاب الزهرى و « عاصم بن قتادة » و « عبد الله بن أبى بكر بن حزم » . وكان هؤلاء الأربعة ممن عنوا بأخبار المغازى وما يتصل بها . ومنهم من عاش حتى أوشك أن يدرك منتصف القرن الثانى أو جاوزه بقليل مثل « موسى بن عقبة » و « معمر بن راشد » ثم شيخ رجال السيرة « محمد بن اسحق » وجاء بعد هؤلاء غيرهم نذكر منهم « زيادا البكائى » و « الواقدى » و « محمد بن عمر » صاحب المغازى و « محمد بن سعد » صاحب الطبقات الكبرى . وانتهت سيرة « ابن اسحق » إلى « ابن هشام » فعرفت به وشاع ذكره بها ثم لم ينقطع التأليف فى السيرة إلى يومنا هذا . غير أن المشتغلين بها كانوا أولا محدثين ناقلين . ثم كانوا جامعين مبوبين . وحين استوى للمتأخرين ما جمع المتقدمون جاءت فكرة النقد والتعليق .

وهذه النظرة المحدودة الدينية لهذا العلم لم تجاوز ذلك المنهج الذى كانت تعيش فى إطاره الا متأخرة فقد بدأت كما قلت رواية ثم جمعا وتبويبا وأخذ

هذا الجمع والتبويب يصور صورا مختلفة وعاش فى ظله شراح ومعلقون .(١)

وظل حال السيرة هكذا كما وصفه ابراهيم الابيارى . الا أنه ظهر بوضوح للناظر فى تاريخها هذا العدد الوفير من كتب الطبقات التى تترجم للرجال على اختلاف طبقاتهم .

وبقيت الحال على ذلك ... إلى أن بدأ هذا القرن العشرون ، فكان للسيرة نصيب من التطور الذى شمل كثيرا من العلوم والفنون الأخرى . وبدأت فى الظهور بعض السير التى تأخذ من القديم . ولكنها فى المنهج عرضا وتحليلا تصوغه صياغة جديدة .

وبرزت السيرة التاريخية كأقوى أنواع السير عند المسلمين محاولة الجمع بين التاريخ والمتعة الأدبية .

وقد اختلطت السيرة كترجمة لحياة أنسان ما بالجوانب التاريخية ... ومن هنا كان من الصعب الفصل بين السيرة التاريخية والسيرة الأدبية .

ولكنها فى العصر الحديث بدأت تأخذ مسارا آخر أكثر تطورا باتصال الأدباء بفنون السيرة الأدبية فى الآداب الغربية . فأخذت تخرج عن هذا النهج القديم الذى سارت عليه خلال عصور الإسلام الأولى . ولم تعد التراجم تجميعا لطائفة من الأخبار والمعلومات . واتخذت ثوبا جديدا تطبق فيه المناهج الفنية الحديثة المتطورة .

وظهرت فى النصف الثانى من هذا القرن « العبقريات » للعقاد .

---

(١) طه حسين كما يعرفه أدباء عصره : ابراهيم الابيارى

وظهرت «الفتنة الكبرى» بجزأيها «عثمان» و «علي وبنوه» و «سيرة محمد» و «أبي بكر» و «عمر» للدكتور «محمد حسين هيكل» . والسيرة التي كتبها : ميخائيل «نعيمة» عن حياة «جبران» .

وأصبحت السيرة في مسار التطور لا تركز على الأشخاص من حيث هم أشخاص وحسب وإنما أخذت تقوم آراءهم ودورهم في الحياة الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية . وأقترب أكثر فأكثر من الشكل الفني الناضج لهذا الفن وظهر العديد من السير التي يتوافر لها الشكل الحديث الذي يقوم على دراسات علمية صحيحة .

وتبارت الأقلام في الكتابة عن الصحابة والخلفاء والملوك والقادة والأدباء والمشاهير، تكتب عن حياتهم مصورة عصورهم تستقي من مصادر قديمة ومعلومات مجموعة لكن بأسلوب جديد، ونهج جديد . تتبع مدارس علم النفس وتستند إلى أحدث النظريات التي تأخذ في الاعتبار تأثير البيئة والمجتمع والجنس . فخرجت الدراسات الحديثة بشكل مكتمل يفيد القارئ ويزوده بكم كبير من المعلومات والنتائج عن الشخص المترجم له وعصره وبيئته ومجتمعه وتفاعل ذلك كله مع بعضه بعضا .

ولا يفوتنا أن ننوه بأن الكتاب المحدثين قد استقوا مادة سيرهم مما خلفه العلماء والمؤرخون في كتب السيرة في التراث . فهي التي تمدهم بما لا يعوض من المعلومات التاريخية والأدبية .

* * *

وأما مايتصل بالترجمة الذاتية ، فلم يكن لها حظ الرواج عند العرب قديما مثلما كان للترجمة الغيرية . ويرجع ذلك لأسباب شخصية لدى الكاتب العربي . فالانسان الشرقي يمنعه الخجل في أحيان كثيرة من التحدث عن نفسه ، ويخجل أكثر لو أن التحدث عن النفس اضطره للحديث عما بداخله .

ولا أدري فربما كانت الظروف المحيطة بالعالم العربي هي السبب في ركود السيرة الذاتية ، فالحوادث والخطوب المحدقة بهذه البلاد تشغل الانسان عن تأمل ذاته والحديث عنها . وربما نرجع هذا إلى طبيعة الاستسلام والتواكل في بعض الطبائع العربية . فيرى كثير من الناس أن الانسان ليس سوى تابع للمقادير أو لعبة في يد القدر ، ومن هنا تصغر قيمة النفس فلا يستطيعون استقطاب الذات في عمل أدبي .

ويتفق معي الدكتور « احسان عباس » في هذا إذ يقول : « أن الطبيعة الثورية القلقة الجياشة ليست من المميزات الواضحة في السيرة الذاتية في الأدب العربي . فان طبيعة الاستسلام أغلب على هذا اللون من الأدب حتى عند أغلب شخصياته وأشدها تمرسا بالمصاعب . » (١) .

ويرى بعض النقاد أن الترجمة الذاتيه بدأت منذ القدم . ويرى آخرون أنها فن حديث . يقول « ماهر حسن فهمي » : « تاريخ السيرة الذاتيه هو إلى حد كبير صورة من العقلية الانسانية في مغامراتها من أجل البحث عن الحقيقة ومن أجل ذلك كانت جذورها الأولى متشبعة في الحضارات القديمة المصرية

(١) فن السيرة : احسان عباس ص ١٢٠

والبابلية والهيلينية وغيرها . وتاريخ الفراعنة يحوى كثيرا من هذه الألوان التى تدخل فى باب السيرة الذاتية ومحاولاتها الأولى . فمن هذه الألوان ما يدخل تحت الاعترافات مثل حديث « أمنحتب » . ومن هذه الألوان ما يدخل تحت الوصايا مثل وصية « بتاح حتب » الحكيم إلى ولده . وقصة مغامرات سنوحى » . (١)

والحقيقة انى لا أستطيع أن أوافق الدكتور ماهر فى رأيه أن هذه الألوان تدخل فى باب السيرة الذاتية . فهذه الأعمال التى ذكرها لا تحوى روح السيرة الذاتية . ولا أعتقد أن صائغيها قد دار بأذهانهم أن يستقطبوا ذواتهم فى هذه الأعمال . إنما هى تسجيل لحوادث أو أعمال تذكر فى التاريخ ، أما الوصايا فهى أقوال فاضلة تدخل فى باب النصح والإرشاد لا باب السيرة الذاتية .

وبينما يرى ماهر حسن فهمى أن الترجمة الذاتية عند العرب ضاربة فى القدم يرى شوقى ضيف : « أن الترجمة الشخصية عند العرب فن مستحدث قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التى قرءوا آثارها وخاصة اليونان الذين ترجم متفلسفتهم لأنفسهم وحاكاهم متفلسفوا العرب واتسعت المحاكاة فدخل فيها العلماء والمتصوفة ورجال السياسة . ويقول : « لعل أقدم صورة للترجمة الذاتية تلك الكلمات التى كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم فيعرفون بأنفسهم وقد يذكرون بعض أعمالهم . واشتهر المصريون فى عصر الفراعنة بكثرة مانقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفى معابدهم وهياكلهم من تواريخهم

(١) تاريخ وفن : ماهر حسن فهمى ص ٢١٩ .

وأفعالهم ». (١)

وبرغم أن الدكتور « شوقى ضيف » يكرر نفس الرأى الذى قرأناه للدكتور ماهر بأنه يرى أن ما نقشه المصريون القدماء على شواهد قبورهم يدخل فى باب التراجم الذاتية . الا أننى لاأرى أن ذلك صحيح فهى كما سبق القول أشياء كتبها القدماء للتاريخ كان القصد منها أن يذكرهم التاريخ فلا تتوه أعمالهم فى صفحاته . فليس من المعقول أن تدخل الكتابات التى تقول أن هذا الملك أو هذا الحاكم بنى هذا المعبد أو غزا هذه الغزوة أو عبد الشمس أو عبد القمر إلى غير ذلك من هذه الأخبار باب التراجم الذاتية .

ويمتلىء الأدب العربى بألوان من السير الذاتية سطرها الأدباء والحكماء والصوفية والسياسيون فى عرض لتجاربهم العقلية والروحية . وقام الرحالة العرب بوصف تجارب عملية لهم تتخذ شكل اليوميات أو المذكرات مما يقترب بها من كتب السيرة الذاتية .

« وفى تتبعنا لتاريخ السيرة الذاتية نجد « ابن حزم الأندلسى » فى اعترافاته التى ضمنها كتابه « طوق الحمامة » . وإذا كان العيب الأساسى يأتى هذه الرسالة من ناحية افتقارها إلى التكامل المطلوب فى السير الذاتية . فأمامنا كتاب « الاعتبار » « لأسامة بن منقذ » وهو مذكرات بديعة تصور لنا الفروسية العربية كما تصور لنا تصويرا أمينا من خلال السيرة الذاتية المتكاملة ، ومن خلالها ندرك كل القيم التى عاش عليها المجتمع بما فيها من خير وشر » . (٢)

---

(١) الترجمة الشخصية : شوقى ضيف ص ٥، ٧

(٢) السيرة تاريخ وفن : ماهر حسن فهمى ص ٢٣٠

ولكن الإحساس بالذات في الشرق كان إلى ذلك الوقت ليس هـو بالاحساس القوي . بل انه تمر به فترات من الجمود حتى يكاد يتوارى . إلى أن تأتية من الغرب ريح الثورة الرومانتيكية بكل تقويمها للفرد وإحساسه فاذا بالانسان العربي يحس ذاته .. ويقوى فيه شعور الاحساس بالنفس وتكثر تبعا لذلك السير الذاتية .

وظهر في أول العصر الحديث كتاب : « الساق على الساق » لـ « أحمد فارس الشدياق » و « سيرة الشيخ رشيد رضا » و « سيرة سلامة موسى » وكتاب « الأيام » لطه حسين و « حياتى » لـ « أحمد أمين » . وتوالى بعدها كثير من التراجم الذاتية .

وهكذا خضعت الترجمة الذاتية لظروف الإنسان العربي النفسية والاجتماعيه والعقليةولو أن « محمد عبد الغنى حسن » يلتمس العذر في ذلك فيقول : « لعل العرب كانوا أحرص الناس على حيواتهم الخاصه حين انصرفوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم » . [1]

أقول خضعت الترجمة الذاتية لهذه المعوقات ولم يكن لها تلك الانطلاقة المتحررة التى نلمسها فى الأدب الأوربى . فلايوجد بين كتابنا من له امكانية الاعتراف بنفس الدرجة والوضوح الذى نجده عند أدباء الغرب ، ولذلك بقيت بعض السير الذاتية فى أدبنا العربى تفتقد كثيرا من الصدق .

* * *

(١) محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ص ٢٣

السيرة فى الغرب :

أما فى الغرب ... فقد كان للسيرة شأن آخر . حيث أنها نشأت مرتبطة بالبيئة المحيطة ... والطبيعة البشرية .

« وأقدم ما كتب فى فـن السيرة كان على يدى شخصين يونانين أحدهما : ثيوفراسـتـوس Theophrastus (٣٧٢ – ٢٨٨ قبل الميــلاد) والثانى بلوتارك plutarch (٤٨ – ١٢٢) . غير أن الاثنين اهتما بالأنمـاط العامـة أكثر من اهتمامها بالصفه الشخصية . وكانا مهتمين أساسا بمـا هو شائع فى الشخصيات التى تناولاها ولم يهتما بما هو خاص فى الفرد .

ومع ذلك فقد كان « بلوتارك » من أعظم كتاب السير وقد كان للترجمة الانجليزية التى ظهرت لأعماله سنة ١٥٧٩ تأثير كبير على الكتـاب الانجلـيز فى القرن السابع عشر .

وكان أول ما ظهر فى السيرة الانجليزية موقوفا على حيــاة القديسين . وبمـا أن الرهبان ورجال الدين كانوا أكثر من يكتبون السير فقد كانت هذه السير تتناول الأتقياء متخذة روح الوقار وكان الدافع لكتابتها ينبع من الرغبة فى ضرب المثل على الحياة الصالحة . فكانت مثل هـذه القصص مليئة بالأفعال المعجزة والأعمال الجليلة . ولم يكن هناك من سبيل لذكـر نواحى الضعف أو الانقياد . وبما أن هذه الكتابة كانت تعرف باسم تاريخ القديسين فقد كانت لا تظهر بوضوح الكيان الإنسان الصادق والذى يجب أن يكون الغرض الحقيقى للسيرة » . (1)

(1) The Reader's Cuide William Emrys Williams P. 85

وعلى هذا نرى أن أول ماظهر من السير فى الغرب كان تاريخا لحياة القديسين . حيث ان الأنبياء أو القديسين هم أول من يتطلع اليهم الإنسان ناشدا فيهم المثل القيم .

ونجد الرأى نفسه فى Purnell's New English Encyclopedia «فى الألف سنة الأولى من المسيحية ظهر قدر طيب من التراجم . ولكن من نوع واحد فقط وهو حياة القديسين . وفى القرن العاشر كتب « ألفرك » Alifric أشهر وأعظم كاتب انجليزى قديم عددا من المؤلفات عن السيرة تتضمن سيرة القديس « ازوالد » والقديس « ادمون » . وكانت هذه الكتابات هى طلائع الكتابة فى السير والتراجم فى الأدب الانجليزى . ونستطيع القول أنها ظلت كذلك إلى القرن السابع عشر وحتى أصبحت التراجم فرعا من الأدب بحق » . (١)

« ولقد قدم القرن السادس عشر نموذجين مشوقين لكتابة السير فقد كتب William Roper (١٤٩٦ - ١٥٧٨) حياة حماه السير « توماس مور » Thomas More غير أن الكتابة كانت مغرضة وغير أمينه . وذلك لمحاولته طمس الجوانب الكريهة لشخصية حماه . ولكن سرد القصة كان جميلا ... وكان يحتوى على بعض النوادر التى تزيد الإيضاح . وأما النموذج الثانى فقد قدمه « جورج كافندس » George Cavendish وهو عبارة عن حياة الكاردينال « وولزى » Wolsey وتعتبر أول ما أبدع الانجليز من كتابة موضوعية فى السير رغم أنها شوهت بتصميم الكاتب على أن يجعل الشخصية تصور فكره .

(1) Purvell ' S new English Encyclopedia Vol 2 No 7

وخلال هذه الفترة ظهرت — دون أن يلاحظ ذلك أحد — أول تحفة للسير باللغة الانجيزية فى ترجمة « وليام تاندال William Tyndal للانجيل (١٥٢٥ — ١٥٣٥) وفيها يروي تاريخ الملك داود فى كتابى صامويل ... Samuel ورغم أن هذه الترجمة قدمت بغرض تمجيد الفضيلة . وهـو غرض يدعو إلى الاعجاب فانها عدائية لهدف السيرة . فالسجل التاريخى أمين لدرجة أنه يعطينا كل الظلال القاتمة فى شخصية « داود » . ولأول مرة فى الأدب الانجليزى يتم تصوير وعرض رجل بكل رذائله وفضائله ، . وللقصه مغزى عالمى وهى لاتزال حتى الآن أفضل ما كتب عن حياة حاكم .

ولم يظهر أى أدب للسير ذى قيمة فى بريطانيا فى القرن السابع عشر بالرغم من أن مجموعة النوادر التى كتبها « جـون أوبرى » Joun Aubrey أعطيت قوة دافعة لكتاب السير بعد ذلك . ولقد غالى الناس فى مدح كتاب « حيوات » Lives الذى كتبـه « اسحق والتون » Isaak Walton الا أنه لايعول عليه كثيرا بسبب تلك الرغبة فى الوعظ فى أمور الدين . كما أنه لم يكن لوالتون الطبيعة الوسطى لفهم شخصيات تختلف عن شخصه هو ومـع ذلك فربما كان أول من استخدم التعليقات الساخرة الحـاذقة فى تاريخ السير الانجليزية .

أما أول سيرة عظيمة كتبت باللغة الانجليزية فهى دون منازع حيـاة « ريتشارد المتوحش » The Life fo Richard Savage التى كتبهـا « صامويل جونسون » Samuel Johnson وظهرت سنة ١٧٤٤ وربما يقال أن ما أحد قبل « جونسون » قد فهم السير عن وعي بأنهـا فن مستقل عـن التاريخ .

وكان ذلك الفن يعتبر أكثر أنواع الأدب امتاعا ولازال كتابه حياة الشعراء الانجليز « Lives Of The English Poets » يعتبر نموذجا لأفضل السير الانجليزية منذ ذلك الوقت .

والواقع أن احساسه الحاد بالخطأ والصواب أجبره على أن يقول الحقيقة عن الشخصيات التى تناولها . وكان يعتقد أن التقريظ يشوه معظم كتابة السير . وقد كتب فى ذلك يقول : « ان كان لنا أن نرعى حق الموتى فعلينا أن نعطى إهتمامنا للمعرفة والفضيلة والحقيقة . وقد أرسي « جونسون » قواعد كتابة السير السليمة ومارسها . وقد أعطى الحقيقة أهمية كبرى سواء كانت مبهجة أو مقززة .

ونأتى الآن إلى « جيمس بوزويل » James Boswell الذى لايزال كتابه « حياة صامويل جونسون » Life Of Samuel Jonnson (١٧٩١) فريدا فى نوعه لأنه يحتوى على فن نقل المحادثة ... ووصف الأحداث بدرجة يندر أن يضاهيه فيها أحد آخر فى التاريخ الأدبى .

ومن سوء الحظ أن أعمال « بوزول » أحدثت أثرا سيئا على كتابة السيرة ... لأن خلفاءه كان ينقصهم فضائله ، كما انهم قلدوا أخطاءه . وعلاوة على ذلك فقد ابتلى العصر الفكتورى بالتزام حدود الأدب والإحساس بالاستقامة . ولم تكن هذه الصفات لتتمشى مع النزاهة والتجاوب اللازمين لكتابة السير . « ولم يكن العصر الفكتورى بأى حال عصرا عظيما للتراجم » . (1)

(1) Purnell's new Engligh Ehcyclopedia Vol 2 oN . 7

ولقد ظهر عمل مشهور من أعمال السيرة فى بداية تلك الفترة وهو كتاب « حيـاة سكوت The life of Scot الذى كتبـه ج . لوكهـــارت J , G , Lockhar ويمكـن وصف ذلك الكتاب بأنه أفضـل كتب السير المعروفة . فله كل صفات السير الجيدة .

ولقد كان كتاب حياة كارليل « Life Of Carlyle الذى كتبه ح . أ فرويد J , A , Froude هو السيرة الوحيدة التى يمكـن اعتبارهـا من سير الدرجة الأولى التى ظهرت ابان العصر الفكتورى .

وبعد أن قدم « وليام مانسون » william Manson كتـابه « حيـاة توماس جراى Life Of Thomas Gray سنة ١٧٧٤ اتجه معظم كتاب السير الانجليز إلى الاعتراف بقيمة الرسائل الخاصه فى كشف طبيعه الشخصيات التى يتناولها بحثهم . وكانت كتاباتهم ممتزجه بالكثير من هذه الخطـابات ومن بين هؤلاء الكتاب الذين نهجـوا هذا النهـج السيدة « جاسكل » Mrs , Gaskel وكان كتابها « حياة شارلوت برونتى » . Life of Charlotte Bronte أول الأعمال شبه القصصيه العاطفيـه والتى تعتبر أحد المظاهر القائمه فى وقتنا هذا .

غير أنه قد بزغ فجر مرحلة جديدة سنه ١٩١٨ عند نشر كتاب « أبناء العصر الفكتورى البارزون » Eminent Victorians الذى كتبه « ليتون ستراتشي » Lyton Stratchey بطريقتـه الفريدة التـأثير ... الفاضحـه للأباطيل . كان يختار بعنايه بعض جوانب الشخصية التى يدرسها والتى يعتقد أنها تلقى ضوءا على هذه الشخصية . كان رسم صور شخصياته ويزيد

من حيويتها ببعض لمسات الكاريكاتير . وقد كانت لماحيته ... ومدخله الساخر ... وأحساسه الناقد ومقدرته القصصية ... كلها صفات جعلت السير التى كتبها مسلية بطريقه تثير الاعجاب . ولقد أضفى اهتمامه المحايد للطبيعة البشرية لونا ودقة على أعماله . وعلى حد قول بوزول فان الكتاب الذين تنقصهم لباقة ومهارة ستراتشي كانوا ينقلون المظاهــر الأقل اثارة للاعجاب فى طريقته .

والملاحظ أن أفضل الشخصيات التى تناولتها السير فى تاريخ كتابة السير الانجليزية كانت لكتاب ولم تكن لعسكريين أو سياسيين مما يوحى أن الشخصيات ذات الطبيعة الفنية لاتحقق فى الواقع الأمل المنشود منها فى كتابة سيرة .أن كتاب جونسون حياة الشعراء .وكتاب « ماسون جراى » وكتاب« بوزول جونسون »وكتاب« لوكهارت سكوت»وكتاب« فرويد» « كارليل » كلها علامات على الطريق فى التاريخ الأدبى ... إلى ستراتشي الذى كان حكيما فى جعل سجلاته عن الحياة الايجابية مختصرة على قدر الامكان » . (1)

وبعد هذه الالمامة بظهور وتطور فن السيرة فى الأدب الأوربى . لم يعد خافيا ذلك المنهج السوى الذى اصطنعه الأدباء الأوربيون فى ذلك الفن وقد ظهرت معالم هذا المنهج واضحة منذ القرن الثامن عشر . وكان لظهور المفاهيم الجديدة التى سادت العصر أثر كبير فى هذا التطور . فان الديمقراطية والرومانتيكية أديا إلى كثرة فى التراجم العامة والتراجم الذاتية .

---

(1) The Reader's Guide by William Emrys Williams.

وظهر عدد كبير من التراجم الذاتية نتيجة لانتشار المبادىء الرومانسية وعنايتها بالفرد وأحاسيسه . وتميزت هذه التراجم الذاتية بطابع الجرأة والصراحة أكثر من غيرها فنجد بعض الكواتب يكشفن عن علاقات شخصية بدون تحرج ونجد كاتبا « كجان جاك روسو » يعترف بالسرقة وبعلاقاته بنساء متزوجات في بساطة .

« ومن أكثر التراجم المرموقة التي كتبت (قصة حياتي) التي كتبتها « هيلين كيلر » التي ولدت خرساء صماء عمياء وفيها أخبرت عن اكتشافها التدريجي المؤلم لعالم الحواس المفقود . » (١)

ويرى دافيد سيسل « رأيا مقبولا في سبب رواج فن السيرة في عصرنا الحديث : يقول « وهنا نأتي إلي السبب النهائي ... لماذا يكون عصرنا هذا أعظم عصر للترجمة ؟ ... فقد شهدت الأربعون سنة الأخيرة تقدما هائلا في الدراسات النفسية وطبيعة الشخصية الإنسانية والقوى التي تحركها وتأثير عناصر الوراثة والمؤثرات الخارجية . كل هذا أصبح مفهوما كما لم يكن من قبل ، وعلى ذلك فالكتاب أصبحوا قادرين أكثر من ذي قبل على إعطاء تقرير كامل عن الشخصية الإنسانية . » (٢)

* * *

(1) Purnell's new English Encoclopaedia vol. 2 No. 7 bet - bir.

(٢) An Anthology of Modern Biography Edited by : David Cecil.

الباب الثاني

طه حسين

حياته وفكره

حين نعرض لحياة « طه حسين » فنحن بذلك نعرض لفترة حافلة زاخرة من تاريخنا الأدبي . فهو جزء من ذلك التاريخ . فلم يكن يعيش بمعزل عن الحياة . إنما خاض معتركها بحلوه ومره وأخذ منها وأعطى حتى أصبح ظاهرة أدبيـة فى تاريخ مصر والعرب . رجل عاش حتى جاوز الثمـانين فجعل من حياته العريضة مرآة ينعكس عليها التراث الأدبى العربي . وتعكس للناس كل جديد متطور . رجل سبق زمانه بفكره المنطقي المرتب الخالص المتجرد للبحث والمعرفة والإفادة .

عشق المعرفة ... فتعمق فيها ... وأطلق عقله يجوب آفاقها فلا يعوقه غموض المناهج القديمة ... ولا صعوبة تعلم اللغة بالنسبة له ، ولا قصور العقول عن تقبل الجديد .

ولد « طه حسين » فى الرابع عشر من نوفمبر سنة ألف وثمانمائة وتسع وثمانين « بقرية صغيرة فى قلب الصعيد عزبة الكيلو بمحافظة المنيا » ولد لأب له من الأولاد ستة فكان سابعهم . ثم أنجب الأب ستة من بعده فتم له ثلاثة عشر . كان الأب موظفـا صغيرا فى شركة السكر ... فنشأ تحوطه مظـاهر الفقر والجهل ، يشكو مرض عينيه . وتضافرت عليه قوى الفقر والجهل لتفقده بصره وهو بعد غـلام صغير ضعيف . نشأ يحمل معه علته . فكان لا بـد أن يحذو حذو أبناء الريف فى صعيد مصر .

تلقى أول تعليمه فى كتاب القرية كغيره من الصبيان ولم يكن هذا التعليم يزيد على حفظ القرآن . أتم حفظه سنة ١٨٩٨ . وكان الأب على درجة من

سعة الأفق وأراد لابنه أن يحصل جزءا أكبر من العلم . فأرسله إلى القاهرة ليلتقى العلم فى الأزهر .

قضى سنوات فى صحن الأزهر وأروقته لكنه لم يجد ما كان يطمح إليه من علم . هداه حسه المتوقد إلى أن هناك منابع أخرى للعلم والمعرفة فلم يقنع من شيوخه إلا بالقليل . ولم تعجبه طريقتهم فى التدريس ولم يعجبه شىء فى الدروس سوى آخر درسين تلقاها عن الشيخ الإمام « محمد عبده » . كان يحضر دروس الفقه التى يلقيها الشيخ « بخيت » ودرس الأدب للشيخ « المرصفى » الذى ترك فى نفسه أثراً كبيراً بعد ذلك وكانت المدة التى قضاها فى الأزهر على حد قوله فترة انتقال أورثته قلق الفكر وعـــدم الاقتناع فى يسر دون مراجعة أو تدقيق .

فلقد تجمعت حوله تيــارات متناقضة بين التجديد والجمود . كان الشيخ « محمد عبده » والشيخ « المرصفى » يدرسان فى الأزهر لكنهما حملا لواء التجديد وعارضا طريقة الأزهر السائدة في العلم وانتقدا بعض المناهج الدراسية ودعوا إلى ادخال العلوم الحديثة . وفى الوقت نفسه كان « قاسم أمين » ينادى بتحرير المرأة فى بيئة فرضت الحجاب عليهـا واختلط موقف الناس ورد فعلهم ازاء هذه الدعوة بين مستحسن ومستنكر . وكان « فتحى زغلول » يترجم الكتب القيمة ناقلا لهم آفاقا جديدة عليهم كل الجدة . وكانت صحيفة الجريدة تنادى بمقاييس جديدة فى السياسة والاجتماع .

ومن الطبيعى أن يسود فترات الانتقال كثير من جو الحيرة والاضطراب ووسط كل هذا لم يجد « طه حسين » فى الأزهر مأوى لأفكاره الجديدة وتطلعاته الناشئة .

وكانت الجامعة المصرية قد أنشئت فاتجه إليها آملا أن يجد فيها من العلم كفاية عقله وارضاء لتطلعه . وكان تحوله إلى الجامعة طفرة كبيرة من بيئة سلفية محافظة جعلت من العقول علبـــا مغلقة لاختزان المحفوظ من الأقوال والتفاسير ، وبيئة أخرى تسمح للعقول أن تعمل وتتعلم وتبتكر وتخلق .

وفتحت له الجامعة باب الأمل . فوجد فيما يتلقاه منطلقاً لعقله وفكره . وفيها سمع دروس « أحمد زكي » في الحضارة الاسلامية ودروس « أحمد كمال » في الحضارة المصرية القديمة ودروس « جويدي » في آداب الجغرافية والتاريخ وكان يدرس بالعربية . وجاء بعده « ليتمان » لتدريس اللغات السامية فدرس السريانية وأصول العبرية والحبشية . ثم جاء « نللينو » ودرس تاريخ الفلك عند العرب ثم تاريخ الأدب العربي . كذلك درس له « سانتـــلانا » تاريخ الفلسفة الإسلامية فكان له في نفسه أثر عميق فكان يصحبه إلى بعض دروس الأزهر . وحضر دروس الأستاذ « ميـــلوني » والأستاذ « ماسينون » عن الأصطلاحات الفلسفية . ومن كل هذا شعر « طه حسين » بنشوة جديدة ومتعة ذهنية فائقة وهو يتلقى العلم عن أساتذة مستشرقين فتحوا أمامه البحث الجديد وهذا ما كان يحس بوجوده ولكنه لم يكن ليعرف الطريق إليه .

وكان من أهم أساتذته في هذه الفترة كذلك « لطفي السيد » و « سيد المرصفي » و « أحمد زكي » لقد دله لطفي السيد على قيمة الأشياء وفتح له باب التفكير الأوربي الحديث . وفتح له المرصفي الباب إلى تذوق الأدب العربي القديم وهيأ له « أحمد زكي » التدريب على البحث العلمي وتحقيق النصوص .

واتصل بالتيارات الفكرية والسياسية في عصره . فوجد في التيار الفكري المتحرر الذي قاده « لطفي السيد » بيئة صالحة تماما لفكره المتطور . « وجد

طه حسين فى لطفى السيد وفى التيار الفكرى المتحرر الذى خلقه بيئة ملائمة تماما لفكره ولعقله الذى يضيق بالبيئة المحافظة فى الأزهر ويصطدم بهـــا كل يوم » . (١)

وارتبط بحزب الأمه وجذبه إليه الدافع الفكرى أكثر من الدافع السياسى . وسار على نهج أستاذه « لطفى السيد » فكتب عـدة مقـالات فى « الجريدة » يروج فيها للقومية المصرية . كذلك اتصل بالشيخ « عبد العزيز جاويش » وكتب فى صحيفتى « اللواء » و « العلم » .

وعندما أنشأ الشيخ « جاويش » مجـلة الهـداية تولى سكرتارية تحريرها ونشر فيها فصولا فى النقد الأدبى .

وتعلم اللغة الفرنسية حتى يستطيع متابعه مايلقى بالجامعة المصرية من دروس فى الأدب وغيره من المواد بتلك اللغة على أيدى كبار الأساتذة وتـأثر بطريقة هؤلاء الأساتذة فى الفكر والدرس . فقد كانت طريقة « نللينو » فى دراسة الأدب درساً تاريخيـاً منظما من حيث العصر والمؤثرات السياسية والاجتماعية مثمرة فى نفسه . وكذلك دراسته لانتاج الأديب دراسة نقدية فاحصة بالاضافة إلى طريقة الشيخ « سيد المرصفى » التى تـــدرس نصوص الأدب دراسة تحليلية تربى الحس المرهف تربية عربية وتنمى ملكة النقد .

« انى مدين بحياتى العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين سيد على المرصفى و كارلو نللينو » أحدهما علمنى كيف أقرأ النص العربى القديم وكيف أفهمه

---

(١) طه حسين كما يعرفه أدباء عصره : رجاء النقاش ص ١٩٢

وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته . وعلمنى الآخر كيف استنبط الحقائق من ذلك النص وكيف ألائم بينها وكيف أصوغها آخر الأمر علما يقرؤه الناس فيفهمونه . وكل ما أتيح لى بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدروس والتحصيل فى مصر وفى خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقيته منها فى ذلك الطور الأول من أطوار الشباب » .(1)

أثمر هذا كله فى نفسه فسار على الطريق فى كتابة رسالته الجامعية الأولى عن « أبى العلاء » ولم يكن من المعروف أن تعد رسائل الدكتوراه تحت اشراف أستاذ . فأعدها بنفسه وقدمها ... ونوقشت بين يدى الجمهور سنة ١٩١٤ . ونال عنها درجة الدكتوراه . وقدم عنها سؤال فى الجمعية التشريعية يطالب بحرمان « طه حسين » من حقوق الجامعيين لأنه ألف كتابا فيه كفر والحاد . وتجاهلوا أن ذلك الكتاب قد أجازه للدكتوراه ثلاثة من أئمة علماء الأزهر . وكانت رسالته هذه أول دكتوراه منحتها جامعة مصرية .

على أثر ذلك تقرر إيفاده فى بعثة على نفقة الجامعة إلى فرنسا . وتحدد لسفره يوم ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ ولكن الحرب العالمية أعلنت فى ٢٨ مايو ... فتقرر سفره فى نوفمبر على أن يذهب إلى مونبليه بدلا من باريس . وهناك اهتم بدراسة الفرنسية واتقانها وحضر دروسا فى علم النفس ودروسا فى الأدب الفرنسى وفى التاريخ . وأمضى فى مونبليه عاما . وفى سنة ١٩١٥ تعرضت الجامعة المصرية لأزمة اقتصادية فأعادت مبعوثيها . وفى خلال المدة التى عاد فيها إلى مصر حضر دروساً للشيخ « المهدى » وأعلن رأيه فيها فى

---

(١) تاريخ الآداب العربية للمستشرق « نللينو » ص ٩

جريدة «السفور» مقارنا بين دروس الشيخ «المهدى» ودروس أساتذة الآداب الفرنسية التى سمعها فى فرنسا وغضب الشيخ «المهدى» وشكاه وحاول محو اسمه من بين طلاب البعثة .

وبعد شهور قليلة تدخلت جهات عليا فى أزمة الجامعة وتحسين مركزها المالى فعاد إلى فرنسا فى ديسمبر من العام نفسه . وقصد باريس ملتحقا بكلية الآداب فيها . وتابع دروس الفرنسية وبدأ فى دراسة مايتصل بمصادر الحضارة الأوربية . كالتاريخ اليونانى والرومانى . وكان يدرس اللغتين اليونانية واللاتينية فى نفس الوقت فضلا عن التاريخ الحديث .

وحضر دروسا فى علم الاجتماع على « اميل دور كايم » ثم على « سلستان بوجليه » وكلاهما فى مادته العلمية من الثقات ذوى الشهرة العالمية .

وفى سنة ١٩١٧ استطاع الحصول على درجة الليسانس وفى أغسطس من العام نفسه اقترن بالسيدة « سوزان » التى كان لها أكبر الأثر فى حياته بعد ذلك . والتى كانت سندا وعونا له فى حياته الدارسية فى فرنسا .

وتحت أشراف الأستاذين « أميـــل دوركايم » و « سلستان بوجليه » أتم رسالته عن « ابن خلـدون » وفلسفته الاجتماعيـة ونال بها درجـة الدكتوراه سنة ١٩١٨ . وفى يونيو سنة ١٩١٩ تقدم للحصول على دبلوم الدراسات العليا برسالة تتصل بالقانون المدنى الرومانى . . واضطر من أجل ذلك إلى قراءة كتاب القانون المدنى الرومانى من ثمانية أجزاء وكتاب القانون الجنائى الرومـانى من ثلاثة أجزاء وكان عليه أن يراجع أصـل النصوص

باللاتنية ، وأدى الامتحان بنجاح وحصل على الدبلوم بدرجة ممتاز .

وعاد إلى بلاده محملا بعديد من الثقافات الغربية والجديدة على عالم الثقافة في مصر .

وعلى أثر عودته عين أستاذاً بالجامعة للتاريخ القديم (اليوناني والروماني) . واستمر يعمل في هذا المجال حتى عام ١٩٢٥ وفي أثناء ذلك أخرج كتاب (الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدينة) . وأخذ ينشر في صحيفة الجامعة ما كان يلقيه على الطلاب من دروس في التاريخ القديم . وفي الوقت نفسه أخرج كتابا يجلو فيه روائع من الشعر التمثيلي عند اليونان . وأخذ على عاتقه تعريف الناس في مصر روائع المسرح الفرنسي .

وفي عام ١٩٢٥ أصبحت الجامعة تابعة للحكومة وعين بها أستاذاً للأدب العربي بكلية الآداب . وأراد أن يضع أمام الشباب المثل الأعلى فأخرج لهم كتاب « قادة الفكر » ، وأنشأ بابا للأدب في صحيفة السياسة . وواصل نشاطه الأدبي والنقدي خارج الجامعة فتولى تحرير باب الأدب في صحيفة السياسة .

وفي عام ١٩٢٦ أصدر كتاب « في الشعر الجاهلي » طبق فيه المنهج العقلاني الجديد الذي انتهجه : وتضمن نظريات جريئة قلبت ميزان النقد الأدبي المعروف وقتها رأسا على عقب . وقامت حوله ضجة كبيرة وأتهم « طه حسين » بالالحاد وتدخلت في الأزمة وعملت على اذكاء ثورتها عوامل حزبية وسياسية . وانتقل الحزب المعارض بالخصومة من البرلمان إلى النيابة التي أنهت الأزمة بمنع تداول الكتاب . خضع « طه حسين » للعاصفه خوفا من أن تؤدى بالجامعة الناشئة . ولم تخضع الجامعة لهذا الضغط الفكرى والسياسي فأبت إلا أن ترعى أستاذها الجرىء وابنها البكر فعينته عميداً لكلية الآداب بدلا عن العميد الفرنسي .

وبتعيينه عميدا تجددت الأمة السياسية . إذ كان الوزير من غير الحزب الذى ينتمى إليه « طه حسين » (حـــزب الأحرار الدستوريين) فرغب إليه أن يستقيل . وحسما للامر قبل « طـه حسين » أن يستقيـل بشرط اعتماد تعينه أولا . فعين يوما وقع فيه بعض الأوراق فى الصباح ... وفى المساء قـدم استقالته ... وأعيد العميد الفرنسـي . وعندما انتهت مدة عمادته عادت الكلية وانتخبت « طه حسين » عميدا لها . ووافق الوزير على تعينه لكن بعد يومين طلب إليه الاستقالة ليصبح رئيس تحرير جريدة الشعب لسان حزب الشعب الذى أنشأه « صدقى » . لكنه رفـض وفضل البقاء فى الجامعـة . فأضمرتها له الوزارة ... إلى أن جاء يوم أرادت فيه الحكومة أن تمنح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين فعارض طه حسين ورفض الخضوع للسياسة فى أمور العلم والجامعة، وضن بالدكـتوراه على من لا يستحقها . . فكان الرد على ذلك نقله إلى وزارة المعارف لكنه رفض العمل بها وأحيل إلى التعاقد سنة ١٩٣٢ .

وفى سنة ١٩٣٦ أعادته وزارة محايدة أستـاذا بكلية الآداب . ولـما خلا كرسى العمادة أنتخب عميدا وبقى مدة سنة حتى سنة ١٩٣٩ . ولـما أعيد أنتخابه . . أبت الحكومة الموافقة على هذا الانتخاب فاضطرا إلى الاستقالة من العمادة والبقاء أستاذا . وانتدبته وزارة المعارف مراقبا للثقافة بها واستمر مع ذلك فى التدريس بالكلية حتى عام ١٩٤٢ وفى السنة نفسها عاد حزب الوفد إلى الحكم فعينه مستشارا فنيا لوزارة المعارف . . ومديرا لجامعة الاسكندرية . وبقى فى هذين المنصبين حتى عام ٤٤ حيث أحيل إلى التقاعد .

وفى سنة ١٩٥٠ عين وزيرا للمعارف واستمر فى هذا المنصب إلى أن سقطت

الحكومة الوفدية إثر حريق القاهرة . وكان قد قرر مجانية التعليم فى أثناء توليه الوزارة لأنه كان يرى أن التعليم ضرورى للناس ضرورة الماء والهواء . وكان هذا آخر عهده بالوظائف الرسمية. وانصرف بعد هذا الانتاج الفكرى الخالص مع الاشتراك فى المجامع العلمية .

وهكذا كان « طه حسين » فى معترك الحياة.. إرادة ورغبة فى المعرفة .. وكفاحا ومثابرة .. وصمودا وشموخا وإباء . أثيرت من حـــوله المعارك الأدبية والسياسية ولكنها لم تنل منه شيئا . ولم توقف هذا البحر الزاخر عن الفيض وكان « طه حسين » أكبر من كل المعارك وأصلب عودا من أن تناله بسوء . وهكذا كان متفاعلا مع الحيـاة .. كان منها ولهـــا .. مصمما على أن يوجد لنفسه مكانا بارزا فيهـا . وقد كان . وبقى منه فى الحيـاة مكان بارز بروز الحقيقة الخالدة .

هذه وقائع حياته .. سردناها فى سطور . ولكن ما بين السطور فى حياة هذا الرجل وفكره كفيل بأن يمـــلأ المجلدات التى تضاف بكل فخر إلى التراث العربى[1].

...

ويحق لنا أن نتأمل هذه الشخصية الفذة. محاولين القاء الضوء على مكوناتها

---

(١) أنظر لوحة حياته فى كتاب (إلى طه حسين فى عيد ميلادة السبعين) دار المعارف ٦٢.
كتاب « طه حسين كما يعرفه كتاب عصره » عبد الرحمن صدقى ص ٨ ومع طه حسين كما يعرفه كتاب عصره « المقدمة ».

الاجتماعية والنفسية . كيف صنع « طه حسين » نفسه ؟ وكيف أكسب عقله تلك المرونة العجيبة ؟. من أين حصل على ذلك الحس النامى وعلى هذه القدرة على الصمود ؟. كيف تخطى قدراته الطبيعية وجمع لنفسه من الثقافة والعلم مالم يستطع جمعه غيره . لقد حطم هذا الإنسان جدار المستحيل . يقول عنه محمود تيمور : « أوجز تعريفه فى بعض عناصر .. « فكر مستقل ، روح خيرة ، صبغة فنان »(١).

لقد وقف « طه حسين » موقف الرفض لكل ماتفرضه الظروف من حوله فمنـذ أن وعي هذا الطفـل مأساته وتحسس واقعه الأليم .. أخذت عوامل الثورة والرفض تتجمع فى نفسه الصغيرة . ثورة على واقع .. ورفضا لعجز ما كان ليستطيع تغيرها . فلا أقل اذن من أثبات للوجود والحصول على مكان فى هذه الحياة التى قست عليه فى تعاملها معه . وقد كان لظرفه الخاص هذا أكبر الأثر فى أحساسه بذاته والعمل على أن تأخذ هذه الذات مكانهـا فى الاطار الاجتماعى .. فكان اندفاعه انطلاقا من واقعــه وتحديا له ورغبة فى تحقيق الذات .. وهنا تكمن عبقرية الرجل .

...

لم يكن رفضه عبثـا ... ولم يكن رفضا للحياة . ولكنه رفض للعجـز والقصور والتجمد والواقع الأليم .

وكان يرفض أن يذكره أحد بعلته . رد فى مرة على أحـد شيوخه ردا جارحا لأنه دعاه بالأعمى . ورفض فى مرة أن يحضر مؤتمرا للعميان .

(١) « طه حسين كما يعرفه كتاب عصره » المقدمة .

وفى طريق رفضه للواقع لم يجد وسيلة للنجاة من سجنه المظلم الا عن طريق العلم.. لقد اتخذ من العلم عيونا تنير له طريق الحياة لم يجد سوى الانفتاحة على العلم ليتخذ منها نبراسا يضيء ظلماته. وبهذه الوسيله إستطاع أن يطل على العالم قديمه وحديثه .

لذلك ضاق بهذه الدراسة الضيقه التقليديه التى تلقاها فى الكتاب وفى صحن الأزهر . ورفض أن يصبح مصيره مجرد حافظ للقرآن يتلوه فى المآتم والموالد . وتحول بعقله إلى منابع المعرفة. فدرس الأدب العربى كله . ودرس الفرنسية ليطلع على الآداب الغربية المتطورة . ودرس اللاتينيه واليونانية لغتى الحضارة الإنسانية الأولى ليجلو لعقلة هذه الاشراقه الأولى فى دنيا المعرفة. ودرس التاريخ وعلم الإجتماع والقانون أيضا .

وجد الرجل نفسه فى الدراسة فأقبل عليها بنهم شديد وجعل من الارادة قاهرا للعاهة التى أصيب بها . واستطاع وهو فى فرنسا أن يتم فى سنتين مايتمه الشاب الفرنسي فى ست سنوات بين ثانوي وعال .

ومن هذه الكلمات التى يقولها عن مذهبه فى الحياة نستطيع أن نفهم هذه الرغبة الصادقة فى المعرفة التى صنعت هذا الرجل .. يقول : « وأول ما استكشفت من هذا المذهب خصلة أرى أنها قد صحبتنى منذ الصبا وهى الظمأ الشديد إلى المعرفة .. الظمأ الذى لا يطفئه اكتساب العلم وأنما تزيده قوة وشدة والتهابا . فأنا لا أحصل نصيبا من المعرفة الا أغرانى بأن أحصل شيئا آخر أبعد منه مدى وأشد عمقا . وليس فى هذا شيء من الغرابة .. فاذا كانت حاجة من عاش لاتنقضي . فحاجه من ذاق المعرفة أشد الحاجات وأعظمها اغراء بالتزيد منها والامعان فيها» .

لخص مذهبه فى الحياة فى هذه الكلمات . وهذا المذهب يرجع لتكوين فكرى معين . فما هى العوامل التى ساعدت تكوين هذه العقليه بهذا الشكل .؟

... ...

أول المؤثرات التى تأثر بها فكر الرجل وتركت طابعها فى عقله وتفكيره وسلوكه وانتاجه . هى : البيئة .. البيئة المصرية بكل ما أحاطته به . وكل ماتركت فيه من انطباعات . عاش فى القرية وخبر مجتمعها الذى ينبنى على الخرافات والجهل، الجهل الذى يودى أحيانا بالحياه أو بأى من نعمها . عاش فى القرية وخبر الفقر الذى يستذل الانسان ويدمى انسانيته وعاش فى القرية وخبر المرض الذى يصيب الناس بشكل وبائى يعجز كيانهم المهدود عن مقاومته . ويتخطفهم الموت وهم ينظرون . وخبر الحضارات القديمة الموروثة والمتعاقبة على هذه الأرض . وعاش فى القرية المصرية من قرى الصعيد وأكتسب منها الصبر والصلابة والتصميم ، وتعلم التغلب على الصعاب مهما عظمت .

وعاش فى القاهرة .. وصاحبه الفقر فيها . وعرف فى الأزهر العلم التقليدى .. وعرف فى الجامعة حلاوة الذوق المصقول . والعلم الواسع وعاش عصرا تضاربت فيه التيارات الفكرية والوجدانيه . عاش ظروف بلده وهى تتخبط بين القديم والحديث . وهى حائرة بين الشرق والغرب .. بين القومية العربية والقومية المصرية .. وبين الفصحى والعامية .. والدين والتطور . وقيمة الحضارة بين حضارات العالم وعلاقتها بالحضارات المختلفة .

عاش تشغله كل هذه القضايا . وعانى قصور التعليم . . وتحير فى مهمة الجامعة ومفهوم الحرية والدعوة لتحرير المرأة .

كل هذه ظروف أحاطت بهذه النفس . . فلعبت دوراً كبيراً فى تكوينها وشحذها . لذلك لم يكن فى استطاعته الفكاك من حصار بيئته الوطنية . فأخذ من كل هذا بنصيب وكان لكل هذا أثر فى تكوينه وكان عليه أن يجد الطريق بنفسه . لم يكن بوسعه الاعتماد على نظرية أو فلسفة مسبقة حتى يستطيع التلاحم بهذه الحياة . . بل كان عليه أن يجدها بنفسه .

إذن فقد لعبت البيئة دورها فى فكره . . ودفعته إلى أن يكون فلسفاته ونظرياته بحيث تتلائم مع هذه البيئة .

كان الانسان المصرى بكل واقعه دائما فى عقل « طه حسين » وكان الانسان المصرى أو المجتمع الفقير أى غالبية الشعب ، المجتمع الذى يقاسى الفقر المدقع والحاجه الشديدة والجهل المطبق هو دائما بطل روايات « طه حسين » .

حين كتب . « الأيام » . . جعلها قطعة من نفسه . . وقدم وقدم لنا بيئته بكل مافيها على صفحات الكتاب . وصف فيها حياته الخاصة التى يمكن أن تكون حياة كثيرين من أمثاله من الناس ووصف حياة الفقراء وهم يتخبطون بين فقرهم وجهلهم وقسوة الحياة عليهم . قدم كل هذا فى صورة أدبية رائعة .

وجاء « المعذبون فى الأرض » صورة أخرى أكثر مرارة . . صارخة بالعذاب مطالبة بالرحمة والعدل : « إلى الذين يحرقهم الشوق

إلى العــــدل .. وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل . إلى أولئك جميعاً أسوق هذا الحديث . إلى الذين يجدون مالاينفقون إلى والذين لايجدون مالاينفقون يساق هذا الحديث.» (١)

كان متعطشا للعدل الاجتماعى .. لذلك كان يكتب عن طبقات الكادحين المعوزين المعذبين . وكان يرى أن الدولة وحدها هى التى تستطيع حماية هؤلاء ومساعدتهم على استمرارهم فى الحياة . يقول : « يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين فى أوقات الرخاء والدعه أن يأخذوا من الأغنياء ويردوا على الفقراء حتى لايبقى بين الناس جائع أو محروم . فإذا جد الجد وألمت الكارثة .. فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون ويكتسى العارون من المعسرين . وعلى الدولة أن تقوم على هذا كله بسلطان القانون . فان لم تفعل فهى آثمة أشنع الاثم فى ذات الله وفى ذات الوطن وفى ذات المواطنين . »(٢)

ويصف فى سخريه حال الموظف هو على كل حال قبر متحرك يحيا حياة ظاهرة لكن قلبه ميت قد أماته البؤس والشقاء والهم . وأكثر زملائه .

---

(١) المعذبون فى الأرض : « طه حسين » ص ١٢٨

(٢) المعذبون فى الأرض « طه حسين » ص ١٢

يشبهونه ... فأعجب لدولة يخدمها مواطنون تحيا أجسامهم وتموت نفوسهم. وانتظر بعد ذلك من هذه الدولة أن تسلك بالشعب طريق العزة والكرامة. كان متأثرا بالناس وحياتهم لدرجة أنه تصور أن الرق لم ينتـه . فيرى أنه من الجائز أن يكون الرق الفردى قد ذهب ولكن الرق الاجتماعي لم يذهب بعد ... ولم ينقض عصره . ولايدى متى يذهب متى تنقضى أيامه. فهناك شعوب تسترق شعوبا . وهناك طبقات من الناس تسترق طبقات من الناس .

وأعطى فى « شجرة البؤس» صورة أخرى من المجتمع . . صورة لكثـير من الأسر المصرية . صورة مظلمة لمجتمـــع آخر غير مجتمع القرية . لكنه شريكه في الجهل . صورة بارزة الملامح للاسرة المصرية الفقيرة التى تعيش فى جو مظلم من البؤس والضنك والشقاء .

والكاتب ينحو هذه الناحية الإنسانية ... يريد الخير والرخاء لأبناء وطنه. وكتبه هذه تتضمن دعوة لتحرير الناس من الجهل والفقر والمرض . وبهذا نرى أن الإنسان المصرى كان دائما فتمثلا فى ذهن الأديب ... يحس بمشاكله وآلامه وآماله وصراعاته .

والمرأة جزء من المجتمع ... فكان لها فى وجدان المفكر نصيب عظيم ... كان يحنو عليها وينظر اليها نظرة ملؤها الحب والاعزاز والاكبار . للمـرأة فى نفسه صورة مشرقة من الحنان والحب والأمن . كانت أمه نبـع الحنان الأول فى حياته المجدبة وكانت زوجه نبعا ثانيـا للحنـان والحب والأمل . وأهـداه الله عوضا عما فقده من نعمة البصر بهـــذه الزوج التى كانت له عونا وسندا فى الحياة . ومن هذين المثالين تكونت صورة المـرأة فى نفسه فى أعز

مكان . وكانت تراوده صور أخرى لنساء بائسات عرفهـــن فى القرية والأسرة . وكان يعرف وضع المرأة الاجتماعى فى هذا البلد ويتمنى لو أنها تحررت من جهلها وفقرها وضعفها . وكان يرى أن الفقر هو عـدو المـرأة الأول . فالمرأة الفقيرة ضعيفة مستسلمة للاقدار غارقة فى جهلهـا . يضيـع الفقر كرامتها ويعمل على إذلالهـا يقول : « وما ينبغى للفقـراء أن يلدوا البنات . فالفقر عدو المرأة ... يجردهـا من كل أسلحتها ويلقيهـا فى خضم الحياة : » (١)

ويقول : « فما أكثر وسائل الاغراء للذين يبهظهم الشقاء » . (٢) ولهذا زلت هنادى احدى بطلات « دعاء الكروان » فتـاة فقـيرة جاهلة ضعيفة مستسلمة لاحول لها ولا قوة . فجرفتها الغواية ودفعت حياتها ثمنا لخطيئتها . ولو لم يكن الفقر ... ولو لم يكن الجهل ماكانت الخطيئة . ولعاشت هنادى كغيرها من الفتيات .

وهو يكبر المرأة ويحترمها ويرى فيها جنة للرجل وندا له يقول : « وقد رأناهن نحن من هذا الضعف ورأينا فيهن لنا أمثالا وأندادا وأخذنا أنفسنا بأن نسير معهن سيرتنا مـع أنفسنا إكبـارا لهن ... واعترافا بحقهن فى هـذه المساوة التى يحرصن عليها ... ولانبخل بها نحن لأنا نراها حقا مقررا لا معنى للمناقشة فيه . ولكن للصلات الأدبية بين السيدات والآنسات وبيننا أصولا وقواعد ترتفع عن هذا النحـو من التفكير ... وتسمو على اللون من ألوان التقدير . (٣)

---

(١) ، (٢) المعذبون فى الأرض ، طه حسين ، ص ٦٢ ، ٥٨

(٣) المعذبون فى الأرض ، طه حسين ، ص ٥٨ ، ٥٩

كتب فى مجلة « الهدايا » لصاحبها « عبد العزيز جاويش » آراء كثيرة عن المرأة . تحت عنوان «كلمات فى المرأة » ، وضع فيها آراءه فى شعور المرأة وتعليمها . [١]

« وكان يرى أن المرأة لايسكنها على الحجاب الا الجهل ... فاذا تعلمت وجب علينا أن نحسب لعلمها حسابا كبيرا ... فليس من البعيد بعد أن يتعلم النساء تعلما صحيحا أن تكون منهن قوية العارضة شديدة الشكيمة . وليس من البعيد أن تكون بينهن أمثال أولئك السيدات اللاتى يجهرن بالحق ويدعون إلى الله فى وجه الأئمة من خلفاء المسلمين . أليس عجيبا ألا نعرف حربا من حروب المسلمين أيام الخلفاء الراشدين لم تشهدها النساء ... ولم يبلين فيها أحسن البلاء ثم نقول بعد ذلك بوجوب الحجاب » . [٢]

وكان وهو أستاذ فى الجامعة يشجع الطالبات ويشملهن بعطفه ويشجعهن على دراسة الأدب العربى ولاننسى موقفه من الدكتورة « سهير القلماوى » حين شجعها وهى خريجة المدارس الأجنبية ومقبلة على دراسة الطب على الالتحاق بكلية الآداب ودراسة اللغة العربية . وتبناها حتى جعل منها أستاذة اللغة العربية وآدابها . وان دل هذا على شيء فإنما يدل على إيمانه بالمرأة وثقته فى عقليتها ونبوغها .

* * *

(١) طه حسين الشاعر الكاتب : محمد سيد كيلانى الدار القومية ص ١٤٣

(٢) طه حسين الشاعر الكاتب : محمد سيد كيلانى الدار القومية ص ٤٣

كان احساسه بالمجتمع عظيما ... ولأنه نشأ وترعرع في أعماق هذا المجتمع فهو يعرف نقائصه وعيوبه . ويعرف كذلك أوجه اصلاحه . وكان يرى أن نظام التعليم في مصر يحتاج إلى إصلاح كبير . كان يمقت الجمود الذى أصاب التعليم ويكره طرقه القديمة . وكان يرى أن التعليم والثقافة هما الطريق إلى الحرية وهو الذى عاش التيارات المختلفة في فترة مابين الحربين . يقول عن قيمة الثقافة : « لولا أن مصر قصرت طائعة أو كارهة في ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ... ولما أضاعت استقلالها ولما احتاجت إلى هذا الجهاد العنيف الشريف لتسترد الحرية وتستعيد الاستقلال » . (١)

ووضع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» ليرسم المثل الأعلى للاصلاح الثقافي ويعتبر هذا الكتاب التطبيق العلمى لفكر « طه حسين » ونتيجة لماعاناه هو شخصيا في التعليم فانه يضع البرنامج الأمثل الذى يتناسب مع نهضة ثقافية لأمة ناهضة . وفى هذا البرنامج يعتنى بالمعلم كما يعتنى بالطالب فالمعلم أولا يجب أن يكون محط العناية والرعاية ويجب أن يعد اعدادا سليما وأن يمنح الثقة وأن تتوافر له الحياة الكريمة حتى يستطيع أن ينهض بأعباء مهمته السامية . ويجب أن تكون مدارس المعلمين صالحة فى حياتها المادية والمعنوية بحيث لايعيش طلابها عيشة ابتذال وهوان ولايشعرون انهم طبقة متواضعة من طبقات الشعب ... الشعب الذى يريد أن ينشيء جيلا صالحا

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٩

خليقا أن يفكر فى المعلمين الذين ينشئون هذا الجيل » . (١)

ويضع فى كتابه الخطة المثلى للاصلاح كما يراه ... ويدعو إليهـا . كان يرى أن التعليم الأولى أو الإلزامى ركن أساسى من أركان الحياة الديمقراطية الصحيحة . وأن الدول الديمقراطية ملزمة أن تنشر التعليم الأولى وتقوم عليه ... وذلك لأسباب منها أنه أيسر وسيلة تمكن الفرد من الحياة السليمة . والثانى أن هذا التعليم أيسر وسيلة يجب أن تكون فى يـد الدولة نفسها لتكوين الوحدة الوطنية . لأن الحرية لاتستقيم مع الجهل . والتعليم هو الذى يشعر الفرد بواجبه وحقه . وواجبات غيره وحقوقهم وهو الذى يملأ الإنسان بهذا الشعور المدنى الشريف ... شعور التضامن الاجتماعى . ويرى كذلك أن الدو مسئولة مسئولية كاملة عن صحة الطالب وحمايته من العلل والآفات لا عن تكوين عقله فحسب ولذلك ينادى بمكان للتربية البدنية فى التعليم الأولى حتى تخرج للأمة أجيال صحيحة الأجسام والعقول .

ولقد لمس جهل البيئات الريفية المتأخرة ... ولذلك يذهب فى رغبة نشر التعليم الأولى إلى حد الإجبار فهو يرى أن التعليم ضروره بالقياس إلى أفراد الشعب جميعاً ينبغى ألا يفلت منه واحد من أية طبقة من طبقات الشعب مها تكن . على حين أن التعليم الثانوى كالتعليم الفنى المتوسط ضرورة لجماعات من الشعب لا لأفراد الشعب كافة .

والتعليم العالى والتعليم الفنى الخاص ضرورة بالقياس إلى جماعات أخرى أقل من هذه

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ص ١٦

المجاميع عدداً. فالتعليم الأولي ضرورة لعامة الشعب والتعليم الثانوي الفني المتوسط لأواسط الناس والتعليم العالي والفني الخاص ضروري لصفوة الأمة وخلاصتها وقادة الشعب ومدبري أمره في فروع الحياة كلها. وبالطبع يجب ألا يفهم من هذا أنه ترتيب طبقي

ولكي يأخذ كل طالب نصيبه من التعليم حسب قدراته الشخصية والعقلية. يرى أن من واجب الدولة أن تراقب الأبناء الذين تقبلهم في المدارس مراقبة دقيقة. تراقب أجسامهم وعقولهم وقلوبهم وأخلاقهم وتراقب ماينتج من هذا كله من الاستعداد لأنواع الثقافة والعلم. تراقب كل هذا وتستخلص نتائجه وتبلغها للأسر. فمن رأت فيه الاستعداد الحسن للمضي في هذا التعليم العام إلى غايته استبقته وشجعته وشملته بالرعاية والعناية. ومن تر فيه استعداداً لتعليم آخر فليوجه إليه.

كان «طه حسين» يحب اللغة العربية ويؤثرها. لذلك تمنى لو أنها حظيت بحب الجميع وإيثارهم. ونظر فوجدها تدرس بطريقة جافة منفرة فنادى بتطوير تعليمها فالنحو والصرف والأدب يعلم الآن كما كانت تعلم منذ ألف سنة وهذا لا يتمشى مع منطق العصر الحديث. ولن نحصل على النتائج المطلوبة من تعلم اللغة العربية وآدابها إلا إذا تطورت علوم اللغة وصيغت في صيغ حديثة لا تمس جوهرها وإنما تقربها إلى النفوس. يقول «يجب أن نجتهد ما استطعنا في أن نحبب إلى الطلاب قراءة النصوص العربية وتفهمها ونقرب إليهم هذه النصوص ونحسن لهم اختيارها ... ونظهرها على أن الأدب العربي ليس كما يمثله لهم معلموه من الشيوخ جافا جدبا عسر الهضم لاسبيل إلى إساغته ولا تذوقه وإنما هو على عكس هذا كله لين هين خصب لذيذ فيه ما يرضي حاجة الشعور وفيه مايقوم

عوج اللسان ... وفيه ما يصلح من فساد الخلق وفيه ما يرضي حاجة الانسان في حياته الفردية والمنزلية والوطنية والانسانية أيضاً ». (١)

وأراد أن يفتح أمام المثقفين آفاق المعرفة على مصرعيها فطالب بتدريس اللغتين اللاتينية واليونانية للطلبة الراغبين في التعمق والبحث في الآداب. وأن تفرضهما كلية الآداب ضمن مناهجها. ففي رأيه أن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح ولن تفلح في تدبير بعض مرافقها الثقافية الهامة إلا إذا عنيت بهاتين اللغتين فهو يرى أن فهم التاريخ المصري خاصة والتاريخ الاسلامي عامة موقوف على فهم التاريخ اليوناني. فما ينبغي لأحد أن ينسى ما كان للحضارة اليونانية من التأثير الظاهر في حضارة العالم كله ومنه البلاد الاسلامية. ويعزو ذلك إلى أن اليونان قد سادوا في الشرق أكثر من قرنين فرضوا فيه نظاماً لم يعرفه من قبل. وحين ساد الرومان بعدهم لم يغيروا ما وجدوا من نظام. وجاء العرب فأخذوا ما وجدوا ولم يزيدوا على أن عربوه. ويرى أن على المؤرخ وهو يدرس تاريخ الأمم الاسلامية أن يتفهم النظم القديمة والصلة التي تربطها بالنظم الاسلامية. وإذا كان مؤرخ الأمم الاسلامية يرد الأشياء إلى أصولها فيجب عليه أن يعرف تاريخ الأمة اليونانية ويتقنه لكي يستطيع أن يميز ما كان لها من أثر في حياتها العقلية والاجتماعية والسياسية.

وفي التعليم الجامعي له نظرات أيضا. وفي رأيه أن الجامعة بيئة لا يتكون فيها العلم وحده ... وإنما يتكون فيها الرجل المثقف المتحضر الذي لا يكفيه أن يكون مثقفاً بل يعنيه أن يكون مصدراً للثقافة. والجامعة يجب أن تكون مستقر الحضارة الراقية التي لا تظهر آثارها في الانتاج العلمي والعملي وحدها ... وإنما تظهر قبل كل شيء في هذه السيرة النقية الصافية التي تقوم فيها

---

(١) الأدب الجاهلي، طه حسين، ص ١٣

الصلات بين الناس على المودة الشائعة والاحترام المشترك والايمان بالواجب قبل الايمان بالحق ، واكبار النفس والارتفاع بهـا عن الصغائر وتنزيهـا عن الدنيات ثم فى هذا الذوق المهذب المصفى الذى يحس الجمال ويسمو إليه ... ويحس القبح فينأى عنه .

وحاول فى أثناء وجوده فى الجامعة أن يحقق أهدافه هذه وأن يجعل من الجامعة مستقراً للتكوين الثقافى المتطور والفكر الحر الطليق .

« يقول سامى الكيالى : » كان فى عمله الجامعى لايخضع للروتين الحكومى فاذا اقتنع بشيء أقره ولو جاء مخالفاً للوائح . لأنه كان يؤمن بأن الصالح العام لاتعوقه اللوائح والقرارات . وكان مديرو المستخدمين ورؤساء الحسابات يلقون فى هذا عناء كبيراً لأنه كان يحطم قواعدهم . واستقل بادارة الجامعة فلم يكن يرجع فى شيء من شئونها إلى وزير المعارف . ولكنه حين أصبح وزيراً للمعارف سيطر على مديرى الجامعات فأصبحوا يرجعون إليه فى كل شيء » . [١]

ولم يغفل التعليم الدينى . فطالب بتطوير التعليم فى الأزهر نفسه . وطالب بأن يتاح لرجال الدين التعليم والثقافة بشتى أنواعها ولايقتصر تعليمهم على أمور الدين وحدها . لأنه لم يكن راضيا عن سبل التعليم فى الأزهر وقد عانى هو نفسه من قصور هذا التعليم . ويجد رجال الدين فى البلاد الأوربية يتخرجون من معاهدهم الدينى بعد درس عميق وامتحان دقيق وحياة أشد ألف مرة ومرة من حياة الأزهريين . ولا يمنعهم هذا من أن يتخرجوا فى الجامعات والمعاهد الدينية لذلك يريد لرجال الدين عندنا حظا من الثقافة مما يتاح لمثلهم فى الخارج .

---

(١) مع طه حسين » : سامى الكيالى ، ص ٧٣

وبما أنه كان يريد اصلاحا يتمشى مع روح المجتمع المصرى المتدين فقد هاجم الشيوعية التى تجحد الديانات جحودا تاما وتنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة لازمة لتطور تاريخى محتوم. وهاجم كذلك أصحاب مذهب الحرية الذين ظهروا فى أعقاب الثورة الفرنسية والذين لا يكادون يحفلون بالدين. لذلك فهو يطلب أن أمكن مذهبا يلائم بين الحرية ... والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى. ويتخذ الدين أساسا لحياة انسانية جديدة ترتفع عن المادة وترقى إلى المثل العليا وتؤمن بأن فى الانسان قبوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للانسان حظه من الرقى إلا إذا اتصلت بمصيرها القدسى الأول.

ويرغم أنه كتب كثيرا عن الخصومة بين العلم والدين. وشك الكثيرون فى مدى قوة تدينه... إلا أنه كان متدينا حقا وإنما كان ينشد الدين السمح... لا يستطيع أن يقبل الجمود فى الحياة والعلم بدعوى الدين. فالعلم شيء والدين شيء آخر. الدين ملك للفرد والعلم ملك للانسانية. الدين صلة روحية بين العبد وربه. والعلم صله بين الانسان والحياة. سئل يوما عما ذعا به ربه فى أثناء زيارته للأرض المقدسة فقال: «مالكم تتدخلون بين العبد وربه؟ وهو يريد أن يسود الوئام بين العلم والدين حتى تسعد الانسانيه بها. يقول: «هل كتب على الانسانية أن تشقى بالعلم والدين أم هل كتب على الانسانية أن تسعد بها... أما نحن فنعتقد أن الانسانية تستطيع أن تسعد بالعلم والدين جميعا... وانها ملزمة إذا لم تستطيع أن تسعد بها أن تجتهد فى ألا تشقى بها وسبيل ذلك عندنا واضحة... وهى أن تنزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدين... أو قل سبيل ذلك أن ترغم السياسة على أن تقف موقف الحيدة

من هذين الخصمين . فالعلم فى نفسه لايريد ولا يستطيع الأذى ولكن السياسة تريد وتستطيع الأذى غالبا ... وهى كما قلت تتخذ العلم حينا وسيلة إلى هذا الأذى ... وتتخذ الدين حينا آخر وسيلة اليه „ . [1]

وهو بعد كل هذا يكرم العقلية المصرية . ويرى أنها عقلية أصيله صاحبة حضارة قديمة باهرة . وتظهر النزعة الوطنية عنده حين يوضح الصلات بين العقلية المصرية وحضارتها وبين العقليات المختلفة وحضارتها . وهو يؤكد أن الصلة التى قامت بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة كانت شيئا يشرف به اليونان ويتمدحون به فيما يقولون من الشعر القصصى اليونانى وكان اليونانيون فى عصورهم الراقية كما كانوا فى عصورهم الأولى يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة . ثم جاء التاريخ فلم ينف ذلك بل أكده وقواه . فالتأثير المصرى فى فنون العمارة والنحت والتصوير عند اليونان شىء لايجحد .

ومصر تحتل بحضارتها مكانا بارزا بين حضارات العالم فلا أحد ينكر أنها حمت العقل الإنسانى مرتين . حمته حين آوت فلسفة اليونان وحضارتهم أكثر من عشرة قرون ... وحمته حين آوت الحضارة الإسلامية ورعتها حتى هذا العصر الحديث .

وفى طريق تكريمه للعقلية المصرية واثبات أنها لاتقل عن غيرها من العقليات وصل ما بينها وبين العقلية الأوربية برباط قوى أعتقد أن „ طه حسين „ أول من تنبه له . وكان من الجرأة بحيث استطاع الافضاء برأيه هذا

(١) من بعيد „ طه حسين „ ص ٢٢٧

وهو يعلم أن هناك من سينكره . وكان كل غرضه من هذا أن يرى المصرى نفسه ندا للأوربى ولا يرى نفسه أقل منه فى شىء فلا يحجم عن التعامل معه بدعوى أن هذا أوربى ... وهو شرقى . وناقش فكرة الشرقية هذه وأتى بالأدلة ليحطم نظرية انتمائنا للشرق .

فهو يرى أنه لو أردنا أن نتعرف على المؤثر الأساسى فى تكوين الحضارة المصرية ... وتكوين العقل المصرى ... وإذا لم يكن بد من اعتبار البيئة فى تقدير هذا المؤثر الأساسى ... فمن اللغو والسخف أن نفكر فى الشرق الأقصى . ومن الحق أن نفكر فى البحر الأبيض المتوسط وفى الظروف التى أحاطت به ... والأمم التى عاشت حوله . وإذا فالعقل المصرى القديم ليس عقلا شرقيا إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار . وقد نشأ العقل المصرى فى مصر متأثرا بالظروف الطبيعية والإنسانية التى أحاطت بمصر وعملت فى تكوينها . فاذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصرى ... فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم . وقد كان العقل المصرى أكبر العقول التى نشأت فى هذه الرقعة من الأرض وأبلغها أثرا . أما المصريون أنفسهم فيرون أنهم شرقيون ... وهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافى اليسير وحده بل معناه العقلى والثقافى فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندى والصينى واليابانى منهم إلى اليونانى والايطالى والفرنسى ،، . (١)

وهكذا أراد أن يربط بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية لينفض عن

(١) مستقبل الثقافة فى مصر : ،، طه حسين ،، ص ١٨

المصريين الجمود والتراخي ويرى أنه من السخف أن ننظر إلى وحدة الدين ووحدة اللغة كأساس للوحدة الأساسية . ويقول أن أوربا تقيم سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس . ويلاحظ أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الاقصى ولا بالشرق البعيد قليلا ولا كثيرا . انما نشأ مصريا ثم أثر فيما حوله وتأثر به . ويعجب من المصريين لأنهم يرون أنفسهم شرقيين . فاذا اسئلوا عن معنى هذه الشرقية لم يحققوها . فلا فرق هناك إذا بين العقل المصرى والعقل الأوربى . ويبرر التخلف الذى تزحزح به مصر بأن قد عدت على أهل الشرق القريب عواد ... وألمت بهم ملمات فقطعت الصلة بينهم وبين أوربا وعملت على إعاقتهم بينما مضت أوربا فى نهضتها .

وكعادته تتضمن أراؤه ردا دائمـا على مايمكن أن يثور من إعتراضات عليه . فهو يعرف أن هناك مشفقين على حياتنا الدينية من الإتصال بأوربا على هذا النحو الذى يدعو اليه ... لأن الناس تعرف أن فى حياة الأوربين كثيرا من الآثام والأخطاء والاباحيات التى لايرضاها الدين . وهو يرد على هؤلاء المشفقين بأن الحياة الأوربية ليست إثما كلها . وأن لابد أن يكون فيها من الخير كثير لأن الإثم الخالص لايمكن من الرقى . وقـــد ارتقى الأوربيون ما فى ذلك شك . وحياة المجتمعـات في كل مكان وزمان مزيج من الخير والشر .

وعلى ذلك فانه اذا كان يدعو إلى الاتصال بالحياة الأوربية والسير على النهج الذى سار بها إلى الرقى والتفوق ، فهو لايدعو إلى الآثام والسيئات ... وإنما يدعو إلى النافع مما عندهم .

وما أرى أنه خرج بكل هذه الدعاوى الا لتخليص المصريين من التخلف والجمود .

إلى هذا الحد كان الرجل متأثرا بالبيئة التى تحيط به فكان معظم إنتاجه الأدبى من هذه البيئه ولها . تفاعل معها وأحس مثالبها فوضح لها طريق الصلاح بدرجة تضعه على قدم المساواة مع أى من المصلحين الاجتماعيين .

« طه حسين فى أدبه كله يدير الأحداث والشخصيات والأفكار مرتبطة كلها بأبعادها الاجتماعية أشد الارتباط لأنها تستمد وجودها الحى وتطورها وتقلبها وخطرها من تلك الأبعاد الاجتماعية قبل كل شيء » . (١)

كان أديبا ملتزما يحس بمسئوليته تجاه بلاده ووطنه وهكذا تركت البيئة بصماتها على تفكير هذا الرجل وشغلت مساحة واسعة منه فأخذ منها وأعطاها بما فيه الكفاية وكانت أكبر العوامل الفعالة فى تكوينه الفكـــرى . يقول « شوقى ضيف » : « الذى لاشك فيه أن الأديب لايكتب أدبه لنفسه وإنما يكتبه لمجتمعه وكل مايقال عن فرديته المطلقة غير صحيح فانه بمجرد أن يمسك بالقلم يفكر فيمن سيقرءونه ويحاول جاهدا أن يتطابق معهم ويعى مجتمعهم وعيا كاملا بكل قضاياه وأحداثه ومشاكله لسبب بسيط وهو أنه اجتماعى بطبعه . ومن ثم كانت مطالبته أن يكون إجتماعيا فى أدبه مطالبة طبيعية ، أما أن يتخلى عن مجتمعه فان ذلك يعد شذوذا وانحرافا وانسياقا نحو ضرب من الاعتزال من شأنه أن يفت فى عضد المجتمع » . (٢)

. . .

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « صوفى عبد الله »
(٢) « فى النقد الأدبى » : شوقى ضيف ص ١٩١ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦ دار المعارف .

ولكن هذا الفكر قد تكون من عدة عوامل متلاحمة وإذا كانت البيئة المصرية والمجتمع المصري قد عملا كثيرا في عقلية هذا الرجل فقد لعبت الثقافة الفرنسية دورا بارزا في بناء عقلية المفكر ... منها استقى العلم الجديد ... ومنها تفتح ذهنه على مناهج البحث الجديدة . كانت الثقافة الفرنسية غير ميسرة للكثيرين . فأقبل « طه حسين » على دراسة اللغة الفرنسية . وتخطى كل الصعوبات إلى أن أتقنها واستطاع أن يتعامل مع هذه الثقافة برغبة الباحث طالب العلم .

أتاحت له هذه الثقافة الاطلاع على الأعمال الأدبية الراقية وعلى أعمال الفلاسفة ونظرياتهم وتحاليلهم ... وبذلك إطلع على مذاهب نقدية وفلسفية جديدة متطورة . وأمدته بمناهج النقد الحديثة التي يسرت لعقله هذه الانطلاقة من أغلال القديم . ونمت لديه الذوق الفني وحاسة الناقد . ورسمت له طريقا واضحا يقوم على النظريات الحديثة متخذا من العقل رائدا لأعماله . وكانت الحركة النقدية قد أصابها الجمود منذ انقطع امدادها في نهاية القرن الرابع الهجري ... وتلته قرون طويلة لم يظهر فيها إلا صدى القديم وترديد أحكام القدماء .

فاستمد « طه حسين » من هذه الثقافة قوة ينفض بها غبار السنين ويزحزح بها ثقل القرون المتوالية من الخمول . ورأى أنه امتاز عن القدماء بما اكتسبه من علم حديث ومقاييس جديدة تتمشى مع العصر . فرأى في نفسه القدرة على أن ينظر في القديم بعين فاحصة ناقدة متجددة ، وأن لاداعي لهذه الهالة التي يحاط بها القدماء . يقول « أما أنا .. فلا أقدس القدماء . وانما أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي وأعلم أنهم مثلي ومثلك يجدّون ويمزحون .. يحسنون ويسيئون » .[1]

---

(١) حديث الأربعاء : « طه حسين » ص ٧٠ جـ ٢

ويدلي برأى في مشكلة القديم والجديد في كتاب «على هامش السيرة» يقول: «أن القديم لاينبغى أن يهجر لأنه قديم والجديد لاينبغى أن يطلب لأنه جديد. وأنما يهجر القديم إذا برىء من النفع وخلا من الفائدة. فاذا كان نافعا مفيدا فليس الناس أقل حاجة إليه من الجديد».(١)

وبهذا ابتدأ ثورة كبيرة ضد الجمود والتخلف وتقديس القدماء. ونادى بتحرير الفكر والأخذ بتعقيل الحياة. وكان له في «ديكارت» القدوة والمثال سحرة المنطق العقلي الذى يسير عليه «ديكارت» فأخذه عنه. يقول: «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذى استحدثه «ديكارت» للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث. والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسيـــة لهـذا المنهج هى أن يتجرد البـاحث من كل شىء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربى القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء. ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ماقيل فيهما من قبل». (٢)

غير أن الناظر المدقق لمذهبه في النقد يجده لم يأخذ بمذهب «ديكارت» في الشك خالصا. أى أنه لم يعتمد الشك وحده أساسا لنقده. فهو لا يريد الهدم

---

(١) على هامش السيرة: «طه حسين» جـ ١ ص ٥

(٢) في الأدب الجاهلي: «طه حسين» ص ٦٧ دار المعارف الطبعة الثـــانية.

وحده . انما هو يعتمد حكم العقل أساسا لمنهجه . فنهجه عقلانى قبل كل شيء حقا أنه آمن بمبادىء « ديكارت » .. ولكنه اعتمد فى تطبيقها على منطقة الخاص وتذوقه الشخصى . لذلك فهو يرفض فى الأدب تطبيق المنهج العلمى البحت . فالأدب نتاج للفكر والعاطفة ولابد فى نقد الأدب من اعتبار هذين العاملين ولذلك عمد إلى النقد التحليلى للأثر الفنى ... والذى تسانده المناهج النقدية والأبحاث العلمية.

ويقول « محمود أمين » العالم عن منهجه : « اصطنع المنهج الديكارتى كما يقول فى كتابه الأدب الجاهلى ولكنه فى الحقيقة لم يكن فى حاجة لهذا المنهج الديكارتى ، فجوهر حركته الفكرية هو التجديد العقلى .. وليس الشك الديكارتى إلا وجها من أوجه هذا الجهد العقلى ولكنه ليس جوهره . فمذهبه ليس فيه من الديكارتية غير هذا المظهر الخارجى . وواصل « طه حسين » فى الحقيقة طريقه العقلى الصارم الذى بدأه . ولم يكن الشك الديكارتى غير جانب من منهجه العقلى العام ... ولكنه ليس سمته الأساسية » . (١)

طبق « طه حسين » منهجه العقلى العملى فى كل ماتناول من دراسات وأبحاث . فخرج علينا بكتاب « الأدب الجاهلى » الذى بلغ فيه درجه من التجرد من الأحكام السابقة . وفصل فيه بين الدين والعلم فلا سلطان على العقل حتى ولوكان سلطان الدين ، ليستطيع الباحث أن يبحث فى نزاهة وصدق .

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « محمود أمين العالم » ص ١٢٧

وإذا كانت الثقافة الفرنسية قد شاركت في تكوين فكر هذا الرجل فانما أخذ منها الأسس ولكنه صاغها حسب احتياجات مجتمعه ومتطلباته . فلم يجعل من نفسه بوقا لترديد معتقدات هذه الثقافة ... أنما أخذ منها الصالح لطبيعة الحياة في بلده . حقا كان « ديكارت » فيلسوفا ... أما « طه حسين » فقد كان أديبا يفلسف الأدب .. ويحكم قوانين المنطق العقلي في الدراسات النقدية . كان « ديكارت » يقدس العقل ... وكان طه حسين يطبق أحكام العقل على الواقع ... فهو صاحب منهج عملي ...

وقد تعمق إلي أبعد حد في دراسة « ديكارت » لدرجة أنه فاق الفرنسيين أنفسهم بالبحث والاستقصاء في فلسفته وتبلغ به الثقة في أبحاثه عن «ديكارت» أن يقول : « أهدى هذا البحث إلي الذين يعرفون « ديكارت » من المتفرنجة والمتعلمين على اختلافهم . ذلك أنى أعلم من أمر « ديكارت » مالا يعلم الناس في مصر . فقد كنت أريد أن أضع فيه كتابا واضطرني ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق وإلى ألوان من الاستقصاء والاستقراء ... ولكني لا آسف على مالقيته من عناء فقد وصلت إلي نتائج غريبة قيمة لوأعلنتها في فرنسا لاندكت لها السربون ولاضطربت لها الكوليج دى فرانس ولأعلن لها المجمع الفرنسي افلاسه » . (١)

وذلك لأنه عثر على مجموعة من المخطوطات كانت محفوظة في مكتبة ملك فرنسا وانتهى بها الأمر بعد الثورة إلي مكتبة إحدى الأسر ثم إلي أحد أصدقائه الذى أغلق عليها . ويقول أنه يوم يستوفى دراستها سيعلم الناس يومئذ أنهم لم يؤتوا من العلم عن « ديكارت » إلا قليلا .

---

(١) من بعيد « طه حسين » ص ٨٨ .

وبعد كل هذا التعمق فى فلسفة ,, ديكارت ,, ... وبرغـم تأثره بغيره من الأدباء والفلاسفه . . الا أنه يصوغ عقله وفكـره صياغه إسلاميـة مؤمنه . فهو يعطى للدين قداسته وللاسلام عظمته كدين متطـور قادر على التواؤم مع العقل الحديث . يقول مدافعــا عن الإسلام وردا على صديقه الفرنسى ,, أندريه جيد ,, حين قال عن القرآن انه مدرسة مقفلة : ,, لقـد أعطى الإسلام كثيرا لأنه تلقى كثيرا . تلقى اليهوديه والمسيحيه أول الأمر . ثم وسع ثقافه اليونان والفرس والهند . تلقى هذا كله ثم أساغه ثم صاغ منه ثقافه عربيه ثم استخرج منه خلاصه ثم أهداه إلي الغرب قبل القــرن الخامس عشر بوقت طويل . وإذا كان الإسلام قد استطاع أن ينهض بهذا العبء الخطير ... فهو قادر فيما أعتقد على أن يتقبل الثقافه الأوربيه الحديثه وانه ليتقبلها بقبول حسن ,, [1]

وبذلك نرى أنه لم يدع إلى التحرر من الدين بمعنى ترك الدين جانبـا أو التخلي عنه ... ولكنه لايسمح بالجمود بدعـــوى متطلبات الدين . وحتى لايتخذ من الدين معوق للفكر الإنسانى . بل ان ,, طه حسين ,, أثبت أن الدين قوة روحيه من شأنها شحذ العقل واشعال جذوته . واستخدم ,, طه حسين ,, حصيلته من الثقافة الفرنسيه لخدمة الفكر العربى للارتقاء به .

أما العامل الثالث الذى اشترك فى تكوين فكر ,, طه حسين ,, ذلك هو التراث اليونانى والرومانى ... الذى انبثقت منه المعـــرفة الأولى للانسان المتحضر . وأراد المفكر أن يتعرف على هذه الاشعاعـه المبكره ... وخاض

---

(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسيه فى أدبه : ,, كمال قلته ,, ص ٣٦

الصعب ليصل إلى هذه المعرفة ولم تقف اللغة الجامدة الهامدة عقبة فى سبيله... ولم تقف الآفة المعوقة حائلا . أراد أن يتعرف الناس التاريخ اليونانى الذى يرى بينه وبين التاريخ المصرى والإسلامى صلة كبيرة . لذلك فتـــح باب الدراسات اليونانية على مصراعيه وأراد للجامعة أن تحذو فى نهجها حـــذو جامعات الغرب ففرض على تلامذته دراسة التاريـخ اليونانى ... ورضى قوم عن ذلك وسخط آخرون وكان الساخطون أكثر من الراضين ولكن هـذا لم يفت فى عضده . وقدم لقراء العربية نماذج مختارة من الشعر التمثيلى ومن القصص التمثيلى عند اليونان . وترجم لهـــم ألوانا مختلفة من التراجيديا والكوميديا للعملاقين « ايسكولوس » و « سوفكليس » . وترجم الكتات القيم « نظام الآثينيين » عن « أرسطاليس » وبه فتح آفاقا جديدة أمام رجال الفكر والقضاء . وأخرج كتاب « قادة الفكر » كتب فيه عن « أرسطو » و« سقراط » و « هوميروس » و « الاسكندر » وغيرهم من نوابـغ التاريخ الاغريقى . وأطلع الفكر العربى على نماذج تحتذى ... نماذج خالدة فى تاريخ الانسانية . وتناول هذا كله بمنهج تحليلى إجتماعى دقيق .

كان يرى أن دارس الأدب الذى لا يطلـع على الأدب اليونانى مقصر قصورا كبيرا ... ويرى أن الأديب لن يصبح أديبا بحق إلا إذا استمد الهام فكره من هذه الذخيره . يقول : « ولست أدرى أقرأت الأودسا أم لم تقرأ . وأنا أسمح لنفسى بهذا الشك لأنى أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليونانى سيء الحظ فى مصر . وأن سؤ حظه قد بلغ من الشدة إلى حيث لا تستطيـع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة . تجهل الأدب اليونانى لا أقول جهلا تاما ـــ بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لا يليق بقوم يحبون الحيـاة أو يطمعون فيهـا .

نستطيع أن نحصي المصريين الذين يعلمون ما الأوديسا وما الالياذة ومن أوليس ومن بينيلوب. ومع ذلك فقد كانت الأودسا والالياذة ومازالتا وستظلان دائما ينبوع الحياة للأدب والفن ».(١)

وهكذا ينظر « طه حسين » إلى الأدب اليونانى القديم . « يقول الدكتور « شكرى عياد » : « أسلوب « طه حسين » فى امتداده وتماسك أجزائه وتصفحه لجوانب الموضوع الواحد، موسيقاه وتوازن مقاطعه ووقار عباراته مهما تمتلىء بالعاطفة أسلوب لا يمكن أن يكون الا ثمرة التقاء الثقافة اليونانية بالثقافة العربية فى ذهن خلاق ».(٢)

وكان العصر الذى بدأ فيه « طه حسين » البحث فى هذه الآداب عصرا يحتاج إلى مثل هذه الدراسات فلم تكن مصر قد بلغت بعد مستواها الفكرى الذى بلغته بعد انشاء الجامعة وتطورها وتعدد كلياتها وتعدد خريجيها ولهذا فقد كانت فى مسيس الحاجة إلى أن تستلهم التراث الإنسانى المتعدد الموارد وإلى أن تتلمس المعرفة أيا كانت مصادرها . كانت تدفعه نحو هذا التراث عوامل حضارية معبرة عن روح العصر .

. . .

ومن أهم العوامل التى عملت فى تكوين فكر « طه حسين » وكان له النصيب الأكبر منه هو التراث العربى الإسلامى . « فطه حسين » قبل أى شيء عاشق للأدب العربى الذى أقبل عليه بكل طاقاته ينهل من هذا التراث

---

(١) من بعيد : « طه حسين » ص ٣٦

(٢) تجارب فى الأدب والنقد : « شكرى عياد » ص ٦٧

الفنى ماشاء له اعجابه واكباره لهذا التراث العظيم وهو ان ثار ونقد ... فما يريد الا أن يخلص هذا التراث من الشوائب ليكون ثروة قومية وذخرا لكل طالب علم . قال يصور ما بينه وبين كتب التراث الأدبى العربى : « أقرأ هذه الكتب التى لاأعدل بها كتبا أخرى مها تكون ... والتى لاأمل قراءتها والأنس اليها والتى لاينقضى حبى لها واعجابى بها وحرصى على أن يقرأها الناس . » ويقول : « الظاهرة التى يمتاز بها أدبنا والتى تمكننا من درسة وتتبع أطواره هى أنه قديم جدا وحديث جدا . قد اتصل قديمة بحديثه اتصالا مستقيما لا انقطاع فيه ولا التواء ففيه خصائص الآداب القديمة وفيه ما يمكننا من استخلاص حديثه من قديمه وما يغنينا عن كثير من الفروض . أدبنا العربى كائن حى أشبه شىء بالشجرة العظيمة التى نبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء والتى مضت عليها القرون والقرون . ومازال ماء الحياة فيها غزيرا يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض وفى فروعها الشاهقة فى السماء » . (١)

هكذا كان يرى « طه حسين » الأدب العربى ... وهكذا كان يحبه ويكبره وهكذا تعمق فيه بالدراسة والبحث ... وتبلور اعجابه حتى كانت له هذه الدراسات الممتعة والابحاث الشائقة فى عالم الأدب .

وقد أراد لهذا التراث الحياة الدائمة فنادى باتصاله بالحياة الحديثة وعمل على استمرار العلاقة والصلة بهذا الأدب حتى لايموت ولايذوى فى غبار النسيان . فالمحافظة على عناصره التقليدية واجب ضروى . ومهما ذهب

---

(١) ألوان : « طه حسين » ص ١٣ دار المعارف سنة ٥٨

اجتهادنا كل مذهب فسينتهي دائما عند طائفة من الأصول التقليـدية لاسبيل إلى التحول عنها . لأن التحول قتل لهذا الأدب وقطع للصلة بينه وبين العصر الحديث وانحراف به عن طريق الحياة المتصلة التى سلكتها الآداب الحيـــة . والسير به فى طريق الحياة المنقطعة التى سلكها الأدب اليونانى واللاتينى .

فهو يريد للأدب العربى استمرار الحيـاة ويرى فى عناصره التقليدية من القوة مايضمن بقاء هذا الأدب . وهى التى ستضمن بقاءه ما شاء الله أن يبقى . وكل ما ينادى به أو يطالب به ألا نغفل عناصر أخرى توازى هذه العناصر التقليدية وهى عناصر التجديد . ولولا هذه العناصر لاكتسب الأدب صفـــة الجمود . وهى التى أوجدت بينه وبين مختلف العصور اتصالا متفاعلا ولعل هذه هى الميزة التى يتميز بها أدبنا العربى . وهى الأخـذ من هذين العنصرين بقدر متساو ,, .[1]

ويؤكد ,, طـه حسين ,, أن الأدب يجب أن يدرس لذاته وليس لأى غاية أخرى وهو بهذا يخرج به عن المفهوم القديم الذى كان يرى أن دراسة الأدب وسيلة لفهم الدين والقرآن والحديث : ,, قل أن الأدب عند الذين يعلمونه ويحتكرونه وسيلة منذ كان عصر الجمود العقلى والسياسى ، بل قل أن اللغة كلها وما يتصل بها من علوم وفنون لاتزال عندنا وسيلة لاتدرس لنفسها وانما تدرس من حيث هى سبيل إلى تحقيق غرض آخر وهى تدرس فى رأى أصحاب الأدب القديم من حيث هى وسيلة إلى فهم القرآن والدين ,, .[2]

(١) ألوان : ,, طه حسين ,, ص ١٧

(٢) الأدب الجاهلى : ,, طه حسين ,, ص ٥٦

ويرى أنه ليس من مهمة الأديب أن يكون مبشرا بالدين أو هادما للالحاد لأن الأدب كغيره من العلوم يجب أن يكون قادرا على أن يخضع للبحث والنقد والتحليل والشك والرفض والإنكار . فيجب أن ينظر اليه على أنه علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفنى فيما يؤثر من الكلام .

ومن هنا كان منطلق « طه حسين » فى دراسته للتراث العربى ... فكانت رسالته الأولى عن : « أبى العلاء » وقد نهج فى دراستها منهاجا جديدا لم يكن معروفا من قبل ... دراسة شاملة عن البيئة والعصر والمؤثرات النفسية والاجتماعية ثم انتاج الأديب . وتبعها بدراسات أخرى قيمة ... منها دراسته عن « ابن خلدون » التى نفذ فيها إلى أعماق فلسفة ابن خلدون ونظرياته فى السياسة والاجتماع والاقتصاد .

وكانت هذه الرسالة فخرا للانسان المصرى الذى حظى بتقدير أساتذة السربون

وكان وهو يعرض لآراء ابن خلدون ومذهبه السياسي والاجتماعى يناقشه بلين أحيانا ، وبعنف أحيانا . بل انه دحض بعض آراء المؤرخ الكبير التى رأى أنها تنتقص من شأن العرب . ويرد عليه بقوله . « إذا كان ابن خلدون لم يفهم أن الحضارة التى تمتع بها هى من صنع العرب... فلاريب أن ذلك لأن المذهب الذى يدرس به التاريخ ضيق جدا » . [1]

ثم كان له بعد هذا ذلك الفيض من الدراسات العربية القيمة .

---

(١) مع طه حسين . « سامى الكيالى » ص ٤٢ طبعة ٧٣

وطبق „ منهاجه العقلى فى كتابه „ الأدب الجاهلى „ الذى أثار الدنيا عليه ، ولكن الأديب كان قد نشر هذه الآراء التى آمن بها . وأثبت نظريته الجديدة وهى أن الحياة الجاهلية تلتمس فى القرآن لا فى هذا الشعر الجاهلى . وبرهن عليها ببراهين عقلية . وأثار بنظريته هذه عاصفة أدبيـــة أدت إلى نشاط الحركة الفكرية فى ذلك الوقت . وتصـدى له الباحثون يردون على كتابه . فأغنى ذلك المكتبة العربية بعديد من الأبحاث والدراسات المفيدة .

ولم يزل „ طه حسين „ يتمثل التراث العربى فى فكره . فهو ماكان ليستطيع التباعد عن صلته الروحية به . فظهر كتابه „ على هامش السيرة „ الذى عرض فيه لفترتى ما قبل الرسالة وما بعدها . وكتاب „ الشيخان „ الذى تناول فيـه حيـاة الخليفتين الراشدين „ أبى بكر الصديق „ و „ عمر بن الخطاب „ وكتاب „ الفتنة الكبرى „ بجزأيها „ عثمان „ و „ على „ ويخوض به هذه الأحداث الدامية التى مرت فى تارخ الأمة الإسلامية . ومجموعة دراسات ومقالات ضمنها كتابى „ من بعيد „ و „ من حديث الشعر والنثر „ . وقدم كتـاب „ مرآة الإسلام „ استلهم فيه القرآن الكريم . وكتب كثيرا حول „ أبى العلاء „ و „ المتنبى „ . وتناول تاريخ الإسلام بمنهج جديد غاية فى الجدة وهو مـايعرف بالمدرسة الاجتماعية فى كتابه التاريخ فهـــو يرى أن الأدب من الناس وإلى الناس ويتساءل : „ أينبغى للأدب أن يكون لونا من ألوان الترف ؟ أم يجب على الأديب أن يكون أداة من أدوات الحياة . ويسأل مرة أخرى : „ وأدبنا العربى أكان متضامنا مع الحياة الواقعية ... أم كان مترفعا عنها ؟ أهو الآن أدب متضامن أم أدب معتزل ؟ مسألة لاتخلو من عبرة وعظة . فقد كان

أدبنا العربى حيا قويا حين تضامن مع الحياة الواقعية .. وكان فاترا متهالكا حين اضطرته الظروف إلى الاعتزال » . (١)

ولاشك أن فى أدب « طه حسين » نفسه الإجابة عن هـــذه الأسئلة . فهو يرى أن الرأى السائد الآن عند من يؤرخون الأدب أن هـــذه الآداب والآراء والفنون ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية أى انهـا أثر من آثار الجامعة والبيئة أكثر من أن تكون أثرا من آثار الفـــرد الذى رآها وأذاعها .

وبهذا نرى أنه يريد الأدب متفاعلا مع المجتمع وهذا مافعله هو نفسه . فقد جمع كل قدراته الذهنية وجعل منها خادما لمجتمعه . وبذل من الجهـد أقصاه حتى يحتفظ بالأدب العربى حيا نابضا .

. . .

وهكذا تكون فكر « طه حسين » من منابع المعرفه الإنسانية . وأصبح عقله موسوعة أدبية علمية كبيرة . فاحتل مكانا بارزا فى دنيا المعرفة . وذاعت شهرته فى جميع أنحاء العالم . واعترفت به الأوساط الأدبية العالمية .

« نشر الأستاذ » جب « الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية فى لندن دراسات مستفيضة باللغة الانجليزية عن الأدب العربى الحديث . وأشار فيهـا إلى قصة الأيام » . (٢)

---

(١) ألوان : « طه حسين » ص ١٩١

(٢) ثورة الأدب : « محمد حسين هيكل » ص ٨٤ مطبعة مصر

وتلقى دعوة عام ٥٢ من منظمة الأونسكو لحضور مؤتمـــر الفنانين الدولي ... والذى أختير مقررا للجنة الأدبية فيه، واشتركت فى هـــذا المؤتمر ثلاث وثلاثون دولة .

وقد أثار إعجابا كبيرا فى أوربا وحمـــاسة شديدة فى أمريكا حتى ان الكاتب "روبنسن" فى مؤلفه الذى كتبه عن أشهر الرجال المائة الذين هم على قيد الحياة . عده بين العشرة الذين لهم أعمق الأثر فى الحضارة العربية .

ورشحته الهيئات الأدبية لجائزة نوبل ومنحه عدد من الجامعـــات الدكتوراه الفخرية منها جامعـة ليون ومدريد وكمبردج . وترجمت بعض كتبه إلى لغات عدة منها الأيام الذى ترجـم إلى الانجليزية والفرنسية العبرية والروسية والفارسية . وترجم "دعاء الكـــروان" "وشجـرة البؤس" إلى الفرنسية كذلك "أديب" وترجم ملخص مستقبل الثقافة فى مصر" إلى الفرنسية أيضا . و "الوعد الحق" إلى الفارسية . [1] وصدرت عدد كتب فى عدة لغات تؤرخ حياته وتعرض كتبه وآراءه .

وهذا بالطبع عدا المكانة الرفيعة التى يحتلها فى عالمنا العربى .

---

(١) أنظر مع طه حسين : « سامي الكيالي » ص ١٥٤

الباب الثالث

السيرة العامة فى أدب «طه حسين»

كتب « طه حسين » فى السيرة العامة كتبا عدة منها مايستهدف فيه السيرة التاريخية لفترة من الزمان ، مبينا أحوال تلك الفترة إجتماعيا وسياسيا واقتصاديا قاصدا أن يبرز معالمها التاريخية . ويتمثل هذا النوع من السيرة فى كتاب « على هامش السيرة » وكتاب « الوعد الحق » .

....

وكتب نوعا ثانيا يتناول فيه السيرة السياسية من خلال السيرة العامة لبعض الساسة المسلمين قاصدا إلى توضيح المنهج السياسي لمن يكتب عنهم ، ومن هذا النوع كتاب : « الشيخان » وكتاب « الفتنة الكبرى » بجزأيه « عثمان » « على وبنوه » .

....

وكتب نوعا ثالثا جعله دراسة للشخصية الأدبية متمثلا السيرة العامة للأديب ويخرج من هذا بدراسة أدبية قيمة عن ذلك الأديب نعرف منها تاريخ حياته وأفكاره وطباعه وأحلامه . وتمثل ذلك فى كتابى : « ذكرى أبى العلاء فى سجنه » وكتاب « مع المتنبى »

....

وتستطيع أن نضم كتاب « قادة الفكر » إلى هذا النوع باعتباره تناول فيه فكر بعض الفلاسفة والمفكرين القدماء .

....

وسوف نعرض لكل من الأنواع الثلاثة فى فصل مستقل من فصول هذا الباب .

....

الفصل الأول

على هامش السيرة :

حين تقرأ كتاب « على هامش السيرة » تشعر أنه كتب يدفعه نفسية ثورانيه لا ارادية . ويؤيد المؤلف هذا الاحساس فيقول : « رأيتني أقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسي ويفيض بها قلبي .. وينطلق بها لساني وإذا أنا أملى هذه الفصول » « ويقول : « لست أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولا عن هذه الكتاب .. فاني لم أفكر فيه تفكيرا ولا قدرته تقديرا ولا تعتمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المألفون وإنما دفعت إلى ذلك دفعا » .[1]

ويوضح أنه لم يحاول أن يكتب للعلم ولاللتاريخ ولم يحاول أن يكتب سيرة تعتمد علي التسلسل التاريخي أنما هو نوع من الفيض النفسى الذى يثيره شعور وجدانى عارم فيسرع صاحبه الى تسجيله وتدوينه .

ونرى أنه لم يهدف فيها إلى التاريخ وإن كان التاريخ هو الخلفية الظاهره له . ولم يكتب سيرة بمعناها الكامل وإن كان بحثه يعتمد على وقائع تلك السيرة « أحب أن يقدم إلى قراء العربية صورا رائعة من الاساطير العربية التى لاتقل فى روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية فكان لنا كتابه على هامش السيرة وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم بل هو صورة رائعة قوية كانت مدفونة فى بطون كتب السيرة فجلاها بأسلوبه الأخاذ وإذا هى آيات من الأدب الأسطورى الجميل »[2] .

---

(١) على هامش السيرة : « طه حسين » ص ٩ ج ١

(٢) مع طه حسين : « سامى الكيالى » ص ٦٧

المعروف أن بطل هذه السيرة هو «محمد» عليه الصلاة والسلام . النبي . . الإنسان . البطل . ولكن « طه حسين » لم يمس شخص البطل بذاته . ولكنه جمع كل قدراته الفنية . . وحكم ذوقه الذى اعتمد مبدأ الانتقاء وسخر كل الأحداث والأشخاص للاقتراب من هذا البطل ، جعل كل ذلك يدور فى فلك بطله المقصود بهذه السيرة « طه حسين » لم يمس شخصية النبي « محمد » بنقد أو بتحليل أو بتأريخ . فقد أعطي لنفسه حرية الاختيار والنقد وأختراع الأحاديث ألاحين يتصل بشخصية النبي ، . [1]

فهو لم يكتب سيرة بالمعنى المفهوم . أنما كتب حول السيرة وكانت أفضل تسمية لهذا الكتاب بناء على ذلك هى « على هامش السيرة » . فقد جعل من هذه السيرة قطبا ينسج حوله أحاسيسه ووجدانه وإكباره فيصرفه قصصا وحكايات وأساطير ووقائع حقيقية وتاريخية وخيالا يصور بعين الحب والاعجاب . وجعل من كل . هذا خيوط نسجه تلتف حول هذا القطب ليجلو مكانته فى النفوس وفى التاريخ . ويمس بحديثه هذا مواطن القلوب . ولايعنيه ان يوافق العقل وحده فالانسان قلب وروح قبل كل شيء . يقول في المقدمة . أنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولايثقون إلا به . وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لايسيغها العقل ولايرضاها هؤلاء . سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرؤن فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل فان فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة

---

(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه : د كمال قلعه ، ص١٧٨

واستراحتهم اليها من جهد الحياة وعنائها مايحبب اليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها . وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير » .(١)

على هذا الوتر ضرب « طه حسين » فى كتابه ، فصاغ أحاديثه تلك التى ذكرها بعذوبة فائقة وروحانية تتلاءم تماما مع حديث إلى القلب والروح .

ولكنه لم يغفل حقيقة هامة . وهى أن من يستقطب انسانا ليكتب عنه حق وأن لم يكتب سيرته المباشرة الواضحة ، فانما يتحتم عليه الانطلاق من الواقع التاريخى نفسه لهذه الشخصية ووقائع حياتها فهو لم يغفل هذ الجانب الهام وهو التاريخ بل قدم مايتصل منه بهذا الواقع الذى يريد تصويره .

يبدأ القصة من أولها ، يبدأ بعبد المطلب وقصة حفر زمزم والنذر والفداء وعبد الله وآمنة . وصور أليمن وأحداثه . وأنتشار اليهودية به ووقائع تاريخ تبع ملك أليمن وأولاده واستقرار اليهودية كدين لليمن.

ويعرض لنا صفحات تاريخية من صراع المسيحية ووثنية الامبراطورية الرومانية وأنتشار المسيحية واستقرارها فى بلاد العرب ؟ فأصبح فى بلاد العرب ديانتان فنشأ الصراع بينهما . اليهودية ويمثلها اليمن وعليه عظيم من نسل تبع ، والنصرانية ممثلة فى نجران . وكان لابد أن تتسع حلبة الصراع فتضم ثلاثة بدلا من اثنين فيتضح الصراع بين المسيحية من جهة واليهودية

(١) على هامش السيرة : «طه حسين» المقدمة

الوثنية من جهة أخرى . ويخرج ملك الحبشة النصرانى بجيش عظيم لتأديب ذلك الملك العربى اليهودى الذى عذب النصارى . وحرقهم . ويعطى المؤلف للشخصيات دورها التاريخى فيظهر عبد المطلب فى أحداث هدم الكعبة إذ يقول قولته المشهورة رداً على الملك النصرانى الذى تعجب من أمر عبد المطلب حين طالبه بإبله التى أستولى عليها جيشه فقال له الملك : « لقد أعظمتك حين رأيتك ، فانى لأصغر من شأنك لقد كنت أظن أنك ستحدثنى عن بيتك هذا الذى أريد أن أهدمه فاذا أنت تحدثنى عن مائتين من الأبل . فقال سيد قريش : أنا رب الأبل فلا أحدثك فيها ، فأما البيت فان له ربا سيمنعه » (١)

وبهذه الواقعة التى تستند إلى التاريخ يظهر لنا ما كان من شأن الكعبة وما سيكون لهـا من شأن . ومن وقائع التاريخ يقص قصة ميلاد « محمد » ونشأته يتيما ، وحاضنته ومرضعته . ويمزج الحقيقة بالخيال أو يمزج حديث الحقيقة بهذه الأحاديث التى يقول عنها فى المقدمة انها تقدم إلى القلب والشعور لأناس يرغبون فيهـا ويلتمسون عندهـا الترفيه عن النفس حين تشق عليهم الحياة ... على لسان رجل من الظاهر : « إنى لفى بعض الطريق وقد سكن من حولي كل شىء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتى وإنى لأسمع قائلا يقول : « انظروا إلى السماء فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل . أن نجومهـا لتتألق فى قوة لم نرها قط . انها لتدنو من الأرض حتى أن نارهـا لتوشك أن تحرقنا . أن للغيب لعجباً . وأن فى الأرض لحدثا . وإنى لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى فيبهرنى ما أسمع ويسحرنى ما أرى ولكنى أحس أصواتا أخرى كأنها تهيب

(١) على هامش السيرة : « طه حسين » ص ١٥٤ ج ١

بأهل تلك الأصوات التى كنت أسمعها النجاء النجاء . آنا لنتسامع من أطراف الأرض بأن حدثا قد حدث . وبأن كائنا قد كان . آنا لنتسامع بأن ايوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض فسقطت شرفاته وتهدم بنيانه . وإذا أصوات أخرى تصيح : انا لنتسامع بأن نار الفرس قد خبت فجأة لأول مرة منذ ألف سنة . وإذا أصوات أخرى تصيح : انا لنتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفت وإذا هذه الأصوات كلها تمــلأ الأرض . النجاء النجاء أن للسماء لخبرا وأن الأرض لتستقبل يوما لم تستقبله من قبل » . (¹)

وهكذا يخلط أو يمزج بين أحاديث الحقيقة والتاريخ وأحاديث القلب والوجـدان .

وفى الجزء الثانى يصف لنا حكم قيصر . وذلك الضيق الذى كان يستولى على النفوس من طغيان . وذلك الطغيان الذى كان يتخذ لنفسه صورة حماية الدين المسيحى ، والناس تعلم أن هذا ليس من المسيحية فى شىء . وبعض النفوس الصافية تشعر بأن هناك أملا مرتقبا يزول بمقدمه هذا الظلام . يقول الراهب رداً على صديقه الذى قال له : أنت اذن تنكر دين قيصر والمسيح .

فيقول : أنكر دين قيصر ما فى ذلك شك ولكن دين المسيح شىء ودين قيصر شيء آخر . وما لجأت إلي الدير إلا لأفر من قيصر وأشباه قيصر للمسيح ، بل للمسيح ولانتظار ما سيتكشف عنه الدهر بعد قليل . فيسأله محاوره فسيتكشف الدهر عن شيء بعدقليل . إذا ؟ فيقول : ما أشك في ذلك يابنى فقد تحدثت به الكتب وكان الناس يضمرون انتظاره فيما بينهم وبـين

---

(١) على هامش السيرة : « طه حسين » ص ١٦١ جـ ١

أنفسهم ثم أخـذت الآن بوادره تبتدر . وأخذت الآيات تتحدث إلى من يفهم عنها بأن مقدمه قريب » . (١)

ويفيض المؤلف عن تلك الفترة التي سبقت ظهور النبي فيصورها بكل ما كان فيهـا من تهيئة في الواقع وفي النفوس لانتظار الحدث العظيم . بل انه ليصور الواقع أصدق تصوير ليعطينا الشعور بحتمية ظهور ذلك الشيء الجديد . فالنفوس ظامئة إلى الحق والمعرفة . واليأس يغمر الحياة . والضيق بكل شيء . والطموح إلى المثل الأعلى . كل هذا جعل الناس تشعر انهـا على موعد مع شيء جديد لايعرفون كنهه وماهيته .

ويطيل الكاتب في وصف تلك الفترة ... التي هي فترة الانتظار ويأتي بأكثر من حكاية وقصة يبرهن بهـا كلها على الاحساس بقرب ظهور النبي الجديد . وما كان ذلك الاحساس ليستولى إلا على تلك النفوس التي أراد الله لهـا أن تطهرها الحقيقة فتهدى إليهـا قبساً من نور . فمنهم من يفر من الغنى والسلطة والجاه تحت حكم قيصر ويلتمس الحكمة والعلم عند الرهبان والأحبار . ومن هؤلاء جماعة من الرهبان تفتحت قلوبهم بنور الايمان بما ذكرته كتبهم المقدسة ومنهم من هام في الصحراء يرجو أن يدنو من هذه الأرض العربية التي يعرف انها ستكون مهبطاً للوحي المنتظر ومنهم من تقبل الأسر والرق ليظل في تلك البلاد مترقباً شهود صاحب الرسالة وكلهم مجمعون على أن هناك أملا مرتقباً . ورجاء سيتحقق . يقول الراهب « بحيرى » لزميله : كنت أحدثك بمـا أسمع من الأعاجيب فكنت تقول وكنت أقول معك كما يقول هؤلاء الناس أن

---

(١) على هامش السيرة : « طه حسين » ص ٥١ ج ٢

لهذا كله شأنا . . ولكنك كنت لا تعلم هـذا الشأن ولكنى أنا كنت أعلم هذا الشأن لأننا نجده عندنا مكتوبا فى الكتب ولأننا نجد علمه عنـدنا موروثا عن الأحبار والرهبان . (١)

ويدور بنا مع الأحاديث التى تروى حول ذلك الفتى الذى تظاهرت أنباء الأحبار والرهبان وأخبار الكتب والنبوات على أنه النبى الذى بشر به .

ويخرج بنا من كل هـذا إلى الحجاز . . ليعرض لنـا أيضا حشدا من الأشخاص نلمس من خـلالهم حال تلك البلاد كما لمسنا من قبـل حال البـلاد والناس تحت حكم قيصر ، فنرى نفوسا قد تهيأت أيضا لاستقبال هذا الأمر . فمنهم من يستنكر عبادة الأوثان ، ومنهم من يسأل عن دين ابراهيم ، يسألون اليهود فيعرضون عليهم ما عندهم فلا يرضونه ولا يطمئنون إليـه . فيسألون رهبان النصارى وأحبارهم فتطمئن قلوب إلى النصرانية وتحجم قلوب . ويمضى بعضهم ولم يعجبه أمر النصارى كما لم يعجبه أمر النصارى كما لم يعجبـه أمر اليهود . ويسأل « زيد ابن عمر » راهبا فذا لا يعايش أحدا عن دين ابراهيم فيخبره أن دين ابراهيم ليس فى بلاد الروم ، ولكنه سيهبط على بلاد العرب.

ثم هو مع الفتى المرموق يرقبه من بعيد . لا يقترب منه إلا قليلا ، ويروى طرفا من سيرته فى الحياة وفى قومه فيروى ما يؤيده الواقع التاريخى من حيث منشأة والطباع والتسمية بالأمين وعمله بالتجارة وزواجه من « خديجة » . وهو ملتزم أشـد الألتزام بذلك الواقع التـاريخى الذى أتت به الكتب .

(١) على هامش السيرة : « طه حسين » ص ٧٢ جـ ٢

فيقول فى ذلك : « وأحب أن يعلم الناس أيضا أنى وسعت على نفسى فى القصص ومنحتها من الحرية فى رواية الاخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا إلا حين تتصل الاحاديث والاخبار بشخص النبى أو بنحو من أنحاء الدين فأنى لم أبح لنفسى حرية ولا سعة وانما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السير والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين . [1]

ومع حديث الحقيقة هذا يغمرنا بنوع من تلك الاحاديث التى تمس القلب عما كان يحيط الرسول من مظاهر التكريم الالهى ووقع تلك المظاهر من بعض النفوس الكريمة التى أنزل عليها الهداية . فالله يظهر من آياته ما يشاء لمن يشاء .

ويعرض لتلك العادات الجديدة التى أتبعها « محمد » مما لفت اليه الانظار . مثل الافاضة فى الحج ، وذلك التميز الذى خصه بة الله حتى ارتضاه قومه حكما يوم وضع الحجر الأسود . كل هذا وهو يدور فى الاطار الخارجى حول النبى عليه السلام .

ويلجأ إلى الحوار كثيرا كمعين له على التقدم بمسار الاحداث « الكاتب يقدم الموقف أحيانا من خلال حوار قصص طويل بمعنى أنه حوار يقص ولايناقش ومن هنا أستند « طه حسين » إلى مخيلته ليصور الموقف بتفصيلات لم يرد بعضها فى كتب السيرة ولكنها تستند إلى أساس تاريخى . [2] »

وقد أرتضى من قبل الشخوص هاديا ودليلا لها . فمثلا نعرف خبر بداية الوحى من رسالة يكتبها ,, نسطاط ،، صاحب بيت الخمر واللهو

---

(١) على هامش السيرة : ,, طه حسين ،، المقدمة

(٢) السيرة تاريخ وفن : ,, ماهر حسن فهمى ،، ص ١٤٠

إلى قومه الذين ينتظرون منه أخبار البعثة . تلك الرساله التي يمليها علية ورقة بن نوفل ، الذي كان يعرف حقيقة أمره وأنه يتخذ هذه التجاره ستارا له

ولا يزال هكذا يمزج بين الحقيقة والخيال متبعا ذلك المنهج الذي رسمه في مقدمته. لكنه يغرق أحيانا في الخيال . مثل ذلك الموقف الذي وصفة في نهاية الجزء الثاني واختار له اسم (نادي الشياطين) كذلك ما كان من أمر «عمر بن هشام» وشيطانه الذي تصوره المؤلف يعقد حلفا معه . يقول الشيطان : « سأكون صديقك وحليفك إلى آخر الدهر . وستحمد مغبة هـذه الصداقه وعواقب هـذا الحلف » . (1)

ومن الواقع التاريخي يشير إلى الهجرة والغزوات في اشارات سريعة ، وحين يريد أن يظهر مواقف معينة يتوقف ليروى من الأحداث الحقيقة . حدث استشهاد «حمزة» ، وغضب الرسول ووعيده بأن يمثل بقريش ، ونزول الآية الكريمة : «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وماصبرك الا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . (2)

ومن هنا نتبين أن « طـــه حسين » يجمع بين التاريخ والسيرة في هـذا الكتاب ، لم يغلّب أي العنصرين على الآخر . « لقد أباح طـه حسين لنفسه مايبيحه منهج السيرة حتى يعتمد إلى المادة التاريخية فيحيلها إلى تشكيل جديد في صورة حوار وهو لم يخرج عن حدود فن السيرة الا في ملء الثغرات »(3)

---

(1) السيرة تاريخ وفن : «ماهر حسن فهمي» ص ١٤٠

(2) سورة النحل : آية ١٢٦

(3) على هامش السيرة : « طه حسين » ص ٦٣ ج ٣

ونرى أنه قد خالف كتّاب التاريخ في شيء وخالف كتّاب السيرة في شيء آخر . ابتعد عن كتّاب التاريخ حين أعطى الأهمية الأولى للأشخاص ، وكتّاب التاريخ تعنيهم الأحداث بالدرجة الأولى ولايتحدثون كثيراً عن هؤلاء الأشخاص الذين صنعوا التاريخ الا باعتبارهم فاعلين للأحداث .

وكتّاب السير يركزون على البطل ولا يولون الاشخاص المحيطين به عناية الا بالقدر الذى يكشف ملامحه . و « طه حسين » اعتنى بأولئك الأشخاص عناية كبيرة بل جعلهم معبرا للوصول إلى البطل .

ونتساءل . . أحين أختار الكاتب عنوان « على هامش السيرة» اراد أن يقنعنا حقيقة انه لايكتب سيرة كاملة للرسول ؟ أتراه تعمد ذلك حتى نغفر له بعض نقط النقص التي احتواها المؤلف ؟

(١) فهو من خلال ثلاثة أجزاء لم يعرّفنا بمحمد (النبي صلى الله عليه وسلم) بل أننا لم نكد نلمسه أو نتعرفه إلا من خلال الشخصيات الثانوية فلماذ لم يصور شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) بأبعادها ولم يصور لنا صراعات نفسه ، أو معاناتة الشخصية ، لم توقف على هـذا البعد من النبي ، وأين التصوير لذلك الصمود البطل فى وجه القوى المعادية ؟ وأين معالم حياته الخاصة ؟.

كان عليه أن يقترب بنا من شخص النبي حتى ولو لم يرد كتابة سيرة كاملة . كان عليه الا يضرب بنا هذا الوقت كله فى الصحراء بين كل هؤلاء الناس فقط ليعطينا وصفا من أوصاف محمد ، أو ليصور لنا أنتظار الناس للنبي . ماذا عليه لوقص جانبا من حياة الرسول الشخصية بهذه الطريقة نفسها التي

تمس القلوب ، للأسف لم تر « محمدا » إلا صوره من بعيد . صورة يقوم دوننا ودونها كل هذه الشخوص التى وضعها المؤلف بيننا وبينه :

ومن المآخذ أيضا عدم العدالة فى توزيع الاهتمام ، فبينما هو قد أطال وأطال فى بعض الأجزاء نراه قد أوجز كل الإيجاز فى أجزاء أخرى برغم أهميتها .

وعلى سبيل المثال فقد أطال إلى حد ما فى ذلك الجـــزء الخاص بظهور الدلائل التى تبشر بقرب وجود النبي والتنبوء بهبوط وحى من السماء . أطال وأعطى للعرض مناخه الطبيعى من صحراء ورهبان وصبر وتعبد وانتظار . فعل هذا ولا جناح عليه . ولكن لماذا أعاد فأوجز كل الايجاز بعـــد الجهر بالدعوه ؟ فما كاد ينبئنا بحلول وقت الجهر بالدعوه حتى أسرع فى إشارته أشارات خاطفة إلى الهجرة مارا بالغزوات مررا سريعا . ولقد أحدثت هذه السرعة عدم توازن فى المؤلف نفسة .

ومن الأشياء التى لم أرض عنها أن المؤلف لم يطلعنا على أمر البعثة الا ونحن فى نادى الشياطين . هذا الذى ختم به الجزء الثانى . وغريب منه ألا يختار لهذا الخبر الالهى مكانا الا وسط الشياطين !! : « فبعد مناقشات بين أبليس وأعوانه من الشياطين يسألونه ماذا تريدنا أن نفعل ؟ يقول أبليس : سنرى ولكنه لم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى صعق وصعقت معه الشياطين من حوله وانجابت الظلمة وأشرقت الأرض بنور عظيم وصل بينها وبين السماء ولصق الشياطين بأديم الارض كأنهم ذرات تراب وامتلأت أقطار الجو بصوت مهيب لكنه عذب : « الا أن الكتاب قد بلغ أجله إلا أن « أحمد » قد نبىء منذ الليلة » . (١)

(١) على هامش السيرة : «طه حسين »٢٣١ج٢

وكم يكون جميلا لو أن هذا الصوت تردد بعد مشهد روحي من هذه المشاهد التي حفل بها الكتاب لامن خلال مشهد يضم شياطين . كم كان جميلا لو أنه أسمعنا هذا الصوت ونحن هناك في الصحراء الممتدة نرقب النجوم المتلألئة التي تقرب من الأرض حتى تكاد تلثمها وحيث يمتد الصوت العريض بامتداد الصحراء العريضه . هناك في الفضاء حيث تسمع حبات الرمل هذا الصوت فتستجيب ، ألا يكون هـذا أجمـل وقعا منه ونحن نسمع هذا الخـبر بين الشياطين ؟

ومن المآخـذ التي آخذها على المؤلف ، أنه قد ركز كل القوى المناوئة « لمحمد » في شخصية واحدة هي شخصية أبي جهل ، ألم يكن هناك معارضة « لمحمد » الا من جانب عمرو بن هشام ؟ ان هذا ليضعف من صوره المعارضه وهو يختزلها في شخص واحد ، ألم تعارضه أمة بأسـرها في بادىء الأمر ألم يتآمر عليه القوم جميعهم ، خاصة سادتهم وأغنياءهم ، ألم يقاس ويعان؟ أليس هو القائل بعد ما رأى من عنف المقاومة : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس . ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أو إلى عـدو ملكته أمري ، أن لم يك بك علي غضب فلا أبالي » أكل هذا من أجل عداوة واحدة هي عداوة أبي جهل وشيطانه الكريه ؟؟

....

وبعد فان الكتاب بعد ما قدمنا لايدخل في نوع السيرة . أنما هو مؤلف جمع فيه صاحبه مجموعة من النقول عن القديم ، وزودها ببعض الأحاديث والأساطير التي يدفعها الوجد الديني، وصاغ كل هذا بطريقة روائية تنقل

القارىء إلى جو القصص والروايات. وبذلك نستطيع أن نقول أنه لم يتخذ في هذا الكتاب صلة المؤرخ الخاصة وأن حاول أن يجلو به صفحات عن تلك الفترة الحرجة التي سبقت ظهور الإسلام . فهو قد كتب عن تلك الفترة لا بمنطق التاريخ وحده ولكن بمنطق الأديب الفنان. فقد كتب نوعا من الأدب الاسطوري الجميل وأتخذ لنفسه صفة المؤرخ القـاص . وهو نفسه قال في حديث له في إحدى وسائل الاعلام : هامش السيرة عمل أدبي ليست تاريخا وأن رجعت فيها إلى نصوص التاريخ .

ولكن لنتوقف قليلا عند لحظة الخلق الفني .. حين كتب « طه حسين » علي هامش السيرة ،أ كانت هروبا من واقع كريه كان محيطا به ؟ أهذا التمزق واليأس والضلال الذي كان في مجتمع ماقبل محمد كان أيضا علامة من علامات مجتمعه في ذلك الوقت ؟ أهذا الانتظار والرجاء والتمني بظهور المخلص كان واقعا حيا يعيشه ؟ أكانت هذه النفوس التي تهفو إلي المثل وهذه الأروح التي التي تبحث عن الملاذ ..نفسه ونفوس من حوله ؟

أم ياترى كان هذا صدى تجربة نفسية له عاناها وعاشها فكان رد الفعل لها هذا الكتاب؟ ربمـا كانت هناك تجربة روحية عاشها بكل قلقها وهمومهـا وعناه الروح التواقه أبدا إلى الأيمـان .

ولعل أكثر ما قوى هذا الخاطر عندي أنه قد أعتمد أسلوب الحوار في معظم أجزاء كتابه، ويبدو أحيانا وكأنه يحاور نفسه... كأنه يناجي النفس.

ولعل كل فسواء كان هذا الغرض الأول أو الثـاني أو كـلا الاثنين ما فالـكتاب يرضي العقل ويرضى القلب . وهـو صـورة من اللجوء النفسي إلى الله . وصورة لحاجة الانسان الدائمـة إلي الأيمـان .

....

الوعـــد الحق :

يعتبر كتاب « الوعـد الحق » تكملة لكتاب« على هامش السيرة » فاذا كان ذاك الكتاب السابق قد جلا ملامح الصورة لمجتمع ماقبل الاسلام فإن « الوعد الحق » قد جلا بدوره معالم صورة مجتمع فجر الاسلام . أو هو تتمة مباشرة للحديث الذى انقطع بنهاية« على هامش السيرة » . فهووان كان قد أختلف منه باهتمامه بابراز معـالم تلك الفترة إلا أنه أيضا يرتكز أكثر ما يرتكز على الركيزة الاجتماعية الانسانية . يعتنى بالتاريخ كما هو الحـال فى « على هامش السيرة » لكنه يعتنى أكثر بالإنسان هناك كانت العناية الكبرى للأحداث وان كانت تروى من خلال انسان فكان دور الإنسان ليس أكثرمن موصل أو وسيلة . ولكن فى الوعد الحق برز الإنسان بصورته الانسانية . الانسان الاجتماعى بآلامه وصبره وإيمانه ومعاناته وفدائه . . وأيضا بحقده وعناده ومكابرته وجحوده .: « كتاب الوعد الحق يكمل على هامش السيرة ويسيرفى النهج ذاته وإلى الغاية ذاتها ففيه يظهر «طه حسين» «الجانب الأنسانى والاجتماعى فى الاسـلام والمساواة التـامة لـكل أبنـاء البشر أمام الله . » (١)

... ...

تتبع قصة نفر من ذلك الرعيل الأول فى الاسلام بدأها ببداية كل واحـد منهم وانتهى بنهايته مبرزا تلك الدوافع التى ميزت هـؤلاء البشر عن غـيرهم . فهذه النفوس التى يعرف الايمان طريقه أليها فيلمؤها وتتحمل فى سبيله كل ما تحملته من عذاب وهوان ، ومع ذلك يبقى ذلك الايمـان متعمقا فيها بكل هذه القوة،لاشك أنهـا نفوس متميزة.

(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه : «كمال قلته» ص ١٨٠

يقول « طه حسين » فى الحديث نفسه الذى أشرنا إليه سابقا .
« فى الوعد الحق ، أبدأ بالخيال وأنتهى إلى التاريخ فى كل قصص الأشخاص خيال ينتهى حين يسلم الشخص فأسلمه إلى التاريخ » .

فنحن مع ,, ياسر بن عامر ,, وهو ضيف على أبى حذيفة ثم وهو حليف له . ونحن معه وقد تزوج سمية أمة أبى حذيفة السوداء . نعرف ياسرا وفى نفسه نفور من الآلهة الأصنام ونعرفه وهو يكبر الكعبة ويطوف بها . نحن معه ومع التاريخ فى مكه لنرى ما يجرى فيها من الأحداث ,, وتبلغ المسجد حتى نرى أندية قريش هائجة مائجة تتحدث عن ,, محمد ,, وعن دعوته وعن من تبعه المستضعفين والرقيق وقد تذكر دار ,, الأرقم ,, بن أبى الأرقم التى اتخذها ,, محمد ,, لنفسه ولصحبه ناديا ينشر منه دعوته هذه الرائعة المروعة ,, [1].

نحن معه وابنه ,, عمار ,, يبشره بالإسلام ويطلب منه أن يسلم لله الذى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم وأرسل ,, محمدا ,, ليخرجهم من الظلمات إلى النور . ونحن معه أيضا وهو يقول لعمار متى تصحبنا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ فيقول عمار هلم الآن ان شئتما .

ونرى أباجهل وهو يضع هذه الجماعة الطيبة فى الحديد ويشعل النار فى دار ياسر . ونحن معهم وهم يضربون فى الوجوه حتى تدمى . وهم يحرقون جنوبهم وصدورهم بمكاوى النار وتوضع على صدورهم الحجارة الثقال. نراهم فى هذا العذاب وهم يأبون أن يذكروا محمدا بسوء وهذا أبوجهل يقول لسمية تعلمين أنك لن ترى مساء هذا اليوم الا أن تنكرى بمحمد وربه .

---
(١) الوعد الحق : ,, طه حسين ,, ص ٢٠ دار المعارف سنة ١٩٦٢

فتجيبه سمية : أن بؤسا لك ولآلهتك فيطعنها بحربة فتكـون أول شهيدة فى الاسلام . ويلحقها ياسر فى الشهادة ويتدخل القوم حتى يطلق أبو جهل عمارا ليوارى والديه . ولكن أبا جهل لم يترك عمارا وشأنه كان يعذبه كلما أحس شوقا إلى أن يشهد مشهد عذاب .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة إلاحين أذن الله للمسلمين فى الهجرة إلى أرض الحبشة ثم هاجرا إلى المدينة فعاش مع رسول الله آمنا سالما وكان الرسول يقول له دائما : ويحك ابن سمية ، تقتلك الفئة الباغية » وأستشهد «عمار بن ياسر »فى حروب الردة وقتلته الفئة الباغية .

ونحن مع « صهيب » ... ذلك الفتى الرومى غـلام « عبد الله بن جدعان » الذى يتاجر له فى ماله والذى عـلم منذ آخر الصبا وأول الشباب أن له فى هذه القرية أربا أى أرب . ويطلقه ابن جدعان لكنه يظل يتاجر له طيلة أيام شبابه وحين تتحدث قريش عن دار ابن الأرقم ومن كان يجتمع فيها من الناس حول « محمد » أحسن صهيب بأن أربه هـذا قد تحقق وألحقه أبو جهل بآل ياسر فى العزاب . ويخرج الرسول مهاجر إلى المـدينة فيلحق به « صهيب » بعد أن اشترى نفسه من قريش بماله أجمع . وعاش بعدها ماعاش خير مثل للمسلم . وحين يطعن « عمر » يأمر أن تكون صلاة المسلمين إلى « صهيب » حتى يختار أهل الشورى للمسلمين أماما . ويتقدم المسلمين ليصـلى على عمر نفسه . بعد وفاته وكان بعض شباب قريش يتحدثون : ألم تروا إلى عمر يقدم هذا الرومى ليصلى بالمهاجرين والأنصار وقد كان عبد الرجل من قريش ، ولكنه الاسلام لا يفرق بين عبد وسيد .

ونحن نرى « رياح » وقد تزوج الأميرة الحبشية التى أرادها له خيال الكاتب . تلك الأميره الأسيرة . وقد أعتقه سيده ولكن أميرته قد بقيت فى الأسر وماتلد سيكون رقيقا . وتولد لهما « بلال » بين أغلال الرق . ويرى « بلال » أضواء الصبح فتمتلىء نفسه نورا ... ويراه أيضا شخص آخر هو « أميه ،، إبن سيدة فيمتلىء قلبه ظلمة . وآل أمر ,, بلال ،، إلي أن أصبح من أحب الناس إلى النبي وآثرهم عنده . وآل أمر . ,, أمية ،، إلى أن أصبح من أبغض الناس إلى النبي حتى قتل يوم بدر .

ويتولى أمية تعذيب ,, بلال ,, عله ينكر ,, محمدا ،، أو دينه فلا يسمع منه سوى كلمة : أحد ... . واشتراه . ,,أبو بكر ،، ليخلصه من العذاب ثم اطلقه حرا . وكان أول من أذن فى الاسلام وكان النبي يحبه أشد الحب ويكبر من شأنه ويريد له أن يكبر الناس من شأنه . وأمره الرسول أن يصعد على ظهر الكعبة يوم الفتح فيؤدن للصلاة . فبعد أن قضى الرسول انصرف بلال إلى الشام فرابط فيها غازيا عملا بقول رسول الله : أن أفضل عمل العبد جهاده فى سبيل الله .

نحن مع ,, أم أنمار ,, وغلامها ,, حباب بن الأرت ،، ذلك الغلام المسكين الذى رق له قلب العجوز فاشترته رحمة به وانقاذا له من أيدى السادة الغلاظ وسارت معه بسورة الأم مع ابنها وعاش الغلام لايشعر بثقل الرق ... ولكنه أيضا لايذوق حلاوة الحرية ويسمع يوما من بعض رفاقه بعض آية من القرآن فتشجع نفسه ويسرع إلى ,,محمد،، يعلن اسلامه . ويقبل أبو جهل ذات صباح على نادى قومه فى المسجد وهو يضحك : يامعشر قريش اغدوا أن شئتم على

منظر عجيب أن ابن الحاتنة قد صبأ وانا محرقوه بالنار ،، .(١)

ولم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله ,, بدرا وأحدا ،، و ,, الخندق ،، والغزوات . لكن لم يكتف بذلك ورأى أن يجاهـد فى سبيل الله فذهب إلى العراق مشاركا الغزاة المجاهدين . ولم يمنعه المرض فى آخر أيامه من أن يكون معلما ناصحا للمسلمين .

وهذا ,, عبد الله بن مسعود ،، يرعى الغنم ويلقى النبى . ولكنه لايعرفه . ويرى النبى وهو يجرى اللبن من ضرع الشاة الصغيرة التى لم تدر لبنا بعد ويشرب منه ليروى ظمأة ومن يومها يذهل الفتى عن نفسه ويسعى فى الأرض حتى يجدا ,, محمدا ،، رسول الله وعرف أنه خلق ليلزم محمدا هذا الأمين وفى مشادة بينه وبين أبى جهل يلطم أبا جهل على وجهه ويعرف ألا مقام له بمكة منذ ذلك اليوم . فيخرج بالهجرة .

ويهاجر إلى المدينة فيكون ألزم الناس للنبى فى حياته العامة والخاصة. وبعد وفاة النبى . يخرج غازيا إلى الشام ويقيم فى حمص . لكنه يموت بالكوفة .

ونشهد ,, بثينه ،، وهى تشترى الغلام الصغير الضعيف من التاجر اليهودى وتنشئه وتربيه كأحسن مايكون . ويتسامع بها الناس فيخطبها أبو حذيفة ويحضرها هى وفتاها ,, سالم ،، إلى مـكة التى كان ينكر من أمرها كثيرا . ويناقش ,, عثمان بن عفان ،، فى الأمر فيدله على ,, محمـد ،، فيسلم على الفور ويعود باسلامه إلى ثبيته وسالم فيتبعانه سعيدين . وتأتى تعاليم محمـد باعتاق الرقيق . فتطلق ثبيته سالما ويتخذه أبو حذيفه ابنا له .

---

(١) الوعد الحق : « طه حسين » ص ٨٠

فلما كانت الهجره ، وكان القوم ينتظرون الرسول بالمدينة كانوا يقدمون سالم بن أبى حذيفة ليؤمهم في الصلاة لأنه أقرؤهم القرآن وأحفظهم عن النبى ولم يغنى أحد بأنه كان عبدا بالأمس فالاسلام قد سوى بين الناس.

واستشهد أبو حـذيفة وابن سالم فى حروب الردة وهما ثابتان فى مكانهما بعد أن انكشف المسلمون فى الموقعة فكان ثباتهما مثلا .

ونسمع قصة اسلام عبد الله بن سهيل ، حتى يشارك فى الهجرة إلى أرض الحبشة ثم يعود مـع من يعودون فيقبض عليه أبوه « سهيل » ويذيقه ألوانا من العذاب وفتنة فى دينه حتى ظن أنه قـــد عاد إلى دين آبائه وآثر قريشا على محمد .

ويـوم بدر ينظر الناس فإذا فتى من أقوى شباب قريش وأنضرهم يخرج من بين صفوفها وينحاز إلى محمد . ولم يكن هـذا إلا « عبد الله بن سهيل بن عمرو » خـدع المشركين عن أنفسهم ويزحف مع المسلمين لقتـال قريش وفيها أبوه . ويستشهد في حروب الردة فى نفس الموقعة التى استشهد فيها عمار ، وأبو حذيفة ، وسالم ، بعد أن ثبتوا جميعا للمرتدين .

ويتحدث المؤلف عن الجانب المضاد فيجسم أمامنا قوى الشر متمثله فى « أبى جهل » وغيره من أشراف قريش الذين عمدوا إلي تعذيب هؤلاء المستضعفين والذين نشروا فى البلد الحرام الآمن نذر الفتنة والعذاب . ذلك العذاب الذى غالى فيه بعضهم حتى أن أبا جهل ليقول : « انى لاأحب لعدوى أن يموت لأن ذلك يريحه ويكف عنه بأسى ويرد على قلبي مافيه من الغل , وانما أحب له أن

يحيا لأذيقه البأس مجدداً ولأجرعه غصص العذاب شيئا بعد شيء »(١) .

بكل هذا الحقد وبكل هذا الشر كان يلقى المشركون أتباع محمد . فيصبون عليهم العذاب ، ذلك العذاب الذى كان بعـض شباب قريش يرون فيه تسلية جديدة لهم فتستسلم له غرائزهم الشريرة الكامنة .

وتمضى أيام قريش وأيام المستضعفين من المسلمين على هذا النحو والأيام والسنين تمر . ويوضح لناالمؤلف أن قوى الشر هذه لم تكن تستهدف إلا الأرقاء والحلفاء إذ لامنعة لهم ولاعصبية لأنهم كم مهمل لا يلتفت إليهم أحـد « حتى كان يوم أكره التاريخ فيه على أن يلتفت إلى الدهماء أكثر مما يلتفت إلى السادة والقادة » (٢) .

وهكذا صور ،، طه حسين ،، تلك الفترة الزمنية لفجر الإسلام عرض فيها لسيرة بعـض الناس من الرعيل الأول الإسلامى . لكنه لم يستهدف السـيرة الشخصية فى حد ذاتها . انما اتخذ ما اتخذه من خيال وحقيقة وسيلة للنفاذ إلى طبيعة تلك الحقبة التاريخية ليصور أحداثها ووقائعها وطبيعتها .

جعلها فى ذلك الثوب الاجتماعى الانسانى مرتكزا على الحقيقة التاريخية لذلك الوقت من الزمان لجأ إلى استعراض حياة هؤلاء الناس ليدل على نوع الحياة فى تلك الفترة ، حتى عن الجزء الذى قال عنه أنه خيال فإنه لم يكن خيالا خالصا لكنه خيال مشتق من الوقائع ، فكل هذه الوقائع التى ذكرها من شراء الفتيان والرق والأسر والجيش الحبشي الذى عاد منهزما والتجارة والرعى كل

---

(١) الوعد الحق : ،، طه حسين ،، ص ١٢٦

(٢) الوعد الحق : ،، طه حسين ،، ص ١٦

ذلك شيء واقع فهو لم يبدع الخيال تماما لكنه استعمل قدرته القصصية في تأليف مجموعة قصصية تأخذ من الواقع وتتلاءم معه. وقد لجأ إلى ذلك العنصر عنصر الخيال ليتم به التاريخ المعروف عن حياة هؤلاء الناس مرتكزا على ركيزة الحياة الاجتماعية الانسانية لتلك الفترة .

ولم ينس تصوير ذلك الجانب العقائدي في الحياة هذه الجماعه فقد تكلمنا عن قوى الشر التي جسدها المؤلف في الكتاب لكنه أيضا أظهر سماحة هذه العقيدة التي يموت أصحابها بها دونها . فالإسلام جاء بالحرية للانسان، فألغى الرق ولم يفرق بعد ذلك بين من كان رقيقا ومن كان حرا . فهذا ,,بلال،، العبد الأسود يؤذن للصلاة ويصبح من خاصة الرسول وهذا هو سالم يوم المؤمنين في الصلاة ومنهم أشراف المسلمين من الأوس والخزرج وهناك من هو من أصل رومي أو فارسي وقد قربهم الاسلام من الرسول والمسلمين فلم يعد لغيرهم عليهم فضل فلا فرق بين عربي أو أعجمي . ألغيت الفروق وأزيلت العصبيات بين الناس تلك هي السماحة والتساوي في الاسلام . وقد أبرز المـــؤلف هذه المشاعر الجديدة التي غمرت ذلك المجتمع القبلي الذي قام قبلا على التنافس والتحاسـد والتفاخر فكان جميلا منه أن يشعرنا بذلك بطريقة غير مباشرة في سياق ذلك الأسلوب القصصي .

ومن الجوانب الانسانية أظهر أن العاطفة الرقيقة كانت تعمر بعض القلوب هذه القلوب التي أراد الله لها الهداية بعد ذلك ، فهذه ترحم صبيا صغيرا فتعد دريهماتها لتشتريه . وهذا سيد يعتق عبده ويتبناه . وهذا يحالف ذاك ويسانده إلى غير ذلك من العواطف الانسانية التي جمعت بين الناس .

ومن المشاهد الانسانية الرائعة مشهد الرسول الكريم وهو يواسى المعذبين والمضطهدين فيكون في مواساته لهم أكبر العزاء . وهذا أبو بكر يضحى بما له ويشترى بلال العبد الأسود لينقذه من العذاب ثم يطلقه بعد ذلك وهؤلاء المسلمون يتحملون من العذاب فوق طاقاتهم وهم صامدون لا يتزعزع ايمانهم . لمحات انسانية خالدة عمد المؤلف إلي ابرازها وتوضيحها . فجاء مؤلفه سجلا لفترة تاريخية بجوانبها الاجتماعية والانسانيه .

وبهذا يمكن القول أن على هامش السيرة والوعد الحق تسجيل تاريخى قصصى لفترتى ماقبل الإسلام وبدء ظهوره .

٭ ٭ ٭

الفصل الثاني

الشيخان

وإذ كتب « طه حسين » « الشيخان » يعتذر للقارىء عن أنه قد قصر، فى حق الشيخين بعدم الكتابه عنهما من قبل ، رغم حبه الشديد واجلاله لها . وهو بهذا الحديث عنهما يريد . كما أتصور . ابراز شخصية الشيخين الجليلين ونهجهما فى الحكم ذلك النهج الذى ترك آثارا جمة فيما يستقبل من الزمان بعدهما أكثر من أن يكتب سيرتهما الشخصية .

يقول : « أنا لا أملى هذا الحديث لأثنى على الشيخين . لا لأفعل تاريخ الفتوح فى عمرهما ، أنما أريد إلى شىء آخر مخالف لهذا أشد الخلاف . أريد أن أعرف وأن أبين لقارىء هذا الحديث شخصية « أبو يكر » و «عمر» رحمهما الله كما يصورها ما نعرف من سيرتهما وكما تصورها الاحداث . فسيرة هذين الإمامين قد نهجت للمسلمين فى سياسة الحكم هذا النهج الذى نهجه الشيخان والذى قصر عنه بعدهما الخلفاء والملوك هو الذى أريد أن اعرفه وأجلوه لقارىء هذا الحديث واستخلص منه بعد ذلك شخصية أبى بكر وعمر رحمهما الله ›› . (١)

المؤلف يقول أنه لم يقصد بهذا الحديث الثنـاء على الشيخين . ويقول : « چورجيود يلافيدا » : وليس ثمة شك فى أن ماذكره « طه حسين » عند تقديمه شخصيتى « أبو بكر » و « عمر » وقد جعل منهما شخصيتين مثاليتين إذ تبدو سيرة حياتهما أقرب ما تكون الى سير القديسين . ولكننا لا نستطيع

---

(١) الشيخان : « طه حسين » ص ٩ ، ١٠

القول بأن الصورة التى صور بها هذين الشيخين الذين أتما العمل الذى بداه النبى ليس فيهما من خلال تفسيراته ملامح لا تقبل الجدل ، وأننا نجد أن وطه حسين ، فى بداية الكتاب يصرح بأنه لم يشأ تفريط الشيخين الجليلين وأنه قد بذل كل جهده لكى يفهم أو لكى يجعل القراء يفهمون حقيقة شخصيتها ، . (١)

وسنرى فى البحث مدى صحة هذا الكلام . ووفقا لما قاله الكاتب سابقا فاننا نفهم انه يريد أكثر مايريد أن يظهر لنا صوره الشيخين فى نهجهما هذا الذى أتعب من بعدهما ونتجت عنه نتائج كان لها أكبر الخطر فى التاريخ الاسلامى كله . وبذلك نستطيع القول بأنه أستهدف السيرة السياسية لكل من الشيخين وهى التى كانت مقصده أساسا أكثر من قصده إلى كيانهما الشخصي . وهو وان .. أظهر الصفات الذاتية لكل منهما . وطباعه وطريقة تفكيره فانما ليستخدم هذا كله الدلالة على النهج السياسى لكن منهما . وهذا هو الهدف الذى يقع فى الدرجة الأولى من الأهمية .

... ...

مع أبى بكر

لقد بدأ مع أبى بكر منذ الوقت الذى نهض فيه بالخلافه ، وهذا يوضح أنه لم يتتبع حياة شخصيته من بدايتها إلى نهايتها . ويوضح أيضاً اتجاهه إلى السيرة السياسية منذ البداية . وقد مهد لهذا بشرح الظروف والملابسات التى أحاطت بالاسم فى تلك الفترة العصيبه فترة ما بعد وفاة الرسول مباشرة . فى

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص ١٠٦

هذه الفـترة التى ظهرت التيارات السياسية المتضاربة المتصارعة ، كل يبغى الوصول إلى السلطة التى كانت للنبى ، أو للانتفاض من تلك السلطة التى كانت له والتى فرضت عليهم ألوانا جديدة من النظام ما كانوا يعرفونها من قبل

لقد حسدت القبائل قريشا لاستئثارها بشرف النبوه. ولظفرها بذلك التميز الالهى الذى أعلى من شأنها أكثر وأكثر وسرعان ماحاولت بعض القبائل السمو إلى هذه المكانة على الاقل بارث سلطته أو بالتمثل به . فظهر التنبوء فى ربيعه ، فقام بينهم مسيلمة الذى جعل يقول لنا : نصف الارض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يظلمون «وظهر التنبؤ فى اليمن أدعـــاه الاسود العنس . وفى بنى أسد بأدعاء طليحة . ومن تميم تنبأت أمرأة . يقـــول المؤلف وكـذلك نفست قحطان على عدنان أن يكون لهـا نبى من دونها فظهر فيها الأسود العنس ونفست ربيعة العدنانية على مضر أن تستأثر من دونها بالنبوة . ونفست أسد وتميم المضريتان أن تستأثر قريش بالنبوة من دون سائر مضر مظهر طليحة فى بنى أسد وظهرت سجاح فى بنى تميم » . (١)

وإن دل لذلك على شيء فانما يدل على تيقظ العصبية القبلية الجاهلية . تلك التى أستطاع الاسلام بعد جهدوكفاح أن يخفف من غلوائها . أو بالأخرى جعلها تتوارى ولو إلى حين تحت سلطان تعاليم الدين الجديد . فحين ذهب مبشر هذا الدين وصاحب تلك التعاليم أطلت هـذه العصبية بوجهها البغيض فى محاولة للظهور من جديد ناقضة عنها ذلك الهدوء الذى فرض عليها فرضا .

(١) الشيخان :« طه حسين ص» ١

وفى محاوله الانتقاص من هذه السلطة التى حسدت قريش من أجلها أو فى محاولة للوقوف فى وجه ذلك السلطان الجديد ساومت القبائل فى الزكاة وقلت وفودهم لأبى بكر: نقيم الصلاه ولا نؤتى الزكاة، فهم وفقا لمفهومهم. كانوا يؤدون الزكاة لرجل كان يستمد سلطته من السماء، أما وقد خلفه رجل لاتوحى اليه السماء فليمسكوا مالهم عليه . ولم تستطيع عقولهم أن تعى أن هذه تعاليم دين، وأن هذا حق دين لاحق «محمد» فقط .

ولذلك حفلت تلك الفترة بهذا التضارب وظهرت الأطماع وعلى النفوس وظهر وكأن الناس قد اسلموا لسلطان النبى دون أن تؤمن به قلوبهم أو كأنهم خضعوا خضوع المضطر الذى ينتفق حين توائيه الفرصة السانحة .

فكانت هذه الفترة فترة قلق واضطراب سياسى . ولم تكن هذه هى المحنة الوحيدة التى واجهت « أبا بكر » فهو لم يواجه هؤلاء الذين يريدون منع الزكاه . أو هؤلاء الكفره ممن أتبعوا هؤلاء المتنبئين فقط . لكنه واجه كذلك ذلك التأهب للكيد والمكر من عرب مسيحى الشام . ذلك الكيد والرغبة فى الغزو الذى كان النبى قد أعده له قبل وفاته جيشا لغزوهم جعل على أمارته « أسامه بن زيد» . ولاننسى أن أبا بكر كان قد أمتحن بمنحه وفاة النبى وفقده قبل هذا وذاك . والشك الذى خلقه ذلك فى النفوس وفوق كل هذا وذلك كان رسول الله هو أحب الناس إلى قلب أبى بكر وقد أمتحن بموته فى ذاته هو شخصيا .

فى وسط كل هذه المحن والأحداث ، ومن صدى مواجهة أبى بكر لها يستشف المؤلف المميزات الخاصة بالرجل . ومن خلال هذه الظروف يحاول

الحكم على الشخصية يقول : « وليس شيء أصدق تصويرا لشخصية الرجل من ثباته للمحنه مهما تعظم ، وتفوذه من مشكلاتها مهما تتعقد وظهوره على هولها مهما يكن شديداً » : (١)

وبعد أن أخذ أبو بكر البيعة بعد يوم السقيفة وما ثار فيه من خلاف . بعد ذلك اليوم تدبر « أبو بكر » أمر نفسه فرأى أنه كاف بأمر جليل . ورأى أنه يجب أن يتخذ لنفسه نهجا سياسياً معيناً يتماش ودقه هـــذه الفترة وحساسيتها وقد أشفق على نفسه كل الاشفاق خوفا أن يتوقع منه النـاس أن يسير فيهم سـيرة النبى صلوات الله عليه . وطلب منهم ألا ينتظروا ذلك منه فما هو الا شخص عادى ، ماهو أ كثر من فرد منهم لايمكن أن يسد الفراغ الذى تركه الرسول . وسألهم العون على ذلك الامر لأنه يشعر بأنه ليس بخيرهم وعليهم أن يساعدوه ان أحسن ، وأن يقوموه ان أساء بل أنه طلب إلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا له طالما هو ملتزم بطاعة الله ورسوله ، ولهم حق معصيته أن خالف الله ورسوله ، وأعطاهم عهدا أن يكون الضعيف عنده قويا حتى يأخذ الحق له والقوى عنده ضعيفاً حتى يأخذ الحق منه . ولخص كل خطته السياسية فى هـــذه الكلمة الصغيرة البليغة المعبرة بأنه متبع ، وليس بمبتدع .

فقد حاول جهده أن يتبع سيرة النبى فيهم وأن لايغير شيئا رآه الرسول . لذلك حرص كل الحرص أن ينفذ حملة « أسامه » كما أرادها الرسول ، رغم أن صفوة أصحابه أشاروا عليه أن يرجىء إنفاذ هذه الحملة إلى حدود الشام لأن الأوضاع ماكانت قد أستقرت بعد. وأصبح أبو بكر وأصحابه فى المدينة

(١) الشيخان : د طه حسين ، ص ١٤

يحيط بهم الكفر والانتقاض ولا يؤمنون أن يغير عليهم الاعراب خاصه بعد أن يغادرهم صفوة المقاتلين والمدافعين مصاحبين لجيش أسامة . ولكن أبا بكر ماكان مانعا أمرا رتضاه الرسول وحاول كل جهده لانفاذ أمر قضى به النبى ورد على أصحابه : والله لو خفت أن تتخطفنى السباع لما تأخـــرت عن أنفاذ أسامة وجيشه » . (١)

وقد أضطره تصميمه على انفاذ جيش « أسامة » إلى الخروج بنفسه لملاقاة الأعراب ممن سولت لهم نفوسهم الإغارة على المدينة فحاربهم وانتصر عليهم مما كان له أثر عظيم فى نفوس المسلمين .

ويبرز صفات أبى بكر الشخصية من خلال مايتعرض له من اضطرابات سياسية ليلقى أضواء على تلك الشخصية من خلال تصرفاته فى مواجهة متاعب السياسة . يقول : « أظهر ابو بكر فى هذه المحنة أخص صفتين إمتاز بها وهما الاطمئنان إلى ماوعد الله فى غير تردد أو تعرض للشك أو الوهن والثبات فى حزم وعزم لما يلم به من مكروه حتى ينفذ منه ويمضى فى أمر الله إلى أن يبلغ النصــــر » . (٢)

بل أن السياسة لتنعكس على خلق الرجل تعمل فيه حتى أنه ليغير من طباعه تبعاً لهذه المتطلبات الجديدة التى تفرضها عليه أوضاع الحكم . فما عرف عن أبى بكر منذ أسلم الا لين الجانب ورقة القلب ورحمة الضعفاء والمكروبين وهو الذى أشار على الرسول بالرفق بأسرى موقعة بــــدر . ولكنه بعد أن

---

(٢) الشيخان : « طه حسين » ص ٥٣

ولي الخلافة ووجد ماوجد من تنكر العرب للدين وتعاليمه. وظهور الكذابين وإتباع بعض الناس لهم وتنكر هؤلاء لمن بينهم من المسلمين وفتنتهم أو قتلهم لم يكتف بمقاومة الردة أو اجبار العرب على الرجوع إلى ماكانوا فيه بل أقسم ليبلغن فى الثأر لمن فتن من المسلمين وأوصي قواده أن يتتبعوا بعد النصر أولئك الذين قتلوا المسلمين وأن يقتلوهم ويجعلوهم لغيرهم نكالا .

وهذا التغيير الذى طرأ فى أخلاق الرجل من مستلزمات الحكم وانعكاسا لأوضاع جدت على نظام الحكم كله .

فمثلا كان فى طبع خالد بن الوليد « عنف شديد واستعداد للاسراف فى القتل وقد أشار عليه « عمر » كثيرا بعزلة ، ولكن « أبا بكر » كان يأبى ، ربما لأنه وجد فى طبعه هذا وسيلة لاستقرار الأمور وارهابا لأعداء النظام ، وردعا لمن يفكر في الخروج على هذا النظام لأن « أبا بكر» لم يكن يستهدف إلا الحفاظ على النظام مهما كلفه الأمـــر . ولذلك أصر على الانتفاع بقوة « خالد » التي هى خير معين على أستقرار هذا الوضع ، وليهدىء منه ومن اندفاعه لو تجاوز القصد ولكن فليبق عليه مدافعا وذائدا عنه .

وكانت الأحداث هى التى توجه تصـرفات الخليفة الأول عنفا أو لينـا فنحن نراه يعنف أشد العنف بالفجاءة الذى خدعه وأخذ منه المـال والسلاح متظاهرا بحرب المرتدين ، وإذا به يستخدم ما أخذ ليجمع حوله بعض الناس وينشر بهم الفساد فى الأرض فطلبه « أبو بكر » إلى أن ناله فأوقـد له نارا عظيمة بمصلى المدينة وألقى فيها فمات محترقا . ولولا الظروف السياسية القاسية التي كان يواجهها « أبو بكر» لعاقب الفجاءة بغير هذا العقاب القاسي الأليم .

ويلين الخليفة الأول أحيانا حين لايجد في لينه مايمس النظام الذى بذل جهده فى حمايته فهذا هو يعفو عن طليحة الذى خرج عن الاسلام . وذلك بعد عودته إلى الدين . يعفو عنه ويقول حين أخبره الناس : هذا طليحة فى طريقة إلى مكة . يقول : « وما أصنع به ، دعوه فقد هداه الله إلى الاسلام » . (١)

بهذا المزاج الحكيم من اللين فى موضع اللين والشدة فى موضع الشدة استطاع « أبو بكر » أن يحمي نظامه فيقضي على الرده ويعيد الخارجين على الدين اليه مرغمين أو طائعين . ولم يستغرق هذا كله سوى العام الأول من خلافته القصيرة .

ويفرغ بعد ذلك للحروب الخارجية . أول ماكان يهمه تحرير العرب على حدود الشام من سلطان الروم . وتلك كانت رغبة الرسول . وأدت به هذه الرغبة الشديدة لانفاذ أمر قال به الرسول . إلى أن يضيع أنتصارات « خالد بن الوليد » فى العراق ، حيث كان فى قمة الانتصرات على الفرس والعرب الخارجين فى العراق ، ولكن « أبا بكر » عنى بأمر الشام قبل أن يفرغ من أمر العراق أنفاذا لما كان النبي يريده ويمهد له . فكان من نتيجة ذلك أن انتقض الفرس مرة أخرى ، وتورط فى حرب الروم قبل أن يتم الاستعداد من جهة ثانية .

وأما سياسته بعيدا عن الحرب . فما كانت تنبثق الا من هذه الكلمة التى

---

(١) الشيخان : « طه حسين » ٨٦

قائلا . . انما أنا متبع ولست بمبدع . فقد سار سيرة النبى نفسه فى اجـراء الأحكام فى المدينة وفى سائر الجزيرة بعـد العودة الى الاسلام ، وكان يستعين « بعمر » فى القضاء بين الناس ، كان يأتيه الفئ بعد الحرب وبعد أن يوزع أربعه أخماسة على الجند . كان يقسم ما يصل اليه بين المسلمين يعطيهم جميعـا على السواء .

وقد حاول ألا يشرك فى الفتح الا هؤلاء الذين ثبتوا على ايمـانهم . أى أنه كان يحرم المرتدين بعد عودتهم الى الاسلام من هـذا الشرف . شرف الدفاع عن الاسلام .

وهكذا يشرح لنا المؤلف حياة « أبى بكر » السياسية داخليا وخارجيا . ولقد أعطانا بعض الملامح الشخصية للخليفة الأول ولكن من خلال هذا المنهج السياسي الذى أتبعه . فهو لم يؤرخ لحياة « أبى بكر » وانما أرخ لسيرته فى الحكم . ويتضح ذلك لأنه بدأ حديثه عن « أبى بكر » من أول عهـده بالخلافة ولو أراد أن يؤرخ « حياة أبى بكر » لابتدأ منذ اسلامه . وفترة مزاملته للرسول وجهاده بجانبه ، ولكنه لم يقصد لذلك ، انما قصد الى ذلك الأسلوب السياسي الذى أتبعه خليفة رسول الله .

يقول عنه فى نهاية الحديث : « وكذلك أنفق أبو بكر » خلافته راضيا مرضيا ، لم ينكر عليه أحد من المسلمين شيئا ولقى الله راضيا عن المسلمين ، والمسلمون عنه راضون . [١]

---

(١) الشيخان : « طه حسين » ص ١٠٢

ولعل العمل الذى توج به ,, أبو بكر ،، عمله السياسي هو وصيته بالخلافة ,, لعمر ابن الخطاب ،، وقد أثبت فى ذلك الأمر أنه رجل سياسة من الطراز الأول . فقد كان يعلم أن هذه الدولة الناشئة فى حاجه إلى جمع الكلمة وفى حاجة إلى حاكم قوى باستطاعته النهوض بهذه الأعباء الثقال التى سيتركها هو من ورائه . حاكم يتم مابدأه هو من سياسة الفتح . حاكم حريص على الانصاف ، قوى ، شديد فى الحق ، ماضى العزيمة و يسير بمقتضى كتاب الله وسنة نبيه . ورأى بجانبه رجلا تجتمع فيه كل هذه القدرات والصفات هو ,, عمر بن الخطاب ،، فاختاره ,, أبو بكر ،، خليفة له ، وحاميا للنظام السياسي من بعده . وكان فى اختيار ,, عمر ،، للنهوض بهذا الأمر توطيدا لهذا النظام أى توطيد .

° ° °

مع عمر

وقد بدأ مع ,, عمر ،، رضى الله عنه بداية مختلفة عن تلك التى بدأها مع أبى بكر . فقد بدأ مع ,, عمر ،، منذ أن أشهر إسلامه ، لم يقص كل تفاصيل حياته طوال تلك الفترة الى أن ولى الخلافة ، لكنه أكتفى بطرف من سيرته فى تلك الآونة هدف منها الى استجماع طبع هذه الشخصية التى أرتضى «أبو بكر» أسناد الخلافة اليها . فاذا به يطلعنا على بعض اللمحات لشخص «عمر» حتى نصل إلى ملامح الحاكم فيه فهو يستهدف كما قلت السيرة السياسية لكل من الخليفتين .

فمن صفات الشدة والعنف اللذين عرف بهما ,, عمر ،، بين الناس أصبح

عنيفا بالمشركين ، وكانت له جرأة فى أظهار الدين ، وإلى شدته وعنفه يرجع الفضل له بالجهر بالاسلام فى مكة واخراج المسلمين من مخابئهم بدينهم، يقول : فليس عجيبا أن يقول ,, ابن مسعود ،، فيما تحدث عنه الرواة ، كان إسلام ,, عمر ،، فتحا ، وهجرته نصرا ، وامارته رحمة . وكلمة ,, ابن مسعود ،، هذه على اختصارها هى أدق وصف يختصر حياة ,, عمر ،، منذ أسلم الى أن توفى .[1]

ويستعرض أخلاق عمر بين العنف والشدة الممزوجين بشىء من الرقة واللين ورقة القلب خاصة بعد اسلامه والتى كانت أحيانا تبلغ به حد البكاء والنشيج ، وجرأة بادية فى الحق . ويستشهد على هذه الجرأة باعتراضه على النبى نفسه يوم صلح الحديبة وموقفه من موضوع تحجب نساء الرسول . ثم رفقه الشديد بالنبى والحياطة له . والقيام دونه والحرص على أن يرد عنه كل مكروه . يقول : أنت ترى أن حياة ,, عمر ،، أيام النبى صلى الله عليه وسلم كانت مزاجا من هذا العنف الذى كان النبى يكفكفه . كذلك كانت حياته أيام ,, أبى بكر ،، كان دائما شديدا فى الحق أو فيما يرى أنه الحق .

ولكن هذه الشخصية الفذة بكل ما عرف عنها من قوة وبأس تنهض بالخلافة يحدوها الخوف من غضب الله ، كان ,, عمر بن خطاب ،، يرهب الله وعذابه وكان يرى أن الخلافة عبء كبير ومهمة صعبة . سمعه بعض أصحابه يحدث نفسه من وراء جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ يابن الخطاب والله لتطيعن الله أو ليعذبنك .

---

(١) الشيخان : ,, طه حسين ،، ص ١١٩

ومنذ أستخلف ,, عمر ،، فرض على نفسه الشدة . لأنه كان يعلم ما كان في حياة النبي من شدة وضيق حتى أنه كان يأكل حين يتاح له الطعام ويصوم حين لا يجد ما يطعم . وكذلك كانت حياة ,, أبي بكر ،، أثناء الخلافة . لم تكن رقيقة ولا لينة انما كانت الي الخشونة والشظف أقرب منها إلي اللين فكان عمر لا يريد أن يمتاز عن صاحبيه الكريمين شيئا . بل أنه حسين كثر المال . كان يتذكر حياة النبي القاسية تلك وكان يبكى بكاءا شديدا .

وهكذا كان يريد أن يتيح نهج ,, محمد ،، صلوات الله عليه ونهج ,, أبي بكر ،، وهذا ما يوضح لنا موقفه من عام الرمادة وما أصاب الأرض فيه من حدب وما أصاب الناس من جوع مدة تسعة أشهر . وكان موقف عمر رائعا يدعو لكل أعجاب ، فما عرف التاريخ ملكا أو حاكما يشارك الناس فى جوعهم وفقرهم كما شارك عمر أهل الحجاز ونجد وتهامة ، فسار بذلك على نهج خاص لم يعرفه الحكام لا قبله ولا بعده ، واشتد ,, عمر ،، على نفسه كل الشدة وعلى غيره ايضا فيما يتصل بمال المسلمين ، وفى هذه المحنة ظهرت شخصية ,, عمر ،، واضحة كأوضح ما تظهر الشخصيات حزما ومضا وصبرا على احتمال المكروه ولا يسعنا إلا ان نقول ان ,, عمر ،، قد ارتضى العدل والأمن والمساواة مبادىء اجتماعية بين رعيته .

وواجهته مشكلة جيوش الفتح فى العراق والشام، كان ,, ابو بكر ،، قد ترك وضع الجيوش العربية فى العراق فى موقف حرج . فقد عبأت الفرس جيوشا كبيرة ، فاجتهد ,, عمر ،، ان يجمع اناسا كثيرين لنجدة جيوش العراق اما في الشام فقد خالف ,, عمر ،، نهج ,, ابى بكر ،، فلم يكد يتبوأ

الخلافه حتى عزل « خالد بن الوليـد » أمير جيوش الشام وكثيرا ما أوصى « أبا بكر » بعزله لأنه ما كان ليرضى عن بعض تصرفاته . لكن « أبا بكـر » يثق بخالد . فلما أصبح الأمر إلى عمرعزله على الفور ، وكان خالد بازاء معركة كبيرة . ولولاحكمة « أبي عبيدة » الذى خشى على الجيش وعلى « خالد » مغبة معرفة أمر العـزل فأخفي الأمر حتى تنتهى المعـركة . وخاض خالد المعركة وأنتصر فيها ولم يعلم بأمر العزل الا بعد النصر .

أما عن جيوش الشام . فقد وقف « عمر » حتى حـدود الروم وكان فى ذلك يصـــدر عن حكمه سياسية ، حكمة القائد الذى يعرف متى يتوقف . ولا يغتربالنصر ، لذلك وقف بفتوح الشام عند حدود الروم ، وفى فتح مصر حتي حدود برقة وطرابلس ، وحذر معاوية أن يغزو فى البحر .

ونرى أن تلك السياسة الحربية سياسة قائد محنك ، ولكن قد فاته بعض من الهفوات فبالنسبة الى الوصول بالفتح عند هذه الحدود حتى لا يتألب عليه الروم مرة أخرى ويسببون له أزعاجا مستمرا ، كان موفقا كل التوفيق . أما بالنسبة « لخالد بن الوليد » فقد وقف منه موقفا متشددا ما كان خالد ليستحق أن يعامل به بعد كل ما أبلى فى سبيل الله .

ومما لا شك فيه أن « عمـر » استطاع تحويل هزائم المسلمين الى نصر فى العراق ضد الفرس ، وقد نزل بنفسه العراق يترقب الأمور . واندفع أهـل البصرة والكوفة الي أنتزاع الأمر منه بالانسياح في الأرض حتى فتحت على « عمر » بلاد كسرى كلها فى مدة خلافته .

وكان عمر يقدر سعادته بالفتح ، وعلو كلمـة الاسلام وتدفق هـــذه

الأموال عليه ، بعد شقاؤه بهذا الفتح كبيرا فقد كان يخشى أن يقصر في حق هذه الدولة التى آلت اليه فجيوش المسلمين منتشرة فى الشرق والغرب . ويجب عليـــه أن يدبر أمره كأنه معهم في أماكنهم النائية ، ويدبر فى نفس الوقت أمر المسلمين والمجاهدين ، وأختيار عماله ومراقبتهم أشد المراقبة . ثم كان عليه تدبير هذا المال المتدفق بين يديه بالعـــدل . وكـان يخشى أشـد ما يخشي أن ينحرف عن العدل والمساواة وكان يردد دائمـــا : وددت لو خرجت منها كفافا لا على ولا لي .

كان عمر متفهما لـكل صغيرة وكبيرة . فهو أول من فكر فى أسم أمير المؤمنين تيسرا على النـاس . وأتخذ السنة الهجرية بداية للتاريخ الاسلامى ، فقـــد كان أشد ما يكون عناية بالنظم الداخلية التى تكفى أستقرار النظام الحاكم داخليا . فجند الجند وجعل لهم عطاءا ثابتا . وجعل للناس نصيبـا مقسوما من خزانة الدولة فوضع بذلك نظاما يفوق ما استجد بعد ذلك من نظم حديثة .

يقول المؤلف : فأما أن تكفل الدولة رزق المسلمين جميعا على هذا النحو فلسنا نعرفه فى التاريخ القديم وما أظن أن الحضارة الحديثة وفقت اليه .(١)

وهو فوق ذلك يرفق بالرعية رفقا لم يعرفه المسلمون بعده أبدا . كان يأمر عماله بذلك ويخاف أشد الخوف أن يقصر عمـاله فى انفاذ أمره . فكان يراقبهم أشد المراقبة وأن نسب لأحدهم شيئا أرسل من يحقق معه ولا يتورع

---

(١) الشيخان : د طه حسين ، ص ١٧٤

عن عزله أن تبين صحة مانسب اليه . كان يضع نفسه موضع المسئولية عن كل شيء . وكان يقول : أن الله قد ابتلاني بكم ، وابتلاكم بي .

ومن موقع المسئولية ينطلق في الحكم ويبلغ به الشعور بالمسئولية أن يقول لو أن جملا هلك ضياعا على شاطىء الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه. ويقص مجموعة قصص قصيرة ليستدل المؤلف على أخلاقيات « عمر » وكلها تدل على الشعور الكبير بالمسئولية . ذلك الشعور الذى يدفع الحاكم أن يعس ليلا في المدنية عله أن يجد مظلوما ينصفه أو صاحب حاجة يقضيها له أو مخطئا يقومه.

كان أحساسه بالمسئولية يدفعه الى الشدة مع ولاته فما ولى أحدا منهم الا كتب ماله قبل الولاية ويحاسبه على مازيد عليه . وأرسل لهم من يتولى القيام على بيت المال ومن يقوم بالقضاء لاجراء أحكام الله بين الناس ، وكذلك أقام هذا الرجل العربى الذى لم يعرف الحضارات الاجنبية معرفة مفصلة ولا دقيقة ، نظام الدولة على نحو يكفل منافع الناس ويكفل لهم العدل والانصاف ملائما بين ما أتيح له من الرأى في شئون الحكم فى البلاد الأجنبية المفتوحة وبين أصول الاسلام (١)

ولم يكن « عمر » حاكما دنيويا فقط انما اهتم برعاية شئون الدين في دقة بالغة ، فهو أول من أخذ الناس بقيام رمضان بعد أن تصلى العشاء. وأول من اشتد في عقاب شاربى الخمر وفرض لشرب الخمر حدا لم يكن معروفا قبله . وأقام الحد على ابنه لأنه شرب خمرا وكان « عمرو بن العاص » قد أقام

---

(١) الشيخان : « طه حسين » ص ١٩٢

عليه الحد فى مصر ، لكن بدون شهود من النـاس فأعتبر « عمر » ذلك ليس بالحد الشرعى ، وأعاد العقاب حتى قضى على الفتى فقال له قبل أن يموت : اذا لقيت رسول الله صلى عليه وسلم ، فأنبئه أن أباك يقيم الحدود .

فهو قد اعتنى بشئون الدين كما اعتنى بشئون الدنيا . ومن رعايته وعنايته بالدين . انشاء نظام القضاء وتعميمه فى البلاد ، وتولى هو القضاء فى المدينة وعم كذلك نظام المعلمين يذهبون فى البـــلاد ليعلموا الناس شرائع دينهم ويقرئونهم القرآن . وكان أن عرض له امر ، نظر فى كتاب الله فان وجد حكما قضى بمقتضاه، وان لم يجد نظر فى السنة النبوية ، فان لم يجـــد اجتهد برايه بمافيه مصلحة المسلمين مستشيرا أصحاب النبى .

كان يأمر الولاة والقضاة ان يصنعوا صنيعة . وكان أول من اتخـــذ الدرة يؤدب بها الناس حتى ولو كانوا من الصحابة إن أخطأوا . لقد كان ,, عمر ،، مثلا فى العـدل ومثلا فى رعاية الدين فى كل صغيرة وكبيرة . ولم يكن هذا كله إلا مظهرا من مظاهر خشية الله وعقابه .

ولما طعن بعث لعائشة من يستأذن فى أن يدفن مع صاحبيه ، وحمـدا الله ان قاتله ليس برجل يفضله عند الله بسجدة سجـــدها له لأن قاتله لم يكن مسلما .

الا ان عظمة الانسان تتجلى فى هذا الموقف .. بعد الطعنة القاتلة ، وقبل المـوت ، ولا يفوته ان يوصي بمجلس الشورى . ويوصى ,, عثمان ،، و,,على،، بأن يتقيــا الله ان آل الأمر إلى احد منها . وكان فى قرارة نفسه يتمنى أن تكون لعلى فقد قال : ولئن ولوها الأجلح ليحملنهم على الطريق وحين

يسأل وما يمنعك يا أمير المؤمنين ... يقول : أكره أن أحملها حيا أو ميتا . (١)

كان الرجل يعتبر نفسه مسئولا أمام الله . فكان لا يريد أن يحمل المسئولية حتى بعد مماته أن يختار المسلمين إماما . فلجأ إلى الشورى فسمى ستة يختار من بينهم خليفة للمسلمين وببساطة شديدة طبق ,, عمر ,, نظاما ديمقراطيا في اختيار الحاكم . فاختار ستة من أهم من كان يمكن أن يؤل اليهم الأمر . وقد كانوا من ذوى السابقة من المهاجرين الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة . ومات وهو عنهم راض . فاختياره لهؤلاء كان من بعد النظر بدرجة كبيرة ، بعد نظر الرجل السياسي الخبير . وكان اختيار الخليفة بهذه الطريقة أمرا تحتمه الظروف . فما كان يجب أن يفرض واحدا من بعده ، حتى لا ينسب اليه لوم ، إن قصر الامام الجديد فى شيء فخص هؤلاء الستة الذين كان يرى أن الخلافة لن تخرج من بينهم ولا بد أن تكون لأحد منهم فهو قد فرض رأيه لكن بطريق غير مباشر . فقد قصر الانتخاب على الخاصة بل على خاصة الخاصة ، وكان هذا منه حنكة سياسية بارعة . أن يهيء للخلافة من يرى أنه أهل لها دون أن يختار شخصا بعينه أنما جعل الأمر شورى .

وبعد ، فقد أبرز المؤلف فى ,, عمر ,, صفات الحاكم الفريد الذى لم يعرف العرب بعده مثيلا . وأبرز أيضا ما كان فى هذا الانسان من تميز عقلى جعله السابق الى كثير من النظم السياسية التى لم يأخذها من غيره أنما استقاها من تلك العبقرية مما كان له أكبر الأثر فى استتباب أركان الدولة .

---

(١) الشيخان : د طه حسين ، ص ٢٢٣

وإذ كان « عمر » قد حقق نصرا كبيرا للمسلمين بالفتوح ، فلم يكن هذا الفضل عائدا اليه وحده ، انما شاركه فيه قواد ملهمون وجنود مؤمنون يفتحون الأرض باسم الله والخليفة « عمر بن الخطاب » والفضل الذى يرجع اليه وحده هو ذلك النظام الداخلى المحكم والذى فرضه على الدولة الاسلامية المترامية الأطراف والذى كان القدوة فيه والامام . وحين ينجح الحاكم فى أن يكون قدوة فهو الحاكم الملهم بحق .

وأظهر المؤلف عبقرية « عمر » الحاكة فى بساطة ويسر ، وهذا هو هدفه من الكتاب الكشف عن تلك العبقرية السياسية أولا وأخيرا .

أما بشأن الاعتراض على المؤلف من أنه جعل الشيخين من القديسين ، فانى أرى انه لم يفعل ذلك ، انما هما أهل له ، لقد علمنا من سيرتيهما ما يجعلنا نضعها فى مرتبة أعلى من القديسين ، فهذه الدرجة من التفانى فى الله وخشيته والاستعانة به فى كل كبيرة وصغيرة فى أمور الدنيا ، وهذه الدرجة من انكار الذات والتشدد عليها ، اين نجدها ان لم تكن عند القديسين والابرار؟

لم يضف أحد إلى الشيخين شيئا ، إنما هما وضعا نفسيهما فى ذلك المكان السامق الذى لا يصل اليه تفكير هؤلاء المستشرقين . (١)

* * *

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « جورجيو ديلافيدا » ص ١٠٦

الفتنة الكبرى :

حين كتب « طه حسين » كتاب « الفتنة الكبرى » بجزأية تعرض لفترة من أدق وأحرج فترات التاريـــخ الاسلامى كله ، وهو يرى أنه فى هذا الكتاب يعد مؤرخا . قال ذلك فى حـديث له . فقد تعرض لتلك الأحداث التى شجت وحـدة العالم الاسلامى والتى انتقلت بالخـلافة الاسلامية ونظامها الفريد الذى تميزت به « إلى نظام ملـــكى وراثى يستوى"وغيره من النظم المعروفة .

أحداث نقلت العالم الاسلامى من نظام حكم دينى أخلاقى يتخذ القرآن والسنة والحديث والمثل الأعلى دستورا له إلى نظام حـكم دنيوى يقوم على القوة العسكرية والمـال والطموح الشخصى ، وتجرى تحت بنيانه دماء آلاف من الناس . أصبح البقاء للأقوى . وساد منطق القوة .

ولذلك كان المؤلف يدرك تماما خطورة الموقف التاريخى الذى يؤرخ له فحاول جهده أن ينقله بأمانة ، وأن يلزم الحياد وأن يعرض الأحداث بتجرد يقول : « هذا حديث أريد أن أخلصه للحق ماوسعنى إخلاصه للحق وحده وأن أتحرى فيه الصواب مااستطعت إلى تحرى الصواب سبيلا ، وأن أحمـل نفسى فيه على الانصاف لاأحيد عنه ولا أمالىء فيه حزبا من أحزاب المسلمين على حزب ولاأشايع فيه فريقا من الذين اختصموا فى قضية عثمان دون فريق وأنا أريد أن أنظر إلى هـذه القضية نظرة خالصة مجردة لاتصدر عن عاطفة ولاهوى , ولاتتأثر بالايمان ولا بالدين ، وانما هى نظرة المـؤرخ الذى يجرد نفسه تجريدا كاملا من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظـاهرها ومصادرها وغاياتها » . (١)

---

(١) عثمان : « طه حسين » ص ٤

اذن فقد أوضح المؤلف موقفه من هذه الأحداث وجعل الأمر ليس أكثر من طرح لقضية ساسية بما فيها من مقدمات ونتائج وأثر تاريخى .

« كانت نظرته التاريخية وتفسيره للأحداث يختلفان كل الاختلاف عن نظرة من سبقه من المؤرخين الذين عرضوا لأحداث التاريخ الإسلامى » (١)

... .

مع عثمان :

بدأ بأن أعطى تمهيد الخلافة « عثمان » وأراد أن يعطى التاريخ فسحة من الوقت تنتقل بعدها إلى التأريخ لخلافة عثمان نفسه . شرح وفصّل كل تلك الظروف التى أحاطت بنظام الخلافة الإسلامية منذ بدئها . وتلك العناصر التى قام عليها هذا النظام الجديد على الانسانية ، المختلف عن كل ماعرف من نظم ، كان نظاما إسلاميا خالصا يقوم على عنصرين : عنصر الدين الذى قواه وجود النبى وتأثيره بعد ذلك . وعنصر الأرستقراطية الجديدة التى لم تستند إلى ماعرف سلفا من أسس للأرستقراطية . إنما تقوم على أكتاف تلك الطبقة المصطفاة من أصحاب النبى والتى أبلت فى سبيل الله بلاء حسنا . وخلقت فى الناس طبقة ممتازة .

لكن بمرور الوقت ضعف سلطان الدين وضعف تأثير هذه الطبقة الممتازة فى الناس ، فلم يعد يكفى الناس أن يتركوا أمرهم إلى حساب الضمير وحده أو إلى حساب مابين الخليفة وبين الله . بل أصبح الوقت يتطلب نظاما موضوعا على أسس تبين نظام الحكم بتفصيلاته .

(١) مع طه حسين : « سامى الكيالى » ص ٩٠

كانت هناك حتمية تتطلب تغيير هذا النظام الذى امتد طوال حياة النبى عليه السلام وصاحبيه الكريمين اللذين كان الناس يرون فيهما صورة النبى لقرب عهدهما به . ولشدة تمسكهما بالاقتداء به ، ولقوه شخصيتهما .

بدأت سحب المشاكل تتجمع بعد مقتل « عمر » ، وخاصة أن الدولة قد أخذت فى التغير . ذلك التغير الذى طرأ عليها وبدأ ينقلها رويدا رويدا من حال إلى حال دون أن يشعر أحد ... ولكنها الحقيقة أن الأمور قد تغيرت

فحين ولى « عثمان » كان بذلك قد ورث ميراثا شائكا من المشاكل ومن متطلبات العصر سواء فى الداخل أو فى الخارج . فالجيوش العربية فى الخارج تحتاج إلى عناية وإلى تدبير أمورها . ثم إدارة تلك البلاد المفتوحة وماتحتاجه من دراية بأساليب الحكم المتقدمة . وفى الداخل أمة بأسرها يجب أن تتعود وتخضع لنظام جديد ماكانت لتعرف الخضوع من قبلة . وأن كانت قد خضعت أيام النبي والشيخين فهذا شىء آخر ، زد على هذا تراث دينى يجب أن يحميه النظام .

وكان هذا الواقع يحتم على صاحب الأمر أن يكون على درجة من الكفاءة بحيث ينجح على مستوى كل الجبهات سواء فى السياسة ،أو الحرب،أوالادارة والقيام على حماية الدين ثم العناية بهذه الأرستقراطيات الجديدة التى بدأت فى الظهور مستمدة مكانتها من الدين أو الدنيا أو الاثنين معا .

كل هذه الظروف كانت موجودة منذ عهد « عمر » ، ولكنها لم تكن قد تبلورت بهذه الطريقة التى ظهرت بها منذ ولاية « عثمان » . أو قل أنها لم تكتمل

لها قوة إلا فى عهد عثمان ، أو قل أنه كان لشخص «عمر» من القوة والصمود ما استطاع به السيطرة على هذا كله .

شرح الكاتب هـذه الظروف بحيث أعطانا أبعادا لتلك الفترة الزمنية مما جعلنا نلمس جوهر التغيير الحتمى الذى كان لا بد من وقوعه . فهذة الظروف السياسية هى التى تجمعت وقامت فى وجه الخليفة الثالث . وما كان له من طبيعة الحاكم مايستطيع بهالسيطرة على الأمور واخضاعها . انما كان شيخا ورعا تقيا لين الجانب أرفق الناس بالمسلمين بارا سمحا حليا يتمتع بالحياء ، ذلك الحياء الذى كان الرسول يقول عنه : أن الملائكة لتستحى من « عثمان » .

حقا لقد كان « عثمان » سوء الحظ ، فقد تولي علي أنقاض جرح فى قلب المسلمين ، فهذ خليفتهم « عمر بن الخطاب » قد قتل وها هو ابنه « عبيد الله » يقتل ثلاثة انتقاما لمقتل أبيه وأصبح على الخليفة الجديد أن يحـكم فى هذه القضية التى هى قضية دينية أولا وسياسية ثانيا . وقد قضي « عثمان » فيها بما قضي واختلف الناس على حكمة هذا ولكن هذا الحـكم سواء أكان خطأ أو صوابا قد أعطى لهذه الخلافةالجديدة طابعها المميز الذى أخذ من خلالحكمها فى هذه القضية . وهو طابع اللين والرفق، وهو مالم يتعوده الناس من الخلافة السابقة ، وما كان اللين والرفق مسلكا نافعا مـع هؤلاء الناس الذين تعودوا القسوة والبداوة من حياتهم الأولي .

وأمعن « عثمان » فى ترفقه بالناس فزاد فى الأعطيات مما وضح للناس انحراف الخليفة عن سياسة « عمر » المالية . وسار فى المـال سيرة كانت أدعى إلي الشك مما جعل الناس يظنون أن الأمام يتزلفهم بهذا الكرم الزائد !!

وكان من نتيجة تلك السياسة أن أثرى بعض الناس وجمعوا حولهم أنصارا وأتباعا ويصبح كل منهم كأنه رئيس لحزب، حزب يعضده ويسير في ركابه نحو أطماعه في الخلافة نفسها .

ويتساءل المؤلف عن سر انحراف « عثمان » بالسياسة المالية عن نهج الشيخين ثم يرد وكأنى به يتلمس الأعذار للخليفة المقتول إذ يقول : « هو لم يعتمد الجور ولا المحاباة انما وسع على الناس من أموالهم ، ورأى فى بيت المال غنى فآثر الناس به ولم يغل فى الادخار ورأى حرج فى أن يصل أصحاب النبى بشيء من هذا المال قليل أو كثير وهم أئمة الاسلام وبناة الدولة وأصحاب البلاء الحسن أيام النبى » . (١)

ويترك المؤلف سياسة عثمان هذه جانبا ليفحص أنواع الناس فى ذلك الزمن لكنه يقارن دائما بين « عثمان » وبين « عمر » فى طريقة التفكير والسياسة . لقد كان لعمر موقف من أشراف قريش من المهاجرين . كان قد حدد اقامتهم بالمدينة ولايخرج منها أحد إلا بأذن لأنه كان يخشى عليهم الفتنة . ويخشى منهم الفتنة . لكن عثمان لم يتبع الخطة نفسها . فسمح لهم بالانتشار فى الأرض فكان فى ذلك أول وهن يصيب الاسلام . كان « عمر » يعرف قريشا حق المعرفة ويعرف طموحها وقد أتاحت ظروف ظهور النبوة فيهم أن يستشعروا تلك الاستقراطية وأن يستمسكوا بها فيما بعد . فكان « عمر » بسياسته يحد منها ومن غلوائها أما « عثمان » فقد أطلقها لاحد لأطماعها ولا لإيثارها نفسها بالخير . تندفع إلى غير مدى .

---

(١) عثمان ، طه حسين ، ص ٧٧ – دار المعارف ٦٢

وهناك فريق آخر من الرعية ذلك هـو فريق الأنصار الذى كان الجيل الجديد منه قد نما وأصبح يعقل نفسه ... وضاق بتلك الأرستقراطية القرشية الجـديدة التى كان يكبح من جماحها « عمر » بشخصيته القوية ، ولم يستطيع « عثمان » التحكم فيها .

وهناك أيضا عامة العرب الذين فتحوا واستقروا فى بلاد الفتح ، وكانوا بحاجة إلى من ينسيها عصبيتهم الأولى وألا يشعروا بتميز قريش الذى فرضه « عثمان » ، وأن كان عثمان لم يستطع أن يحتفظ بالمساوة بين قريش وبين سائر العرب فانه أيضا لم يستطع أن يسوى بين قريش نفسها . وحمـــل بنى أبى معيـط على رقاب الناس كما كان يخشى « عمر » ، وكأنه كان يعرف مقدما الأمورويحسها .

ولقد كانت هذه الرعية هى رعية « عمر » نفسها ، ولكن « عمر » عرف كيف يسوسها . أذن فقد كانت سياسه«عمر» هى الوحيدة التى تصلح لضبط هذه الرعية . ولكن « عمر » كان شيئا ، وكان « عثمان » شيئا آخر .

وإلى هذه الأسباب الاجتماعية يرجع المؤلف قيام الفتنة ولاينسى أن هناك تغيرا اجتماعيا آخر قد حدث وكان له أكبر الأثر فى القضاء على «عثمان»ذلك هو قيام الملكيات الضخمة التى تعتمد على الثروة . لقد سمـح « عثمان » لبعض الناس بأن يمتلكوا مساحات من أرض الأقاليم فنشأت تلك الطبقة الغنية التى تشبه طبقةأمراء الاقطاع التى تستهوى الناس فتفرقهم أحزابا وتتنازع السلطان فيما بينها ، وكان وجـود مثل هذه الطبقة دالا على ذلك التفاوت الطبقى الذى يؤدى إلى وجود صراع دائم بين الأغنياء والطبقة الوسطى .

لقد ساعد « عثمان » بتلك السياسة التى اتبعها على ذلك التغير الاجتماعى . وكان فوق هذا لايحسن اختيار ولاته ، ولايحسن أيضا السياسة فى ولاته ، فمثلا أتاح « لمعاوية » من الملك والقـوة والاستقلال ماجعل سلطانه يفوق سلطان الخليفة نفسه ومما جعله بعد ذلك ينازع على السلطة وعلى الخلافة كلها. وقد أدى سوء اختيار العمال إلى ثورة الجمـــاهير ضد ولاتها ، ثم ضده هو بالتالى . ففى مصر ثار المصريون على واليهم « عبد الله بن أبى السرح » ومنها خرج الثائرون الأوائل ضـــد عثمان ولا ننسى أن سياسة « عثمان » قد أثارت الحسـد والغيرة بين شباب قريش نفسها وذلك لايثـاره فريقا منهم على فريق .

ويرى المؤلف أن سياسة « عـثمان » فى تولية الولاة هى التى جمعـت ضده رؤس الفتنة وكانت السبب فى انتفاضة الأمصار ضـد « عثمان » ، لكنه يرى أيضا أن أشياء كثيرة جديدة كانت قـد ظهرت على الحياة العربية أدت إلى ظهور التنافس والأطماع. فلم يكن التغيير الاجتماعى وحده فى نظره هو السبب فى قيام الفتنة يقول : « الشىء الواضح الذى ليس فيه شك هـو أن ظروف الحياة الاسلامية فى ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأى وافتراق الأهواء ونشأة المذاهب السياسية المتباينة ».[١]

اذن فطبيعة العصر نفسه كانت تقتضى هـذا التغير الاجتماعى وماكانت سياسة « عثمان » ألا عاملا مساعدا . فالتغيير الطبيعى قد وقع . خذ مثلا هذه الأقطار الشاسعة التى فتحت على العرب أبواب الـــثروة وأصبحت تغل لهم

(١) عثمان : « طه حسين » ص ١٣٤

اموالا طائلة أدت إلى التنافس فى إدارة هذه الاقطار ، والانتفاع بثرواتها .
ولاغرابة أن يندفع الطامعون والطامحون من شباب قريش إلى هذه الموارد الجديدة ينهلون منها الجاه والثروة ولاعجب أن يتطلع غيرهم من الأنصار ومن بقية أحياء العرب إلى ذلك الثراء أيضا . هذا هو التغير الطبيعى الذى حدث .
ولكن « عثمان » يأتى ليقف بينهم وبين آمالهم ويرونه يؤثر قريشا بعظائم الأمور ويؤثر بنى أمية بأعظم هذه العظائم من الأمور . هنا فسدت النفوس وفسد مابينها وبين الخليفة . فنشأت المعارضة ربما لأول مرة . والكاتب يؤكد أن هذه المعارضة كانت نتيجة حتمية لظروف العصر نفسه يقول : « سواء نشأت المعارضه فى المدينة أو فى الأمصار فان هذا يكون دليلا على أن هذه المعارضه انما كانت ظاهرة طبيعية محتومة دعت إليها ظروف الحياة الاجتماعية أولا ، وظروف الحياة السياسيه ثانيا ، وظروف الدين وحقائقه وبين طبيعة الحضارة التى اضطر المسلمون إلى لقائها وممارستها آخر الأمر » (١) .

فهو بذلك جعل من الثورة أمرا محتوما تقضى به الظروف لكنه أضاف إلى ذلك بعض أخطاء فى سياسة « عثمان » كالتى استعرضناها من قبل ، وسوء علاقته مع من تبقى من صحابة النبى وأظهر عدم رضا هؤلاء الصحابة عن الخليفة مما ساعد على حرج موقفه وفيهم « عبد الرحمن بن عوف » و « سعد بن أبى وقاص » و « الزبير بن العوام » و « طلحة » و « على بن أبى طالب » و « أبو ذر » و « عمار بن ياسر » . ولكن المؤلف فى استعراضه هذا توقف عند على وقفة طويلة دون غيره باعتباره صاحب الدور الثانى من أحداث الفتنة .

---

(١) عثمان : « طه حسين » ص ١٣٧

وهنا يذكر المؤلف رأيا يبدو مناقضا لكل ماساق من آراء قبل هذا . فانه قـد أظهر لنا أن الثورة انما كانت استجابة طبيعية للتغير الاجتماعى والسياسى ولاقتصادى الذى طرأ على البلاد . وحدد هـذا الرأى فى ذلك النـص الذى أوردته قبل قليل ، ولكنه يعود فيقول : « لوسار » « عثمان » سـيرة « عمر » ولو لم تدخل قرابته بينه وبين الناس لما كانت الفتنة ولما احتجنا إلى املاء هذا الكتاب » . (١) كيف ؟؟ وقد أوضـح قبلا أن الفتنة كانت تدفع بعجلاتها ظروف مجتمع عريض اختلفت فيه النفوس والأهواء والاحزاب ، وظهرت فيه طبقات جديدة متصارعة على المال وعلى السلطان ، فما باله الآن يعود فيلقى التبعة كلها على « عثمان » وسياسته ؟ له الحق أن يقول أن « عـثمان » وسياسته عجلا بالثورة وأحداثها أو أن يقول أن سياسة « عمر » كانت صمام الأمن الذى يحول دون الانفجار . فجاء عثمان ونزع صمام الأمن هـذا فحدث الانفجار . نرضى منه لو أنه أوضـح أن سياسة « عثمان » كانت عامـلا مساعدا فى الثورة ولكنا نراه مرة يلقى التبعة على الظروف ومرة يلقيها على « عثمان » !

والعجيب أنه رغم هذا الاضطراب الداخلى ورغم قصور السياسة الداخلية عن الوصول إلى حال الاستقرار والأمن فان السياسة الخارجية كانت تصـل بالفتح إلى الذروة من الانتصار . ولعل هذا الانتصار الخارجى كان سببا من أسباب الفتنة بما تغله الفتوح من أموال أساء « عثمان » فيها التصرف مما أحفظ الناس عليه . فالغريب حقا أن يبدأ سلطان الدولة فى الداخل فى التقلص والضعف بينما يزداد قوة وبأسا فى الخارج !

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦

ويستعرض المؤلف الأحداث التي عيب فيها عثمان ويقول أن القدماء قد نظروا الى هذه الأحداث نظرة دينية كذلك الذين عاصروا « عثمان » كانت لهم نفس النظرة الدينية لكل الأمور ، ويدلى بهذا الرأى بعد أن استعرض كل هذه القضايا التى نقمها الناقمون من « عثمان » يقول : كل هذه أمور نقمها الناقمون من « عثمان » فى أمر دينه وقد رأيت أن لا بأس على « عثمان » من أكثرها . وأن قصة الحكم وبنية وحدها هى التى يصعب الدفاع فيها عن عثمان [1] .

ولكن المؤلف فاته أن ينظر للأمور بنفس نظرة أهل العصر وقد قال : رأيت أن لا بأس على « عثمان » من أكثرها ولكن أهل ذلك الزمان كانوا يرون أن هناك بأسا على « عثمان » فى ذلك وهكذا كان منطق القوم . والا لما خرجوا فيما خرجوا له وخاصة أن عثمان على حد قول المؤلف لم يقف بأحداثه عند هذا الحد ، وانما تجاوزها هو وعماله الى أشياء أخرى تمس حقوق الناس ومصالحهم وحرياتهم .

وهناك اختلاف فى وجهات النظر أوضحه « طه حسين » ذلك أن الخليفة كان يرى أنه ليس للناس حق فى أن يراقبوه أو يحاسبوه فهو مسئول أمام الله سبحانه وتعالى فقط ، وكان الخليفة يقول : ما كنت لأخلع قميصا قمصنيه الله عز وجل .

ولكن جماعة المسلمين كانوا يرون رأيا آخر . كانوا يرون أن الخليفة

---

(١) عثمان : « طه حسين » ص ١١٥

مسئول أمامهم . كانوا يريدون شيئا من العدل فلا أقل من أن يستمتع بالمال من أكتسبه و يذل فى سبيله جهده ، ودمه لا أن تذهب كثرة هذا المال الى شباب قريش الذين يعيشون عيشة البطالة يعتمدون علي أعطياتهم ، فلا معنى لإنفاق الأموال العامة على الفارغين والمتبطلين . وكان « عثمان » نفسه بصدد أن يسلك هذا السبيل الا أن أحداث الفتنة عاجلته . فألفى نفسه محاصرا فى بيته لا حول له ولا قوة

وتتابعت تلك الأحداث سراعا وجاء اليوم الأسود الذى سجله التاريخ ، فاذا خليفة المسلمين مقتول ، بعد أن هان أمره على الناس ، ورأوا أن ينفذوا فيه قضاءهم فقتلوه ولا نصير له سوى نفر من أهله . وعماله هناك فى أمصارهم يتمتعون بالثروة والسلطان . لم يسرع منهم أحد لنصرة الخليفة المحاصر .

ولا أدرى لماذا يعود الكاتب مرة أخرى الى التناقض فيقول . أن المسئول الأول والأخير عما تعرض له عثمان وأصحابه من الخطوب . انمـــا هى هـذه العبقرية الفذه التى أتيحت لعمر ولم تتح لأحد من أصحابه وفيهم عثمان . [1]

لماذا هذا التعميم فى الأحكام ؟ لا شك أن ظروف عثمان كانت غير ظروف عمر . وظروف عثمان هذه شارك فى صنعها ذلك التغير الحتمى الذى يطرأ على المجتمعات من عهد الى عهد . حقا أن « عمر » كان يمتاز بصفات عبقرية ولكن ظروفه كانت أفضل فقد تسلم الخلافة بعـــد أن أختاره « أبو بكر » بالذات وكان الطريق أمامه ممهدا . فقد قضى « أبو بكر » على المرتدين ، ومهـد له طريق الفتح فى العراق والشام . وتدفقت الأموال لأول مرة على بيت المال

---

(١) عثمان ، طه حسين ، ص ٢١٧

وعم الرخاء . وقوم مازال عهد النبوة قريبا منهم لم يفصلهم عنه الاخليفة واحد هو « أبو بكر » ومازالت نفوسهم عامرة بالايمان وبتلك النظرة المقدسة لكل ما يمس النبي وأصحابه من قريب أو بعيد . ولا ننسى أن النـاس لم يكونوا قد اختلطوا اختلاطا كافيا بغيرهم من الأمم ولم يداخل طباعهم شيء من نظم الحضارة المتقدمة زد على كل هذا طبعا شخصية « عمر » المتميزة .

لقـد ذهب جيل وأتى جيـل آخر . وضعف سلطان الدين بعض الشيء بانتهاء عهد النبوة وطرأت على المجتمع مفاهيم جديدة . لقد كان عهد «عثمان» من هذه العهود التي توصف بعهود الانتقال ومايتبعها دائما من قلق وبلبلة في النفوس هذا تغيير كان يفرضه العصر نفسة . ومن يدرى لو كان « عمر » قـد عاش نفس ظروف « عثمان » بكل هذه التغييرات من يدرى ما كانت ستكون عليه الأمور ؟ .

هذا الملك المترامى الأطراف . يضم بلادا لهـا من النظم والحضـارات المتقدمة مايفوق مافى قلب الخلافة نفسها . وكثرة من الجند والناس تستوطن هذه البلاد المفتوحة وتختلط بأهلها وتستقر فيهـا . وتتفتـح عيونهـا على ضروب من الحياة جديدة . ولا تنسى أن العهـد قد بعـد عن زمن النبوة وقتا أطول وأن أمور الدنيا قد شغلت النـاس عن أمور الدين . وأصبح الناس يطمحون الى نظام من الحكم غير هذا الذى يستند أكثر ما يستنـد على أشخاص كل مايميزهم هو صحبة النبي . كان الوقت يتطلب حاكما من نوع آخر . حاكما أقرب الى الدنيا منه الى الدين . حاكما يعتمد على سلطة القوة العسكرية أكثر من اعتماده على سلطة الدين . ولعل أكبر دليل على

هذا هو نجاح معاوية ، واخفاق « على » بعد ذلك بكل ماميز « عليا » من قرابته للرسول ومنزلته منه ، وسبقه فى الاسلام وجهاده وتضحياته ومع هذا كله لايحقق نصرا بينما « معاوية » المعتمد على القوه العسكرية الآخذ من أمور الدنيا أكثر من أمور الدين يحقق نجاحا ويملك السلطتين الدينه والدنيوية .

أذن فظروف الأمة لم تكن لتيسر أن يمسك بزمامها خليفة دينى ، لكنها أصبحت تقتضى ملكا قادرا متسلطا يسيطر على الناس بحد السيف لا بالدين .

ومن هنا كان « عثمان » ضحية للظروف أكثر ممن سبق من الخلفاء وشاء له قدره أن يكون فى هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة وهى مرحلة الإنتقال . وليس من الانصاف للرجل أن تقارنه « بعمر » كما حاول المؤلف أن يفعل .

والمؤلف نفسه لم يستطع أن يختم كتابه هذا عن « عثمان » قبل أن يطلق هذا السؤال الحائر الذى أن دل على شىء فانما يدل على أن الخليفه المقتول كان ضحية الظروف بالفعل يقول : « هناك مع ذلك سؤال لم يجب عنه القدماء إجابة مرضية ، بل لم يحاول أكثرهم أن يجيب عنه ، ولابد مع ذلك أن نظفر له بجواب . كيف ولماذا أبطأ عمال « عثمان » عن نصره حتى أتيح للثائرين أن يحاصروه فيطيلوا حصاره . وأن يقتلوه بعد ذلك ، فما بال هؤلاء العمال لم يسرعوا إلى نصرة الامام لمجرد علمهم بخروج من خرج من أهل أمصارهم ، بل وما بالهم لم يسرعوا إلى نصرة « عثمان » حين جاءتهم كتبه تطلب إليهم النجدة » .[1]

---

(١) عثمان : « طه حسين » ص ٢١٩

و « طه حسين » بهذا السؤال يؤكد أن الرجل كان ضحية الظروف بالفعل ، فكأن القوم جميعا قد أسلموا الخليفة المنكوب إلى أقداره السوداء . لماذا أبطأ العمال عن نجدته وهو الذى ولاهم وتحمل عنهم اللوم والمعارضة . وهو الذى أتاح لهم أن ينعموا بما نعمو به من استقرار وثروة وكان لديهم الجند وكانت لديهم القوة، لكن ماساندوه ولاعضدوه ! ، بل لماذا أبطأ معاوية صاحب الشام ، قد كانت لديه القوة والسيطرة فلماذا أبطأ حتى قتل الخليفة ، إلا أنه أكثر المنتفعين بقتله ؟ ! وهو الوحيد الذى لعب بتلك الورقة الرابحة ورقة الثأر للخليفة المقتول . كان بوسعه أن يتقدم لانقاذ خليفته ، ولكنها أحكام السياسة والحكم، تقاعس عن نجدته الصحابة والولاة بل وعامة المسلمين وهم يحجون ، تركوه وحيدا يواجه مصيره المحتوم ، وكل يطمح إلى فائدة من نهاية الخليفة ... آخر خليفة دينى للاسلام ؟؟!

رحم الله « عثمان » فما كان إلا من الأبرار ، انمـــا تألبت عليه الظروف وعوامل ماكان لمثله أن يصمد لها .

وبنهاية « عثمان » الدموية هـذه يختم « طه حسين » أولى حلقات الفتنة ولم يركز فى كتابة عن « عثمان » إلا على تلك السيرة السياسية لم يظهر لنا من « عثمان » وشخصه إلا لونه السياسى . فلم نعرف من « عثمان » الانسان شيئًا المهم إلا تلك الصفات الحميدة التى وصفه بها المؤلف ،وهى صفات عامة يشترك فيها كل هؤلاء النفر من صحابة رسول الله .

لكنه فى السيرة السياسية نجح تماما فى إعطاء صورة واضحة تكشف تلك الحقيقة التى اختلف عليها الناس،وخاصة بشرحه للتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى طرأت على ذلك المجتمع .

ولكنه لم ينصف « عثمان » بادخاله دائما فى موازنه مع « عمر » ولو أنصف لرجع إلى كلماته هو نفسه من تغير الظروف من عهد « عمر » إلى عهد « عثمان » وإلا لما أطال وفصل فى أوجه التغيير الذى حدث؟ ولكن يبدو أن شخصية « عمر » وعقليته الفذة كانت تؤثر فيه إلى درجة كبيرة جعلته ينسب كل ما أصاب « عثمان » إلى قصوره أن يبلغ تلك العبقرية .

والكتاب على كل حال تاريخ سياسى للخليفة المقتول « عثمان بن عفان » يمكن تجاوزا أن نعده سيرة سياسية أو تاريخية لذلك الخليفة تتناول جانبا من حياته الشخصية ولا تتناولها جميعا .

* * *

علـــى وبنـــوه

مع علـى

وتتمة للتأريخ لهذه المرحلة فى تاريخ الأسلام والتى بدأها « طه حسين » بمأساة ،، عثمان ،، يكتب الجزء الثـانى عن « على » وبنيه .

ويستأثر ،،على ،، بالقسط الأوفر من أحداثها، باعتباره الوارث الأول لهذه التركة المثقلة التى خلفها « عثمان » .

لهفى على الإمام ،، على ،، . كأنك يوم جئت جاء معك قـدرك . فقـد تجمعت ضدك عـوامل ماتجمعت فى وجه حاكم من قبلك ، ورثت مـيراثا قلقا مضطربا . دفعك القوم لأن تدخل فيما لا تود الدخـــول فيه ، ثم اذ بهم يحاسبونك لأنك دخلت فيما أرادوا لك ! ! .

ذلكم الامام الشهيد ، أبن عم النبى وأسبق الناس إلى الاسلام بعد خديجة، وأول من صلى مع النبي من الرجال ، ربيب النبى قبل ظهور الدعـوة ، من بات فى فراش الرسول ليلة ائتمرت قريش به ، ليلة الهجرة ، من آخى النبى بينه وبين نفسه وزوجه ابنته فاطمة ومن شهد مع النبى غزواته وكان صاحب رايته . من قال له الرسول : أنت منى بمنزلة هـارون من موسى ، ومن قال فيه فى حجة الوداع : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . هذا هو على يأبى قدرة ألا أن يلى الخلافة فى أشد المواقف عسرا وأكثر الأيام حلـكة .

ويبدأ المؤلف بابراز المشكلتين اللتين واجهتا المسلمين بعد مقتل « عثمان »

مشكلة الخلافة نفسها ومن يتولاها ، ومشكلة إقرار النظام واحقاق الحق وإنفاذ حكم الله فيمن قتل خليفة المسلمين .

قتل عثمان قبل أن يعهد بالخلافة إلى أحد ولو فعل ماقبل الناس عهده مات ولم يبق من السته الذين عين منهم ، أبو بكر ، مجلس الشورى الا ،،سعد بن أبى وقاص،، ،،الزبير بن العوام،، ،،وطلحة بن عبد الله ،، و ،،على بن أبى طالب،، وكان ،سعد ، قد أعتزل فيمن أعتزل فلم يبق سوى الثلاثة وأبرزهم ،،على،،.

كان على يهدىء دائما من ثائرة الثائرين « بعثمان »وكان يمد الخليفة بالماء أثناء الحصار ، وسفر أكثر من مرة بينه وبين الثائرين . وبعد مشاورات بين الثوار وبين من بقى من صحابة الرسول وكبار المهاجرين والأنصار .استقر الرأى على تولية ،،على،، .ورجحت كفته أكثر من كفة ،،طلحة،، و ،، الزبير،،.

وجلس ،،على،، لأخذ البيعة فبايعة الناس وأمتنع قوم فلم يأخذها منهم إكراها وبخاصة ممن أعتزل . ولكن الثائرين أخذوها عنوة من ،،طلحة،، و ،،الزبير،، حين أبيا . وعلى ذلك ظهر أن الأمر قد أستقر للخليفة الجديد . وهنا برزت المشكلة الثانية ،مشكلة الثأر للخليفة المقتول رأى كثير من الناس أغلبهم من الثائرين أن الخليفة مات ظالما فلا ثأر له ، ورأى قلة أنه مات مظلوما وعلى الخليفة الجديد أن يثأر له .

وكان الوضع عجيبا فى المدينة ، فالشىء الظاهر ان الأمر قد استتب ،،لعلى،، وقد ولاه الثائرون . وكانت المدينة ومن بها ماتزال فى قبضتهم ، ولكن هناك من يطالب الخليفة بدم سلفه .وفاتهم أن الذى قتل ،،عثمان،، هم هؤلاء الثائرين الذين ولوا عليا . فكيف يتسنى له الظفر بقتله ،، عثمان ،، من بين هؤلاء الثائرين ؟ وسمع ،، على ،، أن « محمد بن أبى بكر » متهم بقتل الخليفة فحقق معه فنفى وأقرته زوج ،، عثمان ،، نفسه على هذا . أثار البدء فى التحقيق تذمر

الثائرين فوقع ،علي،، في حيرة من أمره . فهو لا يعرف قاتلا للخليفة ، وهؤلاء الثائرون يقيمون حوله مايشبه الحصار ومن الخطورة أثارتهم مرة أخرى .

وعلى فوهة هذا البركان بدأ ،،علي،، عهده خليفة للمسلمين ، خلفا للخليفة المقتول . نفوس ثائرة ، وتسلط من الثائرين على عاصمة الدولة ، وغموض في موقف ولاة الأقاليم وبخاصة والي الشام صاحب أكبر سلطة بينهم وأقرب المقربين من و عثمان، وعماد البيت الأموى . عادت إلي الأذهان تلك الخصومة القديمة بين بنى أمية وبنى هاشم .

ويرى المؤلف أن ،و علياً ،،كان كفيلا بأن يسير فى الناس سيرة ،،عمر ،، ويحملهم على طريقة يقول : ، أمام هذه الأمور العظام وفى قلب هذه الفتنة المظلمة الغليظة وجد ،،علي ،، . نفسه كأحسن مايجد الرجل نفسه ، صدقا وإيمانا بالله ، ونصحا للدين وقياما بالحق ، واستقامة على الطريق المستقيم لاينحرف ولايميل ، ولا يداهن فى أمر الاسلام فى قليل ولا كثير وانما يرى الحق فيمض إليه لايلوى على شيء ، ولا يحفل بالعاقبة ولا يعنيه أن يجد فى آخر طريقة نجحا أو ينظر كتاب على و بنوه ص١٦ ولا أن يجد فى آخر طريقة حياة أو موتا،وإنما يعنيه كل العناية أن يجد أثناء طريقة وآخرها رضي ضميره ورضى الله .(١)

فالمؤلف يذكر هذا ليبين أن ،،عليا ،، لم يكن طامعا فى الخلافة ولا متكالبا عليها فلو أراد منذ البداية لنازع الشيخين فيها . ومن يدرى ؟ فربما كان كتب له الفوز . لقد حاول عمه ،، العباس ،، أن يدخله فى الأمر بعد وفاة الرسول ، وكذلك حاول ،،أبو سفيان ،، وهو لم يرد هذا ايثارا ،،لعلى ،، بل كرها أن يخرج الأمر من بني ، عبد مناف ، الذى ينتمي اليهم هو نفسه . ولكن ،، عليا ،،جنب المسلمين الفتنة ولم ينازع ،، أبا بكر،، وسارع لمبايعته. كذلك لم ينازع ،،عمر ،، من بعده وسارع إلى مبايعته . ولما طعن ،، عمر،،

---

(١) على وبنوه : ،طه حسين ، ص ١٦ دار المعارف ٦١

وجعل الأمر فى هؤلاء الستة لم يشك فى أن الأمر سائر إليه . ولكن الأمر تحول إلى عثمان فسارع « على » إلى مبايعته وهو يحس أن له حقا مهضوما فليس من الغريب أن يفكر « على » فى نفسه بعد موت « عثمان » ولو أنه لم يطلب الخلافة لولا أن أستكره على ذلك حتى أن الثائرين هددوه أن يلحقوه بصاحبه أن أبى . فكان مضطرا إلى القبول خاصة قد نصح له بذلك المهاجرون والأنصار فقبل ولم يستكره أحدا على البيعة حتى « طلحة » و « الزبير » يرى المؤلف أنهما لم يستنكره إنما قبلا راضيين ولكنهما غيرا من تقسيمها حين لم يقتسم الخلافة معهما كما كانا يظنان .

حاول المؤلف أن يبين أن الحق كان فى جانب « على » فى الخلافة. ولولا هذه الظروف غير العادية التى قامت دونه لكان كعهده كعهد سلفه العظيم « عمر بن الخطاب » .

ولكن « علياً » كان يمشي على طريق الشوك . فهؤلاء الثائرون لم يهدفوا إلى تغير الخليفة وحده ولكنه استهدفوا تغيير السياسة كلها . والعمال أولا . وكان على « على » أن يواجه تلك المشكلة . فالشكوى كانت من عمال « عثمان » ذوى قرابته ، ولم يكن فى وسع الخليفة الجديد أن يقرهم فى أمصارهم بعدما كان من أمر هذه الفتنة التى قامت بسببهم .

وهكذا كان ، فقد اختار « على » عماله الجدد ممن يعلم رضا الناس عنهم وسار العمال إلى أمصارهم ولقى بعضهم من المقاومة مالقى ولكن عامله على الشام رد عليه بقوة السلاح ، فأرسل « على » إلى « معاوية » رسولا يطلب منه البيعه ويطلب اليه الحضور إلى المدينة ، ولكن معاوية لم يرد وآثر التربص ويعرفنا المؤلف بمعاوية بعد أن عرفنا « بعلي » بكل ما وصفة به . !

أما عن معاوية فيقول : ومهما يقـل الناس فى « معاوية » من أنه كان مقربا الى النبى بعـد إسلامه ، ومن أنه أخلص للاسـلام بعـد أن أناب اليه ونصح للنبى وخلفائه الثلاثة ، مها يقل الناس فى « معاوية » من ذلك ، فقـد كان « معاوية » هـــو أبن « أبى سفيان » قائد المشتركين يوم أحد ويوم الخندق وهو أبن هند التى أغرت بحمزة حتى قتل ، ثم بقرت بطنه ولاكت كبده وكادت تدفـع النبى نفسه إلى الجزع على عمه الكريم » . (١)

واذا قدم الينا « معـاوية » بهـذه الصورة فنحن نتوقع مسبقا الموقف الذي سيتخذه هذا الأمير الأموى من الخليفة الهاشمى ونكاد نرى تلك الأطماع التى تملأ قلبه . وقـــد اقترب المؤلف بعض الشىء من أشخاصه هذه المرة وقربنا معه اليهم .

وأرجح أن هذا راجع للمكانة التى يحتلها « على » من نفسه ، فنحن نلمس تلك المكانة من طريقة تقديمه ,, لعلى ،،وطريقة قديمة « لمعاوية » . ولعله اقترب من شخوصه فى هذا الجـــزء أكثر من اقترابه منهم فى الجزء الأول « عثمان » .

ذلكم كان أمر ,,على ،، مع الثائرين والعمال و ,, معاوية ،، وزاد الأمر استحكاما أن تجمعت فى مكة معارضة ,, لعلى ،، خاصة بعد ماسمعه أهل مكة من حديث ,,عائشة ،، أم المؤمنين ضده لقد كان فى نفس عائشة منه ماكان ويرجع اليها السبب فى تأليب أهل مكة على ,, عـــلى،، . لقد خرجت مع

---

(١) على وبنوه « طه حسين » ص ١٤

من خرج ، مع « طلحة » و « الزبير » لمقاومة « على » والمطالبة بدم « عثمان » فكأنها بذلك قد انضمت لمعاوية ، هذا الذى استغل الموقف لنفسه . ويعلم الله « أنه ماكان يريد الثأر لعثمان بقدر ماكان يريد أن يصرف الأمـــر عن « على » [1]

وظهر « على » وجيشه على جيوش « طلحة » و« الزبير » و « عائشة » ولكن بعد يوم لم ير المسلمون مثله نكـــرا . وكان فى ذلك القتال فائدة « لمعاوية » بلا شك فقد أنصرف « على » لحرب الصحابيين وأم المؤمنين مما أوهن قواه ، وبقى هو أقوى الجميع .

وخرج الخليفة منهوك القوى أثر حرب مريرة تنوشه الأحقـاد ويطالبه بالثأر أولياء قتلاه . و « معاوية » مستقر موفور المـال والعافية وجنـده لم يرهقهم قتال . لقد عرف كيف يسير فى الناس سيرة تقربهم منه وتحببه اليهم ، ذلك الرجل السياسي الماكر قال : لو كان بينى وبين الناس شعره ما انقطعت . اتبع معهم طريق الترهيب والترغيب حتى ملك أمرهم فاستكانوا فى كنفه ، ولم يكن أنصاره من أهل الشام وحسب بل انضم اليه جمـاعة من الحجـاز نفسه من بنى أمية .

ويطلب أصحاب « على » من أهل الكوفة أن ينهض بهم لملاقاة عدوهـم فى الشام فيأبى ويرسل السفراء يدعون « معاوية » إلى الطاعـة والدخول فيما دخل فيه الناس حقنا للدماء .

---

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ٣١

ويرد « معاوية » على « على » برسالة قاسية اللهجة فيها ما فيها من التحدى، وطالبا اليه تسليم قتلة « عثمان » والا فليس بينهما الا السيف !

ويقول « طه حسين » أنت ترى من كتاب « معاوية » أنه لم يكن يريد سلما ولا عافية وإنما كان يريد أن يعذر نفسه عند أصحابه من أهل الشام وعند المترددين المتأثمين منهم خاصة ، فطالب السلم والعافيـة لايكتب إلى خصمه ليؤذيه ولاليحفظه ولا ليغيظه ويثير فى نفسه الموجدة والشنآن » (١)

ويحلل المؤلف شيئا من نفسية « معاوية » على ضوء تصرفاته . فهو يعرف أن « عليا » لايعلم من أمر قتلة « عثـمان » شيئا ويعلم أيضا أن فيما كتب تحديا سافرا للخليفة ، ويعلم جيدا أن هذا ليس بمسالك من يريد السلم . كل هذا كان يعلمه ولكنه أراد أن ينبه أهل الشام إلى أن الحرب ضرورية .

ويتوقف المؤلف فى مواقف من الأحداث التى جرت بين الرجلين ويقدم لنا براهينه على تباين أخلاقهما . فهذا « معاوية » حين سيطر على الماء فى « صفين » ويريد أن يحرم « عليا » وجيشه من الماء . واقتتل النـاس على الماء فكان النصر « لعلى » ولكنه يتيح الماء لخصومه يشربون منه فشتان بين أخلاق الرجلين .

وفى موقف آخر يكشف عن أخلاق « معاوية » حين يلجأ إلى حيلة رفع المصاحف على الأسنة . و « على » يعلم أن القوم ليسوا بأصحاب قرآن ولكن قومه يرغبون فى قبول التحكيم ، والمؤلف حريص أن يظهر « عليا » بالرافض لهذه المكيدة لأنه كان على درجة من رجحان العقل بحيث يستطيع

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ٦٦

أن يستشف روح القوم وقد فطن إلى أن رفعهم للمصاحف لم يكن سوى كيد يتقون به الهزيمة .

ويعرج على شيعة « على » أو جنـده ويرى أن بعضـا منهم لم يكونوا مخلصين له إخلاصا حقيقيا لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين .

ويلقى الضوء على هـؤلاء الذين نهضوا مع « على » فيرى أن أكـثرهم كانوا عثمانية لايقاتلون عن رضا وصدق مع « على » وربمـا كانوا حاقدين عليه لأنه قتل من قومهم كثير فى موقعة الجمل واضطر من عاش إلى الهزيمة ، لذلك لم يكن القوم حول « على » مخلصين له الاخلاص كله .

وإلى هنا ينظر بنظرة المؤرخ الواعى للأمور لكنه يغـالى بعض الشيء حين يتصور أن مالقى « على » من لعبة التحكيم كان نتيجة مؤامرة بيتت بين أهل العراق وهم جند « على » وأهل الشام من جند « معاوية » .

يقول : أنهم دبروا أن يقتتل القوم ، فان ظهر أهل الشام فذاك . وإن خافوا هزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب « على » ، وجعلوا بأسهم بينهم شديدا . وقد تم لهم مادبروا ان كانوا قـد دبروا شيئا » [1] . بل انة ليغالى فى سؤ الظن فيقول : « وأكبر الظن عندى كذلك أن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد وانما تجاوزته إلى ماهــــو أشد منه خطرا وهو اختيار الحكمين » . ويقول : « وقد كان « على » إذن كرها على قبول التحكيم ومكرها على اختيار أحد الحكمين ولم تأت الأمور مصادفة وإنمـــا جاءت عن ائتمار وتدبير بين طلاب الدنيا من أصحاب « على » وأصحاب « معاوية » جميعا » [2]

---

(١) ، (٢) على وبنوه : « طه حسين » ص ٨١ ، ٨٢

ولا أرى الا أن هذا غلو فى الافتراض ، بل لعله اسراف فى الخيـــال أيضا ، ولم يكن من المقبول أن يفترض رأيا كهذا . والمقبـول أن « عليـا » أكره على قبول التسليم إكراها ملا من الناس للقتال ولهفة على السلم ، أما أن يتفق الطرفان المتخاصمان على شيء كهذا الذى يقوله ، أن يقتتل القوم فان ظهر أهل الشام فذاك ... ... فهذا شيء غريب لايعدو وأن يكون أكـثر من ظن أو افتراض .

ومن هـذا الاسراف القول بأن من أصحاب « على » الذين خاضوا القتال إلى جانبه قوما غير مخلصين ، وكيف وقد خرجوا معه معرضين للقتل وللأسر ؟؟ .

وهكذا يعرض « عليا » فى موقف لايحسد عليه : لقد تنازعته الأهواء والمطامع وأحاطت به الأخطار من كل جانب . عدوه متوحد الصف وهو موزعة ، وأهله يدب فيهم الخلاف والعصيان ، كلمتهم مفرقة يضطرونه إلى النزول على هذا الرأى . ماكان بوسعه ان يفعل شيئا وزاد فى سوء موقفـه خروج طائفة جديدة عليه من بين صفوفه وجماعة تعلن الرفض والعصيان تنضم إلى عدوه . ويتكاثر الأعداء وتتشتت جهوده بعد أن غدر « عمر بن العاص » به وبحكمه الذى ارتضاه قومه دون إرادته ، وخلع « عليا » من الخلافة وثبت فيها « معاوية » . وأصبح واليا عاصيا يحارب من ينازعه سلطانه ومن يتسمى باسم أمير المؤمنين .

واضطر الخليفة المسكين أن يحارب أولا هؤلاء الخـوارج الذين كانوا يرون انه لا يقاتل لله وانما يقاتل لنفسه ويطالبون منه أن يشهد على نفسه بالكفر

ثم يتوب كما تابوا فان فعل ذلك فهم معه على عـدوه والا فليس بينهم وبينه الا السيف . فمضى « على » لحربهم وقتل منهم كثيرا .

وبدا ظاهر الأمور أنه لم يعد له عدو سوى هؤلاء أهل الشام وأميرهم . ولكن . . . . لم يكن جيشه المتبقى المنتظر الا من أهل هؤلاء القتلى وما أكثر أبناء الأعمام الذين قتل بعضهم بعضا .

كان يوم النهروان حزينـا كئيبا أشاع فى نفوس الناس التراخى عن نصرة الامام الذى حاربوا تحت رايته فأورثهم ذلك الحزن والهم والجـزع لفقد ذوى الأرحـــام ، فإذا القوم يتخاذلون عن نصرته وإذا هم يتفرقون فرادى وجماعات .

وفطن المؤلف الى ماجرى فى نفوس الناس . فالانسان العربى لايخاف الحرب ولا يرهبها وكان يخوضها فاتحا بلادا للاسلام ليعلى كلمة الله . وفيها كان يقبل على الحرب تحت راية الخليفة ونفسه راضية متقبلا الشهادة لأنها فى سبيل الله . أما « علىّ » فهو منـــذ أن نهض بأمر الخلافة لم يدفـع جيوش المسلمين من أصحابه الا الى هذه الحرب الوبيله التى تقطع الأرحام وتوهى العرى وتفسد الصلات التى يجب أن ترعى ، حرب الآباء للابـناء وحرب الإخوان للاخوان وحرب الصديق للصديق والولى للولى » . (١)

وكأنه يلتمس للناس العذر للتخاذل ، كأن لهؤلاء الناس الذين تفرقوا عن وليهم عذرا ! وكم كان يخطب فيهم . وكم كان يدعـوهم ولكن مامن مجيب . وإذا . « معاوية » يغير على خارج أقاليم العراق وينقض أطرافها والامام محزون مخذول لأن أصحابه يريدون أن يطيعونه ولا أن ينصروه بل أنهم فرغوا إلى أنواع من الجدل متناسين بذلك همهم الأول .

« حتى جاء نفر منهم ذات يوم يسألونه عن رأيه فى « أبى بكر » رضى الله عنه ، وقال لهم محزونا : أوقد فرغتم لذلك ، وهذه مصر قد فتحها أهل الشام وقتلوا واليها « محمد بن أبى بكر » . (١)

تجمعت المحن حول « على » ، من كل جانب ولم يكن انتصاره فى النهروان قاطعا حاسما ، فاذا الخوارج يعيشون معه فى البلاد موتورين لهم عنده ثأر . وهكذا كانت الدنيا تد لهم حول « على » وتضيء حول « معاوية » .

ويعود المؤلف بعد أن عرض لموقف كل من «على» و « معاوية » وما أحاط به من الظروف ليشرح الفروق بين مذهب « على » فى السياسة وهو الاخلاص للدين ، ومذهب « معاوية » فى السياسة وهوالاخلاص للدنيا ، محاولا اقناع القارىء أن العصر كان يتطلب حاكما من نوع آخر غير هذا النوع من الحكام الدينيين الأوائل،وما كان عهد «على» إلا تقدما بعهد«عثمان» ذلك العهد الذى تغير فيه الناس . فالرجال اليوم لايرضون الا بالملك ، لم يعد بعد مكان لإمام أو خليفة . انهم لاينشدون الاحاكما يعطى ويمنع ، حاكما يعرف مايبتاع منهم ثم يدفع .

هناك اذن تغير فى ظروف المجتمع الإسلامى والحياة الإسلامية أدت إلى ضرورة التغير فى شخصية الحاكم ، هكذا أراد « طه حسين » أن يكون . فأطلعنا على أحكام العصر الجديده اذ تورات القيم والمثل وتوارى الدين بجلاله وظهرت المطامع والأهواء واذاد التهالك على السلطة ، وما عاب «على» الا أنه سار سيرة الامام .

---

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ١١٢

وأظهر « طه حسين » تعاطفه مع « علي » واقترابه من شخصه حين يقول:
ومضى امتحان « علي » على هذا النحو المر ، خيانة من الولي وكيدا من العدو وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة لا يرض الدنية من الأمر ولا يدهن في دينه ولا يتحول عن سياسته الصريحة قليلا ولا كثيرا والمحن تتابع عليه ويقفو بعضها أثر بعض وهو ماض في طريقه لا ينحرف عنه » (١)

حقا ، لقد خانه الولي ، خانه أبن عمه « أبن عباس » وخذله وتخلى عنه وترك في نفسه حزنا لاذعا وأسى ممضا ولو أقام على عهده ، لكان أدعى لأن يهابه عدوه ، ولما أصبح هذا الملك مضيعا من أصحابه . تركوه نهبا لمن يريد . فقد عملت رسل « معاوية » في البصرة أذكت نار العصبية فظهرت بوجهها القبيح وما العجب وقد تركها واليها « أبن عباس » ورحل فأضعف بذلك أبن عمه وأطمع « معاوية » فأخذ في هذه المناوشات بمجاميع بسيطة من الجند في غارات سريعة خاطفة ، لكنها كانت تترك في القوم آثارا بالغة ،حتى هلعت النفوس وأصبح مجرد استمرار الحياة أملا لا ينال، وظهر الامام بمظهر الضعيف والعاجز عن توفير الأمان لرعيته .

ولم يكفهم هذه الغارات التي كانت تؤرق ليلهم وتشغل نهارهم وتزيدهم حبا في السلم وفزعا من الموت ، انما هناك هؤلاء الخوارج الذين توالى خروجهم حتى لا يهزم الرجل منهم حتى يخرج غيره ، وعاش «علي» وأهل العراق وهم موزعون بين عدو داخلي قريب ، وعدو خارجي قوي كسر شوكتهم ، وعرف أنه قادر عليهم بل أنه يرسل عنه من يحج بالناس بعد أن لمس عجز خصمه عن الدفاع حتى داخل حدوده .

وهذا هو اليأس يبلغ « بعلي » أقصاه حتى أنه ليخبر الناس أنه ماض

لحرب أهل الشام حتى ولو أدى ذلك أن يمشى بمفرده حتى يلقى الموت فى الحق.

ولكن قوما من الخوارج يأتمرون ويقررون قتل «على» و «معاوية» و «عمرو بن العاص» ظنا منهم أن فى زوال هؤلاء الثلاثة راحة للمسلمين ، ويخطىء صاحب «معاوية» ويخطىء صاحب «عمرو» ويصيب صاحب «على» فيقضى عليه .

وبهذا العرض يتضح ان المؤلف يحكم قاعدة التغير الحتمى للمجتمعات الانسانية طبقاً لقوانين علم الاجتماع والسياسة وحركة التاريخ .

وبتحليل منطقى للأمور يفرض على الواقع التاريخى ظلا من تفكيره المنطقى فهو يرى أن الفشل الذى أصاب «معاوية» لم يصبه وحده ، وانما كان إخفاق «على» اخفاقا للنظام الذى بدأه الرسول وسار فى طريقه الشيخان من بعده . وظهر ان ذلك النظام المتميز الذى انفرد من بين كل هذه النظم قد هوى الى الأبد . ويرى أيضا أن الفشل الذى قدر «لعلى» ولنظام الخلافة قد قدر أيضا لتلك الثورة التى أراد أصحابها التمسك ببقايا نظام الخلافة ، فاذا هى أيضا تنتهى بأصحابها الى قبول نظام جديد له مقومات أخرى مختلفة تماما عن سابقه .

والمؤلف يلقى تبعة ماحدث على ذلك التغيير الطبقى التطورى الذى حدث فى نفوس الناس أولا . وقد شرح الظروف التى أودت بنظام الخلافة كله ولكن بنظرة المتأمل للأمور بعد مرور الأحداث بزمن طويل .

يرى أن الفتح كان مصدر قوة ومصدر ضعف للدولة فى وقت واحد . كان مصدر قوة بما يوفره من المال ، ومصدر ضعف لأنه ضم كثرة من

الناس لا يؤمنون بهذه الدولة الجديدة وان هابوها . ويفسر سلطان المال وفعله فى هذه النفوس الباديه فى تسلسل لطيف . يقـــول : الابتسام للمال يغرى بالاستزاده منه . والاستزاده منه تفتح أبوابا من الطمع لاسبيل إلى أغلاقها وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البغى ووجد معه زميل آخر هو التنافس . ووجد معه زميل ثالث هو التباغض والتهالك على الدنيـا . وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذى يحرق قلوب الذين لم يتح لهم من الثراء ما أتيح لأصحاب الثراء . وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون أرضاءه على حساب المحسودين وحاول المحسودون حمايه أنفسهم . وكان الشر بين اولئك وهؤلاء » (١)

ويرى أن هذا ماحدث أيام «عثمان» . فثار الناس بولاتهم وأدت ثورتهم هذه إلى الثورة بالخليفة نفسه . وقد حاول «على» أن يرد الناس ويسير بهم سيرة «عمر» ، ولكن أيام «عمر» كانت قد انقضت بغير عودة .

هنا . وبهذه العبارة يبرز «طه حسين» دور التطور الحتمى فهو يعترف أن أيام عمر كانت أياما غير هذه الايام وأراد بذلك انصافا «لعلى» ، وأن كان لم ينصف «عثمان» ، حين أدخله فى هذه المقارنة غير العادلة مع «عمر» ، لأنه لم يؤكد وقتها أن أيام «عمر» كانت أياما غير هذه الأيام .

يقول : كل شيء اذن كان يدل على أن سلطان الدين على النفوس لم يكن من القوة فى المنزلة التى كان فيها أيام «عمر» وعلى أن سلطان المال والسيف كان قد استأثر بالقلوب والنفوس ، وكل شيء يدل على أن «علياً» والذين ذهبوا مذهبه من المحافظين على سيرة النبى والشيخين أنما

(١) على وبنوه : طه حسين ص ١٥٨

كانوا يعيشون فى آخر الزمان الذى غلب الدين فيه على كل شىء فقل اذا فى غير تردد أن أول الظروف التى كانت تقتضى أن يخفق « على » فى سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين . وتغلب سلطان الدنيا على هذه النفوس » (١)

إذن فقد كان « على » سائرا إلى النهاية المحتومة نفسها بقدر لم يصنعه . بقدر كان مقرراً محتوما باعتباره آخر ممثل لذلك النظام الدينى الذى أفلت شمسه وولى زمانه . وكان « معاوية » أيضا سيصل إلى ماوصل اليه باعتباره أول ممثل لذلك النظام الدنيوى الذى أقبل زمانه وأخذت شمسه فى البزوغ . وكما قال المؤلف كان «على» يدير خلافه وكان «معاويه» يدير ملكا . وكان عصر الخلافة قد انقضى ، وكان عصر الملك قد أظل ، . (٢)

وبنظر المؤرخ الواعى عرف أن موت « على » لم يكن إلا راحة له وحده . وأن هذه النهاية التى ربما بدت للبعض وكأنها قد وضعت حدا لهـذا الشقاء الذى اكتنف الأمه الإسلامية ماكانت فى الحقيقة إلا بداية طريق شاق طويل متشعب المسالك .

ويفسر عواطف الشيعة ومبعثها وبدء تكوين الحزب العلوى تفسيرا إجهاديا نظرا لغموض تاريخ هذه الفتره . وقد حاول أن يتوخى الحـــق . وأمانة العرض ولم يظهر ميلا شخصيا أو تعاطفا أنما يصف تجمع الشيعة ويجعل نقطة انطلاقهم تنبعث من طول هذه المعاناه وثقل المحنة التى امتحن بها « على » ، وأبناءه من بعده ، وقد أصاب ، فلو انه كان « لعلى » حزب منظم وشيعة خاصة

---

(١) على بنوه : د.طه حسين ، ص ١٦١
(٢) المرجع السابق ص ١٦٥

فى حياته لسارعت لنصره على عدوه، لم يكن له حزب بالمعنى المفهوم ، إنما كان له فقط أنصار وأتباع. أما بعد مقتله ومقاستهم ماقاسوا من ولاة بنى أمية، ذكروا إمامهم ذاك العطوف وندموا على تقصيرهم فى حقه ونصره فاندفعوا لا إراديا الى حبه واكباره واجلاله ورفعة شأنه، على" ذلك يكون تكفيرا عما قدموه من أساءة له فى حياته ، ولكن هيهات فقد فات الأوان ومضى « على » وهو محزون مقهور ضيق بنفسه وبأصحابه .

... ...

ورأى المؤلف أنه قد وفى هذه الفترة من التاريخ حقها . تلك الحلقة من حلقات الفتنة التى بدأت « بعثمان » ودخل فيها « على » ، ولم تنته بعد بموته . والحقيقة أنه وفى شخصية « على » حقا، وأرخ للفترة السياسية كلها التى أظلت « عليا » . بل انه مهد لها ذلك التمهيد الطويل من شرح كل الأوضاع ، ولم يفصل بين سخصية «على» وأحداث التاريخ انما جعل منها مزيجا واضحا من ذلك التفاعل القوى بين الإنسان والواقع . فبدأ بصورة المؤرخ المتنبه الذى لاتفوته حادثه مهما بدت صغيرة أو قليلة المغزى . لقد مزج بين « على » وواقعة ، وقدمها على تلك الصورة الحزينة التى رآها أصدق صورة لتلك الفترة من الزمان الذى أظل « عليا » .

ويظهر على استحياء ذلك التعاطف الذى يكتب به المؤلف . والحق أنه كان يحاول أن يتحرى الحقيقة فيما قدم من وقائع ، وأراد أن يجلو وجه الحقيقة المجرد فى هذا العرض التاريخى . لكننا نلمس حبا خفيا وتقديراً محسوسا للامام المظلوم . ونلمس هذا من نبرة الحزن التى يكتب بها تاريخ « على » فهو لم يقدم سردا أو عرضا مجردا للأحداث ، ولكنه لونه بشيء من

الأسي والشجن جعله طابع المؤلف كله . وما الاسي والشجن الاصدى لتعلق نفس الكاتب بذلك الانسان الذى صور محنته على صفحات كتابه . فهو حين يشرح أحاسيس «على» مثلا فى احساسه بالغبن منذ يوم البيعة الأولى ، تحس به يشاركه فى الاحساس بهذا وكأنه يريد أن يؤيد حقه بالخلافة منذ الخلافة الأولى.

وقد أرخ «لعثمان» فلم يقترب بنا من شخصه كثيرا وانما برزت الأحداث كأنها الهدف الأول والأخير من الكتاب . وتوارى شخص «عثمان» خلف أحداث الفتنة كأنه لم يكن هو باعثها الأول . أما «على» فهو بشخصه مع الأحداث فى مكان البروز والاستقطاب . بل جعلنا ونحن نقرأ وقائع الأحداث نتعجل السطور حتى نصل إلى ذكر «على» منها لنعرف وقعها عليه وندرك طريقة تفكيره ، ونسمع كلماته تلك التى كان يوجهها إلى قومه. وحين كان يرتد بنا إلى ماقبل تلك الأحداث كنا نرتد معه باحثين عن شخص "على" فى هذه الوقائع السابقة القديمة لتكون على مقربة منه نشاركه آلامه واحساسه

وقد اقترب أكثر من شخص «على» وتبين لنا سيرته مع عماله ، وكيف حاول أن يحيى سنة النبى والشيخين فى ذلك ؛ كيف كان شديد المراقبة عليهم قاسيا فى حسابه لهم ؛ يرصد لهم الرقباء ولم يكن من السذاجة حيث يظن خصومه ولم يكن سهل الغفل كما يظن به المسرفون عليه وعلى أنفسهم . وانما كان من بعد الغور ونفاذ البصيرة والوصول إلى أعماق النفوس بحيث كان غيره من مهرة العرب ودهاتهم ولكنه كان يؤثر الصراحة والصدق فى مواجهة الحقائق على نحو مستقيم من التفكير وكان يرفع نفسه عن المكر

والـكيد والدهاء نصحا لدينه واستمساكا بأخلاق الرجل الـكريم » . (١)

وسار « علي » فى عماله هذه السيرة الحازمة ، يشجع من أحس منهم ويلوم المسيء فيهم ولايحابى أحـدا على مصلحة المسلمين حتى ولو كان ابن عمـه « ابن عباس » واتـبع نفس السيرة مع الناس . يقترب منهم أشد الاقتراب مادواموا يسيرون فى طريق الحق . ويبعد عنهم أشد البعد لوجانبوا الحـق وأجرى فيهم أحكام الله إذا انحرفـوا عن طريق الصواب . يرى أدلة على ذلك من قصص وروايات تؤيد تحليله لشخص « على » كان يعرف حــق الناس فى الحرية فلم يستكره منهم أحدا على الطاعة ولا البيعة ولا حق الحرب ولم يكره أحدا على الاشتراك معه . فى موقعة الجمـل ولا حرب صفين ولا حرب الخوارج ، لم يفرض على القوم تجنيدا إجباريا أو استهواهم بمال أو أطمعهم بسلطـان لكنه كان يترك لهم الخيـار ، من رأى منهم أنه على حق فليتبعه فى حروبه هذه . كان يريد ممن يناصره أن يناصره عن اقتناع وعقيدة . ولم يقسم فيهم غنيمة حرب الا ماكان يجلب من العدو ومن خيل وسلاح حتى قال قائلهم « أباح لنا دماء العدو ولم يبح لنا أموالهم » . (٢)

وأطلعنا بهذا على نفسية الرجل وتكوينه الشخصي ممـا جعلنـا نقول انه اقترب من شخص « علي » أكثر مما اقترب من شخص « عثمان » وشتان بين أن يكتب الكاتب عن شخصية تاريخية ليس لهـا أثر فى نفسه ، وأن يكتب عن شخصية أخرى يتعلق بها ويؤثرها بالمحبة .

---

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ١٤٩

(٢) علي وبنوه : « طه حسين » ص ١٣٥

فهو حين كتنى عن محنة « عثمان » ، لم يدخل فى نفس « عثمان » يشاركه شعوره بل اكتف بأن سرد علينا العوامل التى تجمعت فى وجهه ففصلهـــا تفصيلا ، يفصل الوقائع من الخارج لا من داخل نفسية « عثمان » لكنــه قد فسر لنا الواقع من داخل فكر « على » وقلبه وشارك بنــا الامام فى محنته وقهره .

...

مــع الحسن بن على

وينتقل بعد ذلك إلى « الحسن بن على » ، فيقــدم بأنه رجل صدق ، يكره الفرقة ولم يحاول المشاركة فى أحداث الفتنــة أيام « عثمان » وإن قام دون الخليفة محاولا حمايته . وكان الحسن يرى لأبيه أن يعتزل الفتنة ويترك المدينة كلها حتى يستطيع أن يعيش فى سلام . ورفض « على » بالطبع لأنه كان يرى أنه صاحب قضية ولا بد أن يسير بقضيته إما إلى نجـــح أو إلى خسران ، المهم أن يمضى فى طريق الحق . ولم تكن القضية فى نظره قضيــة شخصية أنما هى الحق نفسه ، إما أن ينتصر الحق وإما أن يخفق . هكذا كان تصور « على » .

أما « الحسن » فقد كان يرى الأمــور بنظرة أخرى ، واذا كان قد لزم جانب أبيه يؤازره فما كان الا مراعاة لواجب الأبوة واعترافا بحق أبيه عليه لا اقتناعا بالأمر كله . لذلك لم يعرض الحسن نفسه لبيعة ما لولا أنه وجــد نفسه يبايع من الناس ، ثم لم يحبذ أمر الحرب ، والعجيب أن من تخاذلوا عن « على » بالأمس هم من رغبوا فى الحرب اليوم ! ولكن الرجل لم يكن رجل

حرب ، لذلك فاوض منذ ولى « معاوية » ، وكان الصلح . وناشد قوادة أن يدخلوا في طاعة « معاوية » الذى كان قد مهد لنفسه بشراء معظمهم بالمال والاغراء بالحكم .

ويعود المؤلف مرة أخرى إلى ذلك التغيير الذى حدث في الناس ويلقى الجزء الأكبر من المسئولية فيما حدث من أحداث الفكر على هذا التغيير . فترى بذلك أنه لم يكن بد من أن تسير الأمور إلى ما سارت اليه . فإن الفتح جعل العرب يختلطون بغيرهم من الأمم فكان لابد وأن تسير الأمور إلى إحدى اثنين « اما أن يقهر الغالبون، فيعربوا هذه الأمم المغلوبة ، واما أن يقهر المغلبون فيفتنوا هذه الأمة الغالبة . وقد فتنت الأمة الغالبة عن كثير من أمرها فأعرضت عن خلافتها وعن سنتها الرشيدة ودفعت إلى الملك تقلد فيه قيصر وكسرى أكثر مما تقلد النبي والشيخين » (١)

وهو بهذا يؤكد نظرية التطور الحتمى التى استند اليها في تفسير الأمور كلها .

فالناس بايعت « الحسن » ، لكن أشرافهم وسراتهم كانوا يتصلون « بمعاوية » ويتقبلون هباته، ويمهدون له الطريق ! فقد كان « معاوية » في نظرهم المبشر بالنظام الجديد الذى يتماشى مع روح العصر والذى يتماشى مع إرادتهم نفسها .

وأرى أنه ربما كان « الحسن بن على » على درجة من نفاذ البصيرة بحيث أدرك هذه الحقيقة ، وقد رأى أباه يخفق ذلك الاخفاق الذريع فعرف أن

---

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ١٨٠

مصيره سيكون الاخفاق نفسه لأن الحيـاة تؤذن بتغيير ، وتقف على أبواب عصر جديد والناس مقبلون على سلطان جديد هو سلطان الدنيا ولذاتها . فلم ينخدع ولم يغتر بتأييد الناس لأنه يعلم أن هواهم هناك مع ممثل الزمن الجديد « معاوية » . وكان يقول لأهل العراق تلك الكلمه التى تدل على فهم للامور ووعى بخدع السياسه « أنتم أكرهتم أبى على الحـــرب ، وأكرهتموه على التحكيم ، ثم اختلفتم عليه وخذ لتمـوه وهؤلاء وجوهكم وأشرافـكم يفرون الى « معاوية » أو يكتبون اليه فيما يعينه فلا تغرونى عن دينى » . (١)

والحقيقة أن المؤلف لم يتوقف عند هذه النقطة ليجليها . هل كان الحسن بن على « على درجة من الحـذق بحيث يثقب بنظـره خفايا السياسة ويتنبـأ بوجهتها ؟ أم انه كان غير حفى باحقاق الحق حتى ولو كلفه ذلك حيـاته كما عرفنا فى « على » ، وما سنعرفه فى « الحسين » ؟ أى الرجلين كان « الحسن بن على » ؟ ولم يجب المؤلف بما كنا نريد أن نعرفه من أمره وكل ماقاله فى هذا الشأن : « لم يكن قعود « الحسن » عن الحرب جبنا أو فرقا وانما كان كراهية لسفك الدماء من جهة وشكا فى أصحابه من جهة أخرى » . (٢)

وأنهى هذا الفصل القصير الذى كتبه عن « الحسن » دون أن يعطينا إجابة كافية لهذا التساؤل الذى ثار فى أنفسنا ولم يزد على أن أورد قوله حين دخل المدينة للائمية فى هذا الصلح : « كرهت أن ألقى الله عز وجل فاذا سبعون ألفا أو أكثر تشخب أوداجهم دما يقول كل منهم : « يارب فـــيم قتلت » . (١)

---

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ١٨٢
(٢) المرجع السابق « » ص ١٨٢

وبعد أعوام قليلة يخرج من يخرج فى وفود أهل الكوفة إلي الحسن فى المدينة معاتبه شاكيه محرضة على الحرب، ولكن «الحسن»، كعهده دائما رجل يتقى الفتنة بقدر استطاعته. ويقول «طه حسين»، أنه يعتقد أن ذلك اليوم الذى لقى فيه الحسن هؤلاء الناس من أهل الكوفة هو اليوم الذى أنشىء فية الحزب السياسى المنظم لشيعة «على» وبنيه. نظم الحزب فى المدينة وأصبح «الحسن» رئيساً له. ولا أرى إلا أن فى هذا صورة مبالغة، فلم يكن «الحسن» بالرجل الذى ينظم حزبا أو يعد له عدة، كيف وقد آثر المسالمة؟ فهو رجل سلام ولم يكن نصحه لأنصاره إلا تهدئة لهم حتى يقضى الله أمرا.

ولكن المؤلف يرى أن الحسن كان يأمر أتباعه بالسلم المؤقت حتى يستعدوا للحرب حين يأتى وقتها ويحين حينها. ولا أستطيع أن أطمئن لهذا الرأى، فسيرة «الحسن» كلها لا تدل على أنه كان ينوى تنظيم حزب، أو أنه يريد قتالا، ولو بعد حين. ولم ينظم الحزب عموما بالطريقة التى توهمها المؤلف منذ ذلك اليوم. انما الأمر كله أن أهل العراق قد ضاقوا بما رأوه من شدة «معاوية» عليهم فندموا على ما كان منهم أيام «على» وتضييعهم لحقه وندموا على صلحهم لأهل الشام. فلم يجدوا ما يهدىء من ندمهم إلا زيارة ابن الامام يقولون له ويسمعون منه. لم يكن الأمر أكثر من تجمع عاطفى حول ما بقى لهم من إمامهم الذى خذلوه لم يكن الأمر بالحزب المنظم القائم على سياسة معلومة كما تصورها المؤلف حين يقول: «وعاد أشراف أهل الكوفة إلى من وراءهم ينبؤنهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة ويهيئونهم لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتى الأمر باثارتها من الامام المقيم فى يثرب»[1]

---

(١) على وبنوه: «طه حسين»، ص ١٨٦

أى إمام ؟ أتصور أن الحسن نفسه لم يكن يعتبر نفسه اماما وإلا ماتنازل عن الأمر ، لقد كان رجلا يؤثر العافية وقد نصح لهم بعدم الخروج على السلطان ، لم يكن الأمر بهذه الصورة من التنظيم وإلا أين كان هذا الحزب المنظم الذى ينتظر الإشاره من الامام أيام « الحسين » ؟

فالمؤلف هنا يعطي صوره مبالغة للموضع كله ، لأن مرمأساة العلويين فى عدم التنظيم . فلم يظهر فيهم من استطاع أن يكون رجل سياسة بحق ، بحيث يسطيع تنظيم حزب منظم يسير وفق برنامج مدروس بحيث يسير بهم إلى الحكم . فله أن يقول كان هذا بدء للتقارب بين الشيعة حيث جمعهم شعور واحد من القهر والتقصير فى نصرة الامام والندم على مافات ليس أكثر من هذا . هو تجمع شعورى حول أهل البيت وليس حزبا سياسيا منظما بالطريقة التى يصفها .

المؤلف بنفسه عرض من أمر « الحسن » مالا يظهره رجل سياسة يدبر ويخطط . انما أظهره بصورة الرجل التقى الورع الذى يطيب له لين العيش ورغده فهو قد استطاب الاقامة فى المدينة بين زياراته لأمهات المؤمنين ، وجلوسه فى المسجد يعلم الناس ويعظهم بالسمع للسلطان ، على أمل أن تكون له الخلافة بعد « معاوية » حيث كان يعلم أن المسلمين ان يعدلوا به أحدا بعد وفاة « معاوية » ، ولكنى أرى انه كان يطمع فى الخلافة استنادا إلى ماكان بينه وبين « معاويه من اتفاق ، لا استنادا إلى خطه موضوعة يسطيع فرضها .

ومات « الحسن » ، ولا يعرف غير الله كيف مات ، وإن كان المؤلف لايستبعد أن يكون قد مات مسموما ، لأن هذه الطريقة شاعت على عهد

و معاوية ، لأن و معاوية ، كان يرى فى و الحسن ، العقبة الوحيدة التى بزوالها تخلص الخلافة لبنى أمية يتوارثونها . ولم يضع ، الحسين ، فى الحسبان. فليس له عهد مع و معاوية ، . أما الحسن فقد كان بينـه و بين و معاوية ، مشارطة

وبموت و الحسن ، التفت قلوب محبى أهل البيت حول هذا الباقى من نسل و فاطمه ، ، حول ، الحسين بن علي ، .

... ...

مـع الحسين بن على

ومنذ السطور الأولي عن ، الحسين ، يطلعنا المؤلف على ذلك التبان الواضح فى شخصيتى ، الحسن ، وأخيه ، الحسين ، . اختلاف فى الطبع والمزاج . والسيرة. كان و الحسين ، أشبه مايكون بأبيه. الا أنه كان من الفطنة وحسن تقدير الأمور . بحيث أنه لم ينقض عهده مع و معـاوية ، لأنه رأى أن الأمة كلها انقادت له ، وعرف هو كيف يسوسها متبعا فى ذلك كل وسيلة كانت.

وهنا نرى تلك الأوصاف التى وصف بها و الحسن ، من أنه أصبح زعـيما فعليا لحزب الشيعة ، وانه كان هناك حزب قـد تكون من الشيعه فانمـا قد بدأ بالحسين .

غير ، الحسين ، من نهج أخيه ، فقد أخذ ، معاوية ، وعماله بالنقد والتجريح وتبعه فى تلك بقية أتباعه ومحبيه واشتدت المعارضة حتى كادت أن تصبح ثورة. وأصبحت الكوفة مركزا للمعارضة وبالتالى غير ، معاوية ، وعماله سياستهم تجـاه الشيعة . فبعد ان كانوا يداهنونهم ما بقى ، الحسن ، تغـــيرت الحـال بمصير الامور إلى ، الحسين ، واشتدت المعارضة ، فأسرف

« معاوية » وعماله فى الشدة كل الاسراف

وظهر واضحا ذلك الاضطهاد الذى كانت الشيعة تلقاه ، والاضطهاد أكبر محرك للثورة ، والاضطهاد يعطف القلوب على هـؤلاء المضطهدين ويصبح عاملا فى انصراف القـلوب عن أصحاب السلطان ومن يمـدون يد البطش . لذلك عظم أمر الشيعة فى الأعوام الأخيرة من حكم « معاوية » . وأصبح بغض بنى أميه عاما بين الناس وبخاصة أهل العراق وذلك لأن « معـاوية » خالف ما أمـر به الله ورسوله حين عمد إلى استلحاق « زياد » بنسب « أبى سفيان » . كره الناس منه هذا ، لكنهم لم يظهرونه خوفا من البطش بهم .

وولى « زيادا » هذا أمر الكوفة والبصرة ، فسار فى الناس سيرة لم يعرفوها من قبل حتى ملأ القلوب هلعا وفرقا فزاد فى كراهية الناس لبنى أمية .

ويكتب « طـــه حسين » صفحات عن « زياد » وسياسته ليظهر بصورة واضحة ذلك المذهب الجديد فى الحكم بعد أن استحالت الخـلافة الى ملك .

وتمادى « معاوية » فى العنت ، وبمخالفة ماجرى عليه المسلمون بأن أخذ البيعة لابنه «يزيد» كرها ، ناقضا عهده مع « الحسن » يقول : طه حسين .. وكذلك استقر فى الإسلام لأول مرة هذا الملك الذى يقوم على البأس والبطش والخوفوا والذى يرثه الأبناء عن الآباء وأصبحت الأمة كأنها ملكا لصاحب السلطان ينقله إلى أحد من أبنائه كما ينقل اليــــه مايملك من وسائل المال وجامده . (١)

ويعزو المؤلف هذا التغيير كله إلى ما اكتسبه الإسلام والمسلمون من تلك البلاد المفتوحة يقول : « لم تكن الفتنة الكبرى إلا صراعا بين هذه الطبيعة الاسلامية

العربية وطبائع الأمم المغلوبة التى ظهر عليها المسلمون » (١)

ونرى أن « طه حسين » يركز دائما على هذا العامل (عامل التغير) ويفصله من جميع جوانبه الاقتصادية والسياسية والاجتماعيه . وهو يذكره دائما كسبب فعال فى كل هذه الاحدث وخلف شخصيات الفتنة .

وبعد موت « معاوية » نهض « يزيد » بالأمر وكان يعرف أن هناك نفرا من أفضل القوم لم يبايعوا مع المبايعين ولكنهم سكتوا تحت وطأة التهديد والبأس . وكان فيهم « الحسين بن علي » . الذى لجأ إلي مكة رافضا بيعة « يزيد » ، وتتصل الكتب بينه وبين أشراف الكوفة يدعونه للخروج اليهم ليكون إمامهم ويزعمون خلع يزيد واخراج عامله على الكوفة .

وأراد « الحسين » أن يعلم أمر الناس فأرسل ابن عمه « مسلم بن عقيل ليستطلع خبرهم فاستطاع أن يأخذ البيعة من ثمانية عشر الفا من سكان الكوفة وأرسل يخبر الحسين بذلك . ولكن « يزيد » رمى أهل الكوفه بعامله « ابن زياد » والى البصرة الذى طلب « مسلما » وجد فى طلبه . وتفرق القوم عن مسلم وتركوه وحيدا فقتله « ابن زياد » شر قتله وصلبه هو ومن آواه ليكونا عبرة لمن اعتبر .

وخرج « الحسين » بناء على كتب « مسلم » ولم يكن يدرى بما حدث . وخوفه الناس عاقبة الخروج ونصح له الناصحون ، ولكنه خرج . ويرى المؤلف أن خروجه لم يكن عن مكابرة أو عناد . وانما لأنه كان يرفض غش ضميره وإعطاء البيعة « ليزيد » مرغما ؟ لأنه يعتبرها اثما ، وهو ان لم يبايع لن يتركه يزيد .

---

(١) على وبنوه : « طه حسين » ص ٣٢٦ ص ٢٣٣

ولا أدرى لماذا أستبعد المؤلف أن يكون ، الحسين ، خرج لايمانه بحقه في هذا الأمر ، وثأر الأبيه الذى قتل وهو يدافع عن حقه ، وخرج سخطا على السلطان الغاشم وثارا لآلاف القتلى والشهداء . وخرج قاصدا العراق حتى يكون بين مواليـــه وأنصاره ليسطيع مناوأة السلطان . لقد أغرت الكعب التى أتت « الحسين » مؤيده ومناصرة أغرته بتحقيق شيء من الآمال آمال أبيه وآماله هو الشخصية . تلك الآمال التى كان يرى فيها الحق كل الحق بدليل أنه حين رأى حرج موقفه بعد أن أحاطابه « عمر بن سعد » وسط أربعة آلاف فارس ، وما كان من تفرق أعوانه . طلب أمرا من ثلاثة عرضها على « ابن سعد » ، إما أن يخلوا بينه وبين طريقه إلي الحجاز ليعود إلي المكان الذى كان فيـه ، وما أن يسيروه إلى « يزيد » بالشام ليكون بينه وبين « يزيد » مايكون وإما أن يخلو بينه وبين الطريق إلى ثغر من ثغور المسلمين ، فيكون هناك كواحد من الجند .

ولذلك فانى أختلف مع المؤلف فأرى أن « الحسين » لم يخرج هربا من أعطاء البيعة « ليزيد » فقط ، وأنمـا كان الأمل يحدوه بتحقيق أحلام قديمة.

وأى من المطالب الثلاثة كان يقتضى أولا أن يعطى البيعة « ليزيد » ، والا فكيف يـكون جنديا من المسلمين يدافع عن الثغور مالم يرم باسم الخليفة ؟ ؟ إذن « فالحسين » لم يخرج ليهرب بنفسه من أمر البيعة ، كما يرى « طه حسين » ، إنما خرج آملا في تحقيق شيء ممـا فات أباه وأخاه وآلافا من شيعتهما . عله يحقق للشيعة أحلامهم ويكون معقلا لآمالهم ومحققا لرجائهم .

مهما يكن الأمر فالمؤلف لم يقف طويلا في هـــذا المقام ، انما عدى على الأحداث حتى وصل بنا إلى مقتل « الحسين » ، ولم يعطنا من التبريرات أوشرح

الظروف ما يخفف عنا مأساة تلك الحملة الانتحارية التى خرج بها « الحسين »

وترك « الحسين » وفى نفوسنا كثير من اللوم له لأنه أهلك نفسه وأهلك معه رياحين بيت النبوة فيما لم نعرف مبررا شافيا له لا من المنطق ولا من التاريخ . ولو برره المؤلف بالطموح إلى تحقيق الآمال التى كان يراها حقا ، أو بالثبات على المبدأ لخفف عنا بعض الشىء من واقع تلك المأساة المفجعة الدامية .

ويلجأ المؤلف إلى الارتداد والتفسير بعد الحدث فيعود بعد مقتل «الحسين» إلى أصول هذه الفتنة بعد ما كان من أحداث فيرى أن العصبية أصبحت أساسا من أسس الفتنة التى لم تنقض بمقتل « الحسين » ولا بموت «يزيد» .

فقد أصبح بين الناس وبعضهم ثأر ودماء ، مما زاد فى الكراهية والتباعد بين كل من الأحزاب وبين أصحاب السلطان . ويتهم « يزيد » وأميره فى العراق بالطغيان لأنه لم يستطع أن يلمس لهم العذر فى أنهم أرادوا الذود عن سلطانهما والحفاظ على وحدة الأمة ولأن «الحسين» عرض ماعرض من حلول

وانصافا للحق . فان « الحسين » ماعرض الذى عرض الا بعد أن أدرك حرج الموقف وخطورته . ولنا أن نسأل هل كان « الحسين » سيعرض شيئا من هذا لو لم تصر الأمور إلى ماصارت اليه ؟

ولم تنته أحداث الفتنة عند ذلك أنما جدت أمور مخزية بعد أن استباحت جيوش الخليفة مدينة الرسول ثلاثة أيام وحاصرت مكة للقضاء على « ابن الزبير » وحرقت الكعبة وانتهى أمر الحصار بموت « يزيد » .

وانتهت أحداث الفتنة التى اتصلت ثلاثين عاما بعد أن تأسس ملك لا يقوم على الدين وسماحته ، إنما قام على السياسة التى تبغى الحكم أولا وأخيرا .

. . .

ولم يحظ « الحسين » بكثير من عناية المؤلف . مر به مرورا سريعـا ملخصا مأساته فى بعض صفحات . كانت محنة « الحسين » أعمق من أن تسرد بهذا الشكل السريع . لم نعش أبعادها وقد جعلنـا نعيش مع « على » محنته . لقد حمل « الحسين » كل مأساة الشيعة بكامل صورتها . انمـا هو « على » الذى خصه بالجزء الأكبر من العناية باعتباره وارث الفتنة الأول . فقد شرح وقص وأطال عن كل الأسباب التى أدت إلى تغير الناس وانصرافهم عن « على » أما مع « الحسين » فلم يفصل ولم يشرح من جديد اعتمادا على أنه ورث ميراثا كاملا متكاملا من الحزن والقهـر . فهناك فى الصحراء حيث « الحسين » فى سبعين من أهله وعشيرته تحيط بهم الآلاف بالأسنة المشرعة ، هناك يقتل جميع أهل البيت ويصرع « الحسين » ويحز رأسه . ويسقط الحق شهيدا وينتصر الباطل فوق الأسنة .

. . .

وعلى قدم المساراة مع أبطال الكتاب ، يقف بطل آخر ... وان لم يقدمه الكاتب تقديما مباشرا ... إلا أنه كان خلف كل الأحداث . منـذ الحلقة الأولى من الفتنة « عثمان » ، وهو بطل كمحرك للأحداث . وكان هو السبب الأول والمباشر لأحداث الفتنة أيام « على » وأبنائه . بل السبب المباشر فى محنة « على » وأبنائه ، « معاوية بن أبى سفيان » قدمه المؤلف من خـلال

الأحداث لكنه حجب منه الوجه القبيح ولم يقدمه تقديما مباشرا . انمـا جعله الأصبع الخفية وراء كل شيء . وبهذه الطريقة قدم داهية السياسة الإسلامية « معاوية » .

رأيناه أول مرة مطالبا بدم « عثمان » ثم عرفنـــاه سياسيا يمهد الطريق ويستميل الناس بالمال . يعطى ويمنع وعرفناه محاربا يحيط نفسه بخيرة القواد ويلجأ لخدعة التحكيم وتمكنه الظروف من الظهور على خصمه . عرفنـاه متلقبا بلقب أمير المؤمنين وجنده تعبث بأطراف العـــراق . ورسله وجواسيسه تندس بين أهل العراق . وعرفناه يشتد بأهل العراق . ويرميهم بالقساة من ولاته . ثم وجدناه يهادن «الحسن» ويخاطبه برفق ويشارطه . و « الحسن » يترك الكوفة إلى المدينة مطمئنا إلى الشروط . وهو يلين مـع أهل العراق ويصانعهم حتى يخرج « الحسن » من بينهم ، بعدهـا يعلم أهل العراق كيف تكون طاعة الأمراء . ويكشف لهم من جانبه لخشن . ورأيناه يخالف ما ألف المسلمون حين ألحق زيادا بنسبه مخـالفا بهـذا ما أمـر به الله ورسوله فأسخط الناس عليه ، وان خضعوا له كارهين ، ورأيناه ينكث في عهد « الحسن » ويسعى لأخـذ البيعة لابنه « يزيد » مستحـدثا في الإسلام حدثا وأمرا مخالفا للسنة الموروثة وناقضا عهدا كان أعطاه وهو أن يترك الأمر شورى من بعده . رأيناه مؤسسا ملكا ، وصاحب دولة تقوم على حد السيف. عرفنا المؤلف بهذه الشخصية التي لم يكن ليتم بدونها هذا الفصل من التاريخ الإسلامي . وان لم يكن يقصد اليها لشخصها لأنه كما يبدو كان قد مقتهـا منذ البداية . ويظهر ذلك بصورة واضحة حين قدمه إلينا ، منذ أيام «على» وان كان شخص « معاوية » مكروهـا ، الا أنه يحق رجل دولة من الطراز

الأول. رجل عرف كيف يستل الحق من بين أيادى أصحابه ويخضعه لنفسه ولابنه من بعده لاشك أنه كان داهية من دهاة العرب ، وعبقريا من عباقرة السياسة ، وان كان قد جانب العدل والرحمة ، والسياسة كما يقولون ... لا قلب لهـا . كان « معاوية » لا قلب له ، أولا قلب لسياسته . فقد اسخطت سياسته كل العرب ، وكل فرقهم ، أسخطت الشيعة ، وأسخطت أيضا الخوارج أسطخت الصالحين من أصحـاب رسول الله وأسخطت أيضا عامـة المسلمين . ولعل « معاوية » نفسه كان ينكر من أمـر نفسه كثيرا حين يعـود اليه حلمه وعقله ، ولكن ... ... للسياسة أحكام .

. . .

وهكذا أنهى المؤلف ذلك الفصل الحافل من تاريخ الإسلام ... كتبه بروح المؤرخ . وكما قال هو عن نفسه : « أنا فى الفتنة الكبرى مؤرخ » والحقيقة انه وان بدا مؤرخا بالفعل الا انه انصب بشكل أساسى على الناحية السياسية فهو ان كان قد أعطى للواقع التاريخى كثيرا من العناية والرعاية الا انك تشعر أن الهدف من الكتاب ليس عرض تلك الأحداث التاريخية بشكل سردى . انما هو قد هيأ من هذه الأحداث بشرحها الغوص فى أعماقها ومـن دوافعها ونتائجها مناخا مناسبا لادراك الأبعاد السياسية . وادراك الدور الذى يمكن أن تلعبه السياسة فى التاريخ .

ولم يكن مؤرخا متجـــردا ، لايخلع من ذاته شيئا على الأحداث ، لكنه كان مؤرخا متفاعلا مـع الأحـداث ، يعطى مـن ذاته كثيرا ، لم يكتف بموقف المتفرج انما عرض ما عرض على انه قضايا اجتماعية . قضايا تستلزم

وقفات تأمل بل أنه قد أضاف من عنده تدخلا فى بعض الأحيـان ، فكأنه حين يعرض لتلك الأحداث يستلهم التاريخ . ويعمد إلى نماذج يعينها ليتخذ منها نقطة انطلاق إلى واقع أفضل . هـو كاتب اجتماعى يحـاول أن يسير بالمجتمع نحو العدل ويتخذ إلى هذا الهدف طريقا طويلا هو هذا العمل الشاق من عرض هذا التاريخ الحافل .

فهو على ذلك يضيف للأحداث كثيرا من رؤياه الخاصة ، بل انه أحيانا يصور الأحداث كما يراها هو أو كما يجب أن تكون وجهة نظـــره لا كما يرويها التاريخ .

على اننا لانحس فى دراسته للتاريخ مجرد فكر يسعى للتفسير وانما نحس به فكرا يسعى للسيطرة على الواقع التاريخى الاجتماعى ، انه يعيد بنـاء التاريخ يعيد صياغة الأحداث وترتيبها وتبويبها على نحو عقلى منطقى صارم فلا نكاد نحس فيه بالعالم المؤرخ بقـــدر ما نحس فيه برجل السياسة الخبير بنفوس الرجال وأحوال الحياة . وما أكثر ما نجـد له عبـارات تدل على الترجيـح والاحتمال ولكن القطع والحسم واليقين يكاد يكون نسيج البناء التاريخى الذى يسوقه أمام أعيننا »[1]

ولا يقبل من الروايات شيئا الا بعد أن يعرضه على فكره الخاص فان استراح له هو شخصيا أخذ به والا ظل يناقش ويناقش إلى أن يخرج علينا بتعليل معقول لما يراه .

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصر : « محمود أمين العالم » ص ١٢٧

وبذلك تظهر مقدرته على نقد الخبر وأثر ذلك فى تكوين صورة أو فكرة عن العصر وعن رجاله . فيتهم تلك الفترة بالغموض واتخاذ القصص والتكثر والكذب على التاريخ سوءا من اتخاذ ذلك وسيلة للتقرب من ذوى السلطان أو وسيله لجمع المال مماجعل مهمة المؤرخ الصادق من الصعوبة بدرجة كبيرة بعد ما ألقى بينه وبين حقائق التاريخ من أستار كثيفة تحجب عنه جلاء الحقيقة .

فقد أمتحن أهل العراق مثلا بعد موت « على » وتعرضوا لألوان من الاضطهاد والقمع وأمتحن كذلك أهل الشام حين بدأ نجم العباسيين فى البزوغ ففعلوا مثل مافعل أهل العراق من قبل من التزيد فى القصص والحكايات وتشويه وجه العاريخ . وذلك يجعل المؤرخ يجتهد من عند نفسه فيضيف بعض التفسيرات من عنده .

والحق أنه أعطي للتاريخ مذاقا أدبيا جذابا بحيث لم يشعر القارىء الا بأنه يقرأ كتابا أدبيا يحفل بكثير من المشاعر والأحاسيس ، فهو حين يطرح قضاياه يطرحها ذلك الطرح الأدبي المشوق المثير للشعور والاحساس ، فيضفى على تاريخه مسحة أدبية محببه .

« هو لاينظر إلي التاريخ مادة ولكنه ينظر اليه روحا . ولاينظر اليه ألفاظا لكنه ينظر اليه معاني . وكتبه التى فى التاريخ الإسلامى تنزع كلها إلى الجانب العام . وان بدا بعضها فى الجانب الخاص لأنها بهذا النزوع تكون ألصق بمنهج صاحبها غير أننا نرى مؤرخنا هنا في الكتب الثلاثة « الشيخان » و « عثمان » و « علي وبنوه » . يخرج عن أسلوب القاص إلى أسلوب

المورخ ولكنه على هذا كان قاصا وهو يؤرخ بل جعل مـن الحقيقة التاريخية هنا مادة قصة ، . » (١)

. . .

وبعد فهل كتب « طه حسين » فى « الشيخين » و « الفتنة الكبرى » سيرة سياسية ؟ لعله لم يكتب سيرة أشخاص فحسب ، بل أنه كتب سيرة مرحلة من مراحل التاريخ ، سيرة عصر وجمـاعـة ، وتمثل هـذا العصر وتمثلت تلك الجماعة فى هؤلاء الأبطال والقـادة الذين عـبروا عن العصر وعن تلك الجمـاعة الإسلامية التى تولت أمـر المسلمين بعد النبى صلى الله عليه وسـلم فأرادت أن تسير سفينة الأمة الإسلامية بين أمواج الحياة الزاخرة فى بحر السياسة الخضم الذى ألقت اليه الفتوح تيارات لم تكن فى الحسبان ، فاضطربت السفينة حينا، وسارت أحيانا ، ثم عتت بها الأمواج أخيرا .

لقد مزج « طه حسين » بين التاريخ والخيال بل انه اختار من الأخبار والأحداث وألف فكانت هذه الأعمـال نمطـا بين التاريخ والأدب ، أو بين السيرة العامة والسيرة الخاصة ، لعله لون جديد كغيره من الألوان الأدبيـة التى أبدعها ، لم يقف عند حدود النوع الأدبى بل جاوزه ، ويكثير .

. . .

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « ابراهيم الابيارى » ص ٨٩

الفصل الثالث

دراسة الشخصية الأدبية

اعتمد الأدباء . والباحثون فى دراساتهم للشخصية الأدبية مناهج عديدة منهم من اتخذ لنفسه المنهج الاجتماعي ، الذى يرى فى نتاج العقل البشرى سمات مشتركة بين بنى جنس واحد أو عصر واحد .

ويرجع « تين » Taine هذا إلى عناصر الجنس ، والبيئة ، وقوة تأثير الماضي على الحاضر . فالانسان فى نظر الاجتماعيين صورة من المجتمع ، تتحكم فيه هذه العناصر التى تتحكم فى المجتمع فتكون ذاته نتيجه لذلك .

وأتخذ بعضهم المنهج الذى يطبق فكرة التطور على الأدب . والتى تستوحى فكرتها من مذهب النشوء والارتقاء الذى يقول به « دارون » فلكل مرحلة زمان تولد فيه ، ثم تنمو ثم تموت . بل أن التطور فى حياة الجماعة الأدبية ليس صدفة ، لكنه أمر مقدر محتوم طبقا للفكرة العلمية إذ تؤثر فيه العوامل الطبيعية والاجتماعية ، ومن رواد هذا المنهج « فردينانند برونتير »

ومنهم من ارتضي لنفسه المنهج النفسى الخالص الذى نادى به « صانت بيف » Bant Beuve . والذى كان فى أول حياته طبيبا بدأ حياته بمهنة التشريح فربط بين هذه المهنة والدراسة الأدبية .

وهذا المنهج يرى تحليل النتاج الأدبى وتحليل الأديب أيضا ، والمؤثرات

التي تؤثر فيه (١)

وإذا كانت التجارب لم تثبت نجاح كل من هذه النظريات على حده فذلك لأن كل نظرية فانها أشياء من النظرية الأخرى . فمثلا فكرة «سانت بيف» Sanit Buve نجحت وسادت في القرن التاسع عشر لأنه كان عمر سيادة العلم ولأنها كانت تتمشى مع روح العصر ، وهى روح تقنين الفكر . كذلك لم تكن نظرية « تين » Taine بالشيء الجديد المبتكر بل أن فكرة الانتاج للبيئات المتشابهة فكرة بديهية وقد قال بها القاضي الجرجاني من قبل .

أما فكرة التطور التي نادى بها « برونتيير » Brunetiere فقد ثبت نجاحها في التقصي والبحث في بعض الانواع الأدبية .

القضية الأساسية المسلم بها في هذا النوع من النقد أن الخيوط الرئيسية التي تهدينا إلى إنتاج الأديب انما توجد في دراسة حياته وذاته وشخصيته . وقد كتب بروكس في كتابه America 'S Comming of Age (أمريكية تشب عن الطوق) أن الطريقة الوحيدة المثمرة هي دراسة الشخص نفسه . وبعد ذلك بربع قرن عرف في كتابه (آراء أوليفر أو لستون) ماالذى يعنيه بالاتجاه الشخصي في دراسة السيرة وميزه عن الاتجاه العلمي فقال : أما هذه الحقائق (حقائق التحليل النفسي فما عادت أنفع من سواها . وتظل كل الحقائق هنه عديمة الجدوى حتى يأتي كاتب السيرة فيستوعبها ويتمثلها تحت

أنظر :

(١) النقد الأدبي الحديث : د محمد زغلول سلام .

(1) A History of French Literatur by L. Cozamian ox Ford. 1956 P. 371

(2) A History of French literatur by L. Cozomian ox Ford. 1956 P. 416

ضوء من قدرته الحدسية الاستبصارية . (١)

فكان على الباحثين المحدثين أن يترسموا لأنفسهم منهجا جامعا يرضون أو يستريحون اليه فى دراسه الشخصية الأدبية ومزج بعضهم بين هذه المناهج حتى تخرج دراسته للشخصية الأدبية كاملة . والحقيقة أن الكتابه لشخصية أدبية تقتضى من الأديب أن يلم بكل نواحى هذه الشخصية من صفات شخصية وطباع ومطامع ، وكل الظروف المحيطة بهـــا سواء من الناحيـة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية مـع عـدم الابتعاد عن انتاج هـذه الشخصية باعتباره انعكاسا لكل هذا .

« تقرير النص وتحقيق أصوله والظروف الحيـاتية التاريخية التى رافقت ابداعه يقدمان معلومات تكمن قيمتها الأساسية فى تجنب التأويلات الكاذبة غير أن معظم هؤلاء النقاد ظلوا محصورين فى أطـار الطرافة العلمية بعيدا عن الأدب فى ذاته وربما هذا السبب هو الذى دفـع « طـه حسين » وهو بطبيعة أديب إلى ان يرفض فى نقدالأدب المنهجالعلمى البحت لأنهمستحيل، فلا بد من أن يمتزج به التذوق الفنى للأثر الأدبى فان الأدب ثمرةمن ثمار الفكر والعـاطفة الانسانية وبالتالى فـلابد من الفكر والعاطفة فى تقييمهذه الثمرة . (٢)

ومن أهم الأدباء المحدثين الذين فعلوا هذا « طه حسين » فهو وان كان من طليعة الباحثين الذين اهتموا بدراسة الشخصية الأدبية على أسس منهجية إلاأنه لم يخضع لأحد المناهج بعينها بل أتخذهـا كلها وسيلة للخروج بمزيج

(١) النقد الأدبى ومدارسة الحديثة : ستانلى هايمن ، ترجمة احسان عباس ويوسف نجم ص ١٨٧ دار الثقافة ... بيروت ٥٨

(٢) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه : كمال قلته ، ص ١٥٨

جـديد يساعده على تفهم ودراسة تلك الشخصية الأدبيـة التى يكتب عنها ، ويضيف الى كل هذا موقفه الشعورى الخاص ليعطيك صورة لهذه الشخصية الأدبية التى يكتب عنها ، ويضيف إلى كل هـذا موقفـه الشعورى الخاص ليعطيك صورة لهذه الشخصية من وجهة نظرة هو .

بين « طه حسين » أن مؤرخ الأدب لايسطيع أن يعتمدعلي مناهج البحث العلمى الخالص وحدها ، بل لابد من أعتماده أيضا على ذوقه الخاص لأنه يتأثر بما يتأثر به مأثور الكلام من الذوق ومن هذه المؤثرات الفنية المختلفة . وهذا يؤدى إلى ان يكون تاريخ الأدب شيئـا وسطا بين العلمية والفنية أو بعبارة أخرى بين الموضوعية والذاتية » (١)

فهو يحدد منهج درسة للشخصية الأدبية فى حـديث الأربعـاء (٢) فيقول انه ينبغى أن يمر بتطورات ثلاث أولا : أن نصل إلى شخصية الشاعر فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه مااستطعت . ثانيا أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء وسيلة إلى فهم العصر الذى عاش فيـه هذا الشاعر والبيئة التى خضع لها والجنسية التى نجم عنها . ثالثا : لانقصد إلي فهم الشاعر لنفسه وانما نقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التى يعيش فيها . رابعا: يقول أن هذا النهج الثلاثى مزيج لمذهب « سانت بيف » Saint Beuve و« تين » Taine و « جول ليمتر » Jules Lemaitre : ولابد قبل تطبيق هذا المنهج أن يعنى بجمع المادة من المصادر ومصادر حياة

(١) نشأة النقد الأدبي الحديث فى مصر . عز الدين الأمين ، ص ٦٥٩ مكتبة النهضة ٦٢

(٢) الأدب الجاهلى : « طه حسين » ص ٤٤

الشاعر وأخباره وهي كتب التاريخ والتاريخ الأدبي والتراجم والطبقات وكتب الأدب الجامعة . وينبغي للباحث أن يلم بدقائق هذه الحياة أو باللمحات الدالة عليها أو على بعض طبعه أو سلوكه أو نفسه ما كان فيها طبيعيا سويا وما كان غير ذلك من خروج على العرف أو شذوذ وانحراف .

وقد ارتضى « طه حسين » كل هذا المنهج الا أننا لا ننسى أن نضيف الى منهجه الخاص هذا موقفه الشعوري الشخصي تجاه الشخصية التي يكتب عنها . ثم تعلقه الشديد بالنص العربي الذي يستوحيه شخصيته ويستوحيه أحكامه .

أضاف « طه حسين » إلى كل ما أخذ من مناهج هاتين الصفتين من عند نفسه فسار بدراسة الشخصية الأدبية مسارا جديدا .

وعلى هذا فأنا لا أوافق «عز الدين الأمين» حين يقول : «طه حسين» يعتبر مذهب الجبريين الذي طبقه « تين » على الأدب في فرنسا يعتبره أساس الدراسات الأدبية ويعتبر بقية المناهج معينة له ومساعدة »[1]

إلا أني آخذ عليه تحيزه الشديد لمن يحب ، ونفوره الشديد أيضا ممن لم يحب . فقد أحب « أبا العلاء » فوقف بجانبه يقيله من عثراته ويسانده في أخطائه ويبرر له مسالكه ، ويعتذر عن معتقداته ، ولم يترك سبيلا إلى انصافه الا سلكها ، حتى انه اضطر أحيانا إلى أن يخالف نفسه وبعض آرائه التي سبق أن نادى بها ، وقد كره المتنبي ، فترصد له وطعن مع الطاعنين في نسبه وأذكى الشك في وجود أب أوجد معروفين له ، حتى أمه شك في معرفته لها ! ! رصد عليه أخطاءه وعدد نقائضه وعاب أحلامه ومطامعه وأنكر

---

(١) نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر : « عز الدين الأمين » ، ص ١٥٩

عليه اقباله على الدنيا والثروة وقارنه دائما « بأبي العلاء وكأنه يطلب منه أن يكون «أبا العلاء» لم يبرر له هفوة ولم يغتفر له هنه فلماذا ؟. لأنه يحب «أبا العلاء» ويعترف بهذا صراحة ويقول : « لو اني صادفت هذه الصيغة عنـد شاعر غير أبي العلاء ، عند المتنبي مثلا أو أبي تمام (ولا أظن أنه ذكر أبا تمام الا ليبعد عنه تهمة كره المتنبي) لأشبعته لوما ونقدا وتأنيباء ولكني حين صادفت هذه الصيغة في شعـر « أبي العـلاء » لم أزد على أن ابتسمت ثم استشعرت البيت فضحكت ضحكا خفيفا . ثم أحببت هذا الأسلوب في هذا الموضع واطمأننت عليه . قل اني أوثر « أبا العلاء » وأحابيه وأرضي منه أشياء لا أرضاها من غيره فقد لاتخطيء ولا تبتعد ،، (١)

على هذا النحو تحيز « طه حسين » لأبي العلاء « ويحسن بنا أن نتصفح كتابيه عن « أبي العلاء » حتى نرى بأنفسنا هذه العاطفـة التي تربط كاتبنـا وبين ذلك الذي عاش في القرن الرابع الهجرى .

ولاعجب فقد كان يرى فيه نفسه وجانبا من مأساته وبعضا من صفاته . ولم يكن الاعجاب وحده هو الذي دفع « طه حسين » إلى الكتابة عن أبي العلاء انما هو التمثل الذي يصل حد التقمص ، فكم من حديث « لطه حسين » عن « أبي العلاء » تخاله يتحدث عن نفسه . وبكل الحساسية و العنف اللذين صور بهما معاناته وأحزانه ، فهو حين يقول عن أبي العلاء : « مامن شك في أنه قد أحس منذ أول عهدة بهذه المحنه الطبيعية فرقا عظيما بينه وبين أترابه ،

---

(١) مع أبي العـلاء في سجنه : « طه حسين » ص ٩٩ دار المعـارف الطبعة العاشرة .

ومامن شك فى أن إحساسه هذا الفرق قد آلمه واذاه وأسبغ على نفسه شيئا من المكآبة المظلة القائمة ، واضطراه إلى كثير من التخريج والتحفظ والاحتياط فى سيرته العملية »[١]

فهل ترى إلا أن « طـه حسين » يتحدث عن نفسه ؟ وبالشجن نفسه الذى لمسناه فى « الأيام » ؟

... ...

أبو العـلاء المعرى

ويكتب عن « أبى العلاء » . « تجديد ذكرى أبى العلاء » . ويوضح منهجه فيـه فيقول : « جعلت درس » أبى العـلاء » درسا لعصره واستنبطت حياته ممـا أحاط به من المؤثرات . ولم أعتمد على هذه المؤثرات الأجنبية وحدها بل أن اتخذت شخصية « أبى العلاء » مصدراً من مصادر البحث بعد ان وصلت إلى تعينها وتحقيقها وعلى ذلك فلست فى هذا الكتاب طبعياً فحسب بل أنا طبعى نفس أعتمد فيه ما تنتــج المبــاحث الطبيعية ومباحث علم النفس معــا »[٢]

وبنــاء على ذلك قسم الكتاب إلى مقالات تتبع تلك الخطة التى وصفها . فبدأ بدراسة العصر . فهو يرى فى « أبى العلاء » نتاجا طبيعياً لعصره بكل ظروفه . والطريق إلى فهم النتــاج حق الفهم أن يفهم أولا حال هـذا المجتمع الذى ساهم فى التكوين النفسى لهذا الرجل . بل أنه يتلمس مظاهر هذ التكوين

(١) مع أبى العلاء فى سجنه : « طه حسين » ص ٥٦

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء : « طه حسين » ص ١٢ دار المعارف الطبعة السابعة .

في المجتمع الاسلامي بأسره لا المجتمع العربي فقط. فهو لم يترك طائفه ولا فرقة إسلامية الا تعرض لها ولم يقصر نفسه على الفرق العربية فقط .

ونتيجة لاحساسه بتأثير الزمان والمكان فقد تحدث عن عصره وأسرته ثم حياته التاريخيه نفسها، ثم مكانتة العامية ثم فلسفته وتأثرها وتأثيرها وخاصة فلسفته الالهية.

وعلى هذا النسق سار وأفرد لكل قسم من أقسام خطته مقدارا من البحث.

تكلم عن العصر بعد أن ألم بالقديم والحديث عن تلك الأجيال التي كونت الحياة العقلية لذلك العصر وتكلم عنه من جوانبه السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية والدينية والعقلية والخلقية. ومن حيث عوامل القوة والضعف. ولكنه كان كثيرا مايدخل في تفاصيل تاريخية كثيرة، وهو يعترف بذلك ولكنه يذكر الأسباب التي دعته إلى هذا فهو إذ يطيل فانما ليستنبط عمل تلك الظروف في الرجل . يقول مثلا عن اطالته في الحياة السياسية «هذه الحياة السياسية المملوءة بالفزع والهول وبالاختلاف والاضطراب وبالفساد وبالكيد والخديعة ، قد عملت من غير شك عملا غير قليل في تكوين الفلسفة العلائية فلابد من فهمها إذا حاولنا أن نفهم أبا العلاء » [1]

وكذلك يستعرض الحياة الدينية وما كان للدين من تأثير عملي وعلمي، ويوضح معاناه الحكيم من ذلك حتى أنه كره كل هذه الحياة الدينية الفاسدة وتبرأ منها . كذلك كان لفساد الحياة الاجتماعية والخلقية تأثير خاص في نفس الأديب حتى أنها كونت له تلك الآراء الخاصة في الاجتماع والاخلاق .

وبهذا يأخذ المؤلف بأصول المنهج الاجتماعي وتأثير المجتمع في نفس أبي العلاء » .

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء : ، طه حسين ، ص ٦٤

٢) وبعدها يخلص للرجل نفسه ولآلامه وأحزانه وتنقله ثم عزلته التى لجأ اليها بعد أن خبر الدهر وذاق تنكره وعرف خبايا الناس وتلونهم . ووجد فى العزلة ما يماشى طبيعته تماما فهو الذى قال عن نفسه "وحشي الغريزة إنسي الولادة" وأعان على ذلك تلك الآفة التى ابتلى بها وفقد أمه وأباه وضيق الحال الذى عاش فيه ، واضطراره إلي ترك بغداد واقامته بالمسعرة . « ذكرى أبى العلاء كتاب عرض عرضا شاملا حياة الفيلسوف « أبى العلاء ، وشعره ونثره وكتبه وفلسفته وبيئته والحياة السياسية والفكريه فى عصره « (١)

٣) ثم يلتفت لإنتاج الرجل الأدبى . . ويربطه بسنى عمره . وقسم حياته إلى ثلاثة أطوار وبالتالي أنقسم شعره إلى هـذه الأطوار وتكلم عن لون انتـاجه فى كل طور منها ، ويتقصى هذا الانتاج غاية التقصى يقول : ونحن باحثون عن هـــذه الفنون فنا فنا حتى يكون البحث مفصلا مستوفى وحـــتى نفهم « أبا العلاء ، فى آدابه كما فهمناه فى حياته . » (٢)

وهنـا نراه ينتقل إلى المنهج الفنى الجمالي الذى يستوحي النص . ويمزج بين المنهجين فيسبر أعماق فن « أبى العلاء ، الشعرى ، وينتهى من شعره ليتحدث عن نــــثره ، ويقسمه أطورا . ويذكر خصائصه الفنية ويتحدث عن علم « أبى العــلاء ، ويفرد بابا لفلسفة « أبى العــلاء ، يبدؤه بالسؤل : هــل « أبى العــلاء ، فيلسوف ؟ . ويتكلم عن فلسفته نشأتها ومصادرها وأصولها ومواضعها . ويتعمق هذه الفلسفة فيرى أن « أبـا العلاء ، يفارق المسلمين فى أشياء ويوافق من اليونانيين أرسططا اليس فى أثبات أن الله عز وجل ساكن

---

(١) تجديد ذكرى « أبى العلاء ، : « طه حسين ، ص ١٩٠

(٢) المراجع السابق ص ٢٧١

غير متحرك ولا متنقل . ويؤيد كلامة بأمثله من شعر و أبي العلاء ، ويظل في تفسيراته حتى يثبت أن و أبـا العـلاء ، اسلامى النزعة .

ويقول بعد أن ساتعرض بعض شعر اللزوميات .يدل ذلك على ان روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات ولا مصدق للأنبياء وان كان قد آمن بالله واطمأن اليه » . (١)

ويرى أن الناس يكفـرون و أبا العلاء ، الفصول والغايات وبما في رسالة الغفران من سخرية وبما في اللوزميات من انكار للنبوات أما هو .. أى « طه حسين » فيقول : أنه لم يضع هذا الكتاب ليحكم على الرجل بكفرا وإيمان وان كل مايبغيه هو إظهار صورة الرجل التاريخيه للناس . وانه يترك أمر دينه لله وحده . وينهى كتابه بقوله . هذه خلاصة ما أحببت أن أكتب عن و أبي العـلاء ، عن أدبه وعلمه وفلسفته لايفرغ منها القارىء حتى ينجلى له القرن الرابـع والخامس واضحين . ولسنا نحمد و أبا العـلاء » ولا نذمه لأن قاعدتنا في تأليف التاريخ لاتسمح بذلك كما قدمنا . (٢)

أما أن القارىء لايكاد يفرغ من القـــراءة حتى ينجلى له القرن الرابـع والخامس واضحين فهذا حق . أما أنه سار وفق قاعدته في تأليف التاريخ فغير صحيح . فهو لم يمـدح ولم يذم حقا ولكنه اعتذر وبرر كثيرا من هنات الرجل . فأن كان في الرجل نقص أو عيب فهو من صنع الظروف ومن تكاتفها ضده . وان كان بـه فضل أو خير فهو من عند نفسه ومن خلاصة فكره .

فهو يربأ به أن يكون مقلدا للمتنبي الا في عصر الشبيبة الأولى ويكذب

(١) تجديد ذكرى « أبي العلاء » . : « طه حسين » ص ٢٨٨

هؤلاء ممن يتصورون و أبا العلاء ، صورة من صور المتنبىء . انهم مقلون في الدرس الصحيح. ثم يدخل فى مقارنة مفصلة بين الرجلين ينحاز فيها إلى جانب « أبي العلاء ، . ويرى أن هناك فروقا واضحة بين الرجلين فى حياتهما وأخلاقهما مما أدى إلى ظهور أثرها فى شعرهما .

ويحاول إيهام القارىء بأنه مدخل فى تفصيلات طويلة لكى يبعد عن و أبى العلاء ، صفة الكفر أو عدم اكتمال الدين فيقول : و ليلاحظ القارىء أن مكاننا فى البحث انما هو مكان المؤرخ ليس غير فنحن نحكى رأى « أبى العلاء ، ونقارن بينه وبين غيره من آراء القدماء والمحدثين وقد ظهر لنا إلى الآن أنه يوافق المسلمين فى فقه التوحيد وان خالفهم فى ظواهر الفاظه ،(١)

ويلقى تبعة هذا القصور فى دين الرجل إلى فساد وقبح الحياة الدينية فى عمره و كذلك الحياة الخلقية ، وبقية ألوان الحياة العامة . وزد على ذلك هموم الرجل وأحزانه وأساءات الناس اليه ، كل هذا جعله يكره ما اتفق عليه الناس فى كل شىء سواء فى السياسة أو فى الدين . أو أخلاقيات وعادات خاصة .

ثم أنه درس فلسفات اليونان والهنود الذين لا يؤمنون بالنبوات . كل هذا ساقه « طه حسين » ليبرر عدم ايمان الرجل بالنبوات لم يلمه ولم يستغرب منطقة ، ولم ينكره لماذا لأنه كما يقول مؤرخ لا يحمد ولا يذم . إذن فلماذا التبرير ؟ ويذكرنى موقفه هذا بموقفه ازاء المتنبىء . فكم أطال الوقوف أمام بيت له من الشعر ينكر عليه قوله ويطعن في دينه . ولم يغفر للمتنبي عنده فساد الحياة واضطرابها من حوله ، ولا أن هذا الشعر قاله في طور الشباب الذى يتصف بالاندفاع والرعونة ، ولم يشفع للمتنبى أن « طه حسين » يرى نفسة مؤرخا فلم يكن يتحتم عليه أن يذم كثيرا وألا يحمد الا قليلا .

(١) المرجع السابق ص ٢٦١

والحق أنه لولا هذا التحيز الظاهر «لأبي العلاء» لخلا الكتاب تمـاما من أي شائبـه. فالكتاب من الكتب الرائدة في الدراسات المنهجيـة في الأدب. و«طه حسين» يعرف ذلك فهو يقـــول عن نفسه حين يقول أن دراسته «لأبي العلاء» انتهت به إلى نتيجـة ما كان هو نفسه ينتظر ولا كان الناس ينتظرون أن يصل اليها باحث. وهى فهم فلسفة «أبي العلاء» وردهـا إلى مصادرها وفهم الروح الأدبي له وقد كان من قبل اسما مبهما تحيطه الشكوك والأوهام.

ويقول: «أني لا أعرف قبل اليوم كتابا ظاهرا على هذا النحـــو من البحث وربما لا أغلو أن قلت أني لا أعرف كتابا في الآداب العربية قد وضعه صاحبه على قاعدة معروفة وخطة مرسومة من القواعد والخطط التي يتخذها علماء أوربا أساسا لما يكتبون. أما أنا فقد وضعت لهـــذا الكتاب خطة رسمتها رسما ظاهرا وتشددت في اتباع هذه الخطة فلم أهملها حتى كاد الكتاب يكون نوعا من المنطق أو هو بالفعل منطق تاريخي أدبي».(1)

ولا نجد وصفا للكتاب أروع من هذا الذي جاء على لسان المؤلف الا أنه نسي أن يضيف أن الكتاب لا يكتسب من المنطق جفافه، وان مـا خفف من وقع المنطق والتاريخ ذلك الروح الشجي الذي يسبح في صفحـات الكتاب فللكاتب إطلالة على استحيـاء من بين السطور تمـزج بين نفسـه ونفس «أبي العلاء».

هذا التعاطف الغريب الذي يبلغ حد الامتزاج، وهذا الأمر الذي ماعدنا

---

(1) تجديد ذكرى أبي العلاء: «طه حسين» ص ١٢

تعرف أهو أسر للنفس أم لغيرها . «كل على الناس فى كل شيء ، تكله فى حياته المادية والمعنوية . فاليأس أخلق من الرجاء والموت خير له من الحياة الا أن تكون له نافلة من فضيلة الصبر وشدة الأيد». (١)

لقد رأى نفسه فيه اذا ، خبر معاناته ، وأحس آلامه وعاش همومه وأحزانه . فلنغفر له وقوفه إلى جانبه أبدا . فقد وجد فيه صنو نفسه ومثله الأمثل . ولننظر فقط الى عمله هذا عن « أبى العلاء » لنقف مبهورين بهذا العمل المتكامل الذى وضعه قبل نصف قرن من الزمان . وان دل هذا على شيء فانما يدل على عبقرية الفكر عند « طه حسين » لقد بدا « طه حسين » فى كتابه هذا ناقدا فيلسوفا أكثر منه أديبا مؤرخا » (٢)

* * *

وفى الكتاب الثانى « مع أبى العلاء فى سجنه » نجده يضع تعريفا للكتاب وتعريفا بالمنهج الذى يرتضيه فى أول صفحات الكتاب ، يقول : « لن يكون هذا الا نحوا من حديث النفس تعرض فيه كما تريد ذكرياتى والأراء المختلفة التى كونتها لنفسي » . ويقول : « لست اريد أن أترجم له على النحو المألوف ، فلست حسن الرأى فى التراجم وهذا لايدل إلا على أنى لم أخلق لها » .

ويقول : « على ان مايعنيه من حياة رجل من الناس شىء آخر غير هذه الاغراض التى تطرأ له وليس ينفعنى مولده ولاحبه ولاشقاؤه ولا كل هذه

---

(١) مع طه حسين ص١١٣

(٢) المرجع السابق : « سامى الكيالى » ص ٨٢

الأشياء التي يمكن أن تلاحظ في حياة الناس لأنى لا أجد في هـذا كله أيسر الوضوح المقنع الذى تستيبن به قيمته الصحيحة والذى تميزه تميزا عميقـا من الناس ومنى » (١)

ولم يفعل المؤلف غير هذا ، فهو لم يتتبع حياة شخصيته بتطوراتها انمـــا جعل من كتابه رحلة في عقل « أبى العلاء » .

نفذ إلى سجنه هذا المظلم الذى سجن نفسه فيه ولم تعقه برودة السجن ولا قسوة الوحدة ولا وعورة الطريق ، انما ارتضي لنفسه أن يشارك صفيه ومثيله بعضا من آلامه وأحزانه . وطالت رحلته في غياهب هذا السجن حتى أنها طبعت جزءا من حياته بطابعها حتى بعد أن فرغ من هذه الرحلة نجـده يقول : « لم أفارقه ولم أنصرف عنه أو قل لم تفارقنى ذكراه ولم تنصرف عنى على كثرة ما بذلت من الجهد لأخلص لنفسى ، وانما لزمتنى ذكرى الشيخ لزوما متصلا ملحا صرفنى عن نفسى وعن أسرتى واضطرنى إلى أن أكون طليقا سجينا وحيدا مقيدا أنتقل في الجبال والسهول لكنى مع ذلك لا أفارق هذا السجن الذى أقام فيه « أبو العلاء » نصف قرن يفكر ويقدر وينظم وينثر ويملى ويعلم » (٢)

والى هذه الدرجة بلغ التعلق ، بل قل التقمص . ففى هذا الكتاب تحس بروح « أبى العلاء » فى طه حسين ، وقد خرج به عن كل منهج ، وكل نسق ليجعل منه شيئا متفـــردا بين الكتب الأدبية يقوم على التفـــانى فى المثل والاتحاد معه .

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه : « طه حسين » ص ٧ ، ٨ ، ٩

(٢) المرجع السابق ص ٥٦

فالكاتب مشفق على مثاله لم يجد فى حيـــاة الرجل ولا فى علمه أو أدبه مغمزا إلا سارع بالرد عنه والمحاجاه له بالمنطق .

يقيم حوار بينه وبين الرجل يقصد منه التخفيف عنه واظهار الحياة له على غير لونها هذا القاتم لديه . يريد لو أن باستطاعته أن يفض سحب التشاؤم من حوله .

يرى أن مصدر هذه التعاسة هو القصور عن تذوق الحياة وعدم إدراك ما فيها من نعيم ولذة،ويريد له لو أنه اكتفى بهذا النور المشع من قلبه وعقله يجد فيه عوضا عن ذلك النور المفقود .

مواساة بنفس صادقة محبة مقدرة . يستوعب آلامه واحساسه بسجن النفس فى الجسد . يحس بذلك السجن بكل قسوة ومحنة هـذه النفس التى دخلت الدنيا كارهة ، وستخرج كارهة بدون النظر إلى رغبتها فى الدخول أو الخروج . لماذا وجدت ، ولماذا تشقى وتعذب ؟ما أرادت وجودا ولا تمنت حياة اذن لماذا العقاب والثواب وهى تجهل مصيرها بعد الوجود . والكاتب معه فى كل محاولة لايجاد اجابات لهذه الأسئلة فى الديانات أو الفلسفات وهو فى هذا القلق الذى يمليه عقل الفيلسوف فيذهب به إلى الشك وعدم الاطمئنان .

اكبار من أمر العقل ، وغلو فى تقديرة وعدم استطاعة لايقاف الفكر عند حدود معينة ، هو سر محنة « ابى العلاء »

وهو بحكم آفته معتزل للطبيعة ممتاز منها . وهو لذلك ينحى عليه باللوم لعدم استطاعته الملائمة بين حياته وبين كثير من مظاهر الطبيعة .

وهو بحكم هذا الاعتزال عاجز أيضا عن أن يأخذ بنصيب من الحياة الاجتماعية . عاجز عن الملائمة بين سيرته ومتطلبات هذه الحياة الاجتماعية من أوضاع وعادات . فهو دائما فى وضع الحاجة إلى من يعينه على هذه الحياة ، ووضع الاحتياج مؤلم للنفس خاصة هذه النفوس الأبية التى لها حظ من وحشية الغريزة وتوحد الطبع .

هذه الأحاسيس خلقت فى تلك النفس شعورين هما الحياء وسوء الظن الحياء لاحساسه القصور فى نفسه ، وسؤ الظن بهؤلاء المجهولين الذين يسمع أصواتهم ولايراهم ، ولايرى حركاتهم لذلك فهو سيىء الظن بالمجتمعات وما يمكن أن يلقاه فيها . كل ذلك حبب اليه العزلة والانفراد فليعكف على هذه النفس متفرغا لها يرودها ويعنف بها لتطيعه فيما ارتضاه لها .

والكاتب يتخذ هنا منهج التحليل النفسي . وكأنه يتحدث من داخل نفس « أبى العلاء » ، ومن أعلم بنفس « أبى العلاء » منه وقد عاش محنته نفسها وأحس الألم الدفين الذى حوته نفسه فهو هو فى ألمه ومرارته .

ولكى يبرز تميز « أبى العلاء » الذى يعتقده يوازن بينه وبين شاعرين كبيرين من شعراء العربية . كل منهما شارك فيلسوفه الأثير فى التفوق والنبوغ والامتياز ، ويشاركه أحدهما فى هذه العلة التى أبتلى بها ، وهما « بشار بن برد » ، « المتنبى » . فكل من بشار وأبى العلاء عرف التشاؤم ولكن تشاؤم « أبى العلاء » انتهى به إلى الطهر والبر والنسك والتحرج . وتشاؤم الآخر انتهى إلى العهر والفجور والاباحة .

ويجد الاختلاف كل الاختلاف بين سيرتيهما ، ولكن مالى أراه يناقض نفسه ! . أليس هو القائل فى البداية : « على أن مايعنيه من حياة رجل من

الناس شيء آخر غير هذه الأعراض التى تطرأ له . ليس ينفعنى مولده ولاحبه ولاشقاؤه ولا كل هذه الأشياء التى يمكن أن تلاحظ فى حياة الناس لاني لا أجد فى هذا كله أيسر الوضوح المقنع الذى نستبين به قيمته الصحية التى تميزه ،، .

فما باله الآن يعنى من الرجل بما يشينه ، ولا ينظر فقط إلى ما خلف ذلك الرجل فى دنيا الأدب ؟.

ثم يقارن بينه وبين ,, المتنبى ،، . ويلمس أعظم الفرق بين الرجلين رغم تشابههما فى كثير من الخصال . ومع أن ,, المتنبى ،، قد امتاز عن فليسوفه بنعمة البصر، ورغم أن جذور الفلسفة التي أبدعها ,, أبو العلاء ،، موجودة كلها فى شعر ,, المتنبي ،، ومع أن ,, أبا العلاء ،، تتلمذ فى مدرسة الشاعر الكبير وكان مقلدا له . إلا أن الفرق بينهما كان كبيرا جدا فى نظره فالمتنبى باع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء فأين هو من ,, أبى العلاء ،، الذى أذل شهوات نفسه وأعلى سلطان العقل وترفع عن الحياة وحاجتها !!

ونسي أنه قال أن ,, أبا العلاء ،، ما أضطر إلى ذلك الترفع الاعتزال إلا مكرها . وربما لو أختلفت ظروفه لاختلفت سيرته ولا أدرى لم يكبره كل هذا الاكبار وقد آثر الهروب من الحياة ، وما له يزرى بهذا الذى واجه الحياة فأخذ منها وأعطى . ألم يعش المتنبى حياة، الشاعر الطامع الذى يسعى لتحقيق غاية يراها أمله فى الحياة وخاض فى سبيل ذلك ما خاض من أهوال وشارك فى حروب وصراعات. فلماذا يزدرية !! ؟ أكان يفضل له أن ينزوى فى أحدى القاعات مقاطعا الدنيا وما فيها متلذذا بآلامه وشقاء نفسه مضيعا وقته في بعض هذا اللهو اللغوي المعقد ليسلي نفسه كما قال عنه ؟.

لقد خرج « المتنبي » للحياة وعاشها بكل مافيها ، بكل حيويتها وحرارتها تفاعل معها وانفعل بها وان كان في سيرته بعض أخطاء فهو انسان ، وأي إنسان وصل إلى الكمال ؟ فلماذا يزدريه ؟ كان باستطاعته أن يكرم فيلسوفه ماشاء له حبه واخلاصه له بدون الاقلال من شأن المتنبي أو غيره . فهو لم يعش تلك الأيام ولا صراعاتها ، ولا عانى أقدار الناس التي دفعت بهم إلى هذا الطريق أو ذاك ، فلماذا يطلق هذه الأحكام المعممة ؟

يقول : وازن بين المطمحين وقس إلى ضعة « أبي الطيب » رفعة « أبي العلاء » ان كان يمكن أن تقاس الرفعة إلى الضعة (وقد نسي أن هذه الرفعة حتمتها الظروف عليه وهو قائل هذا) « ومع ذلك فقد لقي كل من الرجلين في سبيل مطمحه آلاما شدادا لايبلغها الاحصاء الا أن آلام المتنبي تقص فلا تثير في نفسي الا غيظا وازدراء ، وآلام « أبي العلاء » تقص فتثير في نفسي حبا واجلالا ، كما تثير فيها عطفا وحنانا واشفاقا » .[1]

اني أربا « بطه حسين » أن يكون في مثل هذا التحيز البغيض فالمفروض من الأديب أن يحس شعور الناس ، ويتأمل آلامهم ومعاناتهم ، ولتكن الغاية التي عاني من أجلها المتنبي لاتروق للكاتب ، فلا يدعوه ذلك إلى الاستخفاف بآلام انسان أو معاناته ، فهي على أي حال آلام ومعاناة .

ثم لماذا لم يلتمس عذرا للمتنبي ؟ أنسي أن الرجل كان مضيعا وهو الذي يقول في كتاب مع « المتنبي » : « من حقك أن تسأل لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبي ؟ هذا لايعنيني ، وانما الذي يعنيني ويجب أن يعنيك هو أن

---

(١) مع أبي العلاء في سجنه : « طه حسين » ص ٧١

شعور المتنبي بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين كان العنصر الأول الذى أثر فى شخصية المتنبي »[١]

اذن فالواضح أنه يعرف ويقدر أن الرجل كان يعانى نقصان هذه الناحية وانه كان مضيعا يبحث عن الانتماء . أنسى أن الرجل كان يحس الغربة فى واقع ينكره ويشك فى حسبه ونسبه فكان راغبا فى أن يجد لنفسه مأمنا ووضعا يحقق فيه ذاته . وكان يسعى إلى مايسعى اليه ليعوض فى نفسه نقصا يستشعره . فلماذا لم تأخذه رحمة ولاشفقة بالرجل فى كل هذا وعاداه واستخف به ؟ بل كان لا لوم عليه فى ألا يستشعر رحمة ولا شفقة بالرجل ، وكان حسبه أن يدعه وشأنه وآلامه التى قاس منها فلا يصفها بالضعة ولا يزدريها .

بل ان العجب ليأخذ بنفسى حين أقرأ ما يقول : لم يشعر « المتنبي » قط بأنه سجين إلا حين اضطر إلى السجن . وقد استقبل هذا السجن المادى فى أول أمره كبير النفس حمى الأنف لكنه لم يلبث أن ذل واستكان وأنفق أيامه فى السجن ضارعا مستعطفا يتوسل إلى الأمير ويبرأ مما اتهم به حتى أدركه العفو وردت اليه حريته هذه الحرية المبتذلة التى يستمتع بها الناس جميعا لأنها حرية الأجسام لا حرية النفوس » .[٢]

وأعجب ، لماذا يطلب من الرجل أن يحس السجن ؟ ان الإنسان السوى لا يشعر بهذا السجن الذى يريده المؤلف والذى أحسه « أبو العلاء » .

---

(١) مع المتنبي : « طه حسين » ص ٢١ دار المعارف الطبعة العاشرة

(٢) مع « أبى العلاء فى سجنه » : « طه حسين » ص ٧٢

الإنسان السوى السليم النفسية يحاول التكيف مع الواقع ولا يسجن نفسه فى سجون الوهم . وأعجب أيضا ، هل كان يريد للرجل أن يظل سجينـا أبد الدهر ؟ الشىء الطبيعى أن يسعى إلى الحرية والتحـــرر من ذلك السجن المادى الذى وضع فيه . وهل كان يطلب من « المتنبى » أن يسجن نفسه فى سجن « أبى العلاء » كى يبلغا عنده الرفعة والاكبار مع اختلاف ظروف كل منهما ؟ لأنه يعود فيقول : أما « أبو العلاء » فقد شعر بسجنه بل بسجونه وألح على نفسه بهذا الشعور لكنه استمتع فى هذه السجون بهذه الحرية العليا التى لا يستمتع بها الا الممتازون من الناس » [1] . ما معنى هذا ؟ أيريد من كل الناس أن يكونوا « أبا العلاء » ؟ لقد كان للرجل ظرف خاص وضعه رغما عنه فى هذا السجن أو هذه السجون فلمـاذا يطلب مـن « المتنبى » أن يكون ذاك الرجل ؟ . « والمتنبى » يمقت السجن ويكره البقاء فى أى مكان ويحب الحرية والانتقال ، يضيق بالمكان الواحد والإقامة طـويلا أليس هو القـــائل ...

يقول لى الطبيب أكلت شيئا	وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبـــه أنى جـواد	أضـــر به طول المقـام
تعـــود أن يغبر فى السرايا	ويدخل من قتام فى قتام

فهذه نفس تأبى القيد ، والمقام ، وتضيق بالسكينة والهدوء . فكيف بها بالسجن ؟

---

(١) مع أبى العلاء فى السجن . د طه حسين

عذرا ياسيدى الأديب . فقد صدمتنى آراؤك هذه ، وصدمنى تحيزك وصدمنى التشدد فى هذه المواقف التى لاتحتمل منك هذا التشدد .

وهو يصرح بتشدده هذا ولا يخفيه متخذا من ذوقه الشخصى منهجـــا ويعلى ذوقه الخاص على التجرد والنظرة المجردة حين يقول : « أنا أقدر فن « المتنبى » وأعجب ببعض آثاره إعجابا لاحد له وأعجب ببعضها الآخـر اعجابا متواضعا وأمقت سائرها مقتا شديدا » . (١)

ومن أدراه أن غيره لايمقت بعض أعمـــال صاحبه هذه المعقدة مقتا شديدا أيضا ؟

ان نزاهة الأحكام الفنية الصـادقة لاتقوم على هذه الأذوان الشخصية البحتـة .

وكأنه يحس أن صاحبه يثقل على بعض النفوس بتشاؤمه وتعقيـده فيلتمس له العذر . « وفى كثير من آثار أبى العلاء كآبه وشحوب لاتستريح اليها النفوس التى تألف الاشراق والابتسام ، ولكن الحياة ليست إشراقا كلها ولا ابتساما « . (٢) ونسى أننا دائما فى حاجة إلى الا بتسام علنا نستطيع به التغلب على صعوبات الحياة . ولعله اتبع مثل هذه السيرة فى تبرير الأشياء مع غير أبى العلاء مادامت له القدرة على التبرير . أم تراه خص أبا العلاء بكل جهده فى هذا ؟

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه : « طه حسين » ص ٧٣
(٢) المرجع السابق ص ٧٣

وقـد مضى فى فرض رأيه فى أبي العـلاء عاينا فيقول بعـد شرح عزلته وسرها « ليس هذا الرجل خليقا بالاشفاق عليه والاعجاب به ، بلى هو خليق بأن نحبه ونؤثرة بالود وبأن نزوره فى هذا السجن الذى أتخذه لنفسة ونقيم معة فيه وما وأياما لنرى كيف كان يعيش فيه ، لاعيشته المـادية بل عيشته العقلية المفكرة التى تصورها اللزوميات » (١)

ونسى المؤلف وهو يسلك هذا الأسلوب من الأحكام الشخصية ويرضي به حكما على الآخرين أن غيره من الناس ربما لايحب دخول هذا السجن ولا التعاطف مـع صـاحبه حتى وان كان يكتب اللوزميات تلك التى تسلى فيها بالشدة كما يقول . حتى تلك الشدة في الانشاء لايلومه فيها .

انما يبررها له فلعل القارىء يجد فى هـذه المشقة لذة حين يقهرها . ويشتط فى التبرير فيقول : أفتظنه لم يفعل هذا إلا لأنه أراد أن يروض نفسه على الجهد فى الإنشاء ؟ كلابل هوقد فعل هذا ليسلى عن نفسه ألم الوحدة ويهون عليها احتمال الفراغ !! وليشعرها وليشعر الناس بأنه قد ملك اللغه وسيطر عليها،(٢)

فأبغض بها من سيطرة تلك التى أثقل بها على نفسه وعاينا فى انتاج هـذا العبث الفنى كما يسميه المؤلف .

وقد أرهق المؤلف نفسه أعذارا عن فيلسوفه الأثير . يقول عن التكرار الملحوظ فى إنشاء الرجل : فقد تسطيع أن تعتذر عن « أبى العلاء » من هذا التكرار بأنه لايسطيع أن يعطى الا ماعنده ولم يكن عنده الا التشاؤم وقد

---

(١) مـع أبى العــــلاء فى سجنه ، طه حسين ، ص ٩٠ .

(٢) المرجـع السابق ص ١٣٤

أعطانا من التشاؤم ما استطاع وما ينبغي أن تكلف الشعراء فوق ما يطيقون،(١)

وما أحسب أن يكون هكذا عطاء الأديب ولكن هكذا شاء كاتبنا أن يرهق نفسه ويرهقنا أعذارا عن صفيه وأثيره ، أبي العلاء ، .

فالكاتب يرى في الرجل نفسه . وهو نفسه يلح على عناصر التشابه هذه الحاحا يقول : ، هو يرى أن الناس يجب أن يأخذوا رأيه على ما فيه وفي صاحبه من عوج وأمت ، وليس لهم أن يقوموه ولا أن يقوموا رأيه وإنما لهم أن يقبلوا منه هذا الرأى أو أن يردوه عليه ، (٢)

ونقرأ مثل هذا الرأى في بعض كتب ، طه حسين ، يوجه حديثه للقارىء ويطلب منه أن ينصرف عن الكتاب وعن كاتبه ان لم يعجبه . (٣)

وعلى صعيد التشابه يقول : ، هو لايستطيع أن يـتزل عن هذه الآراء إذا إقتنع بها الا أن يحوله عنها شك طارىء أو برهان جديد ويجب أن يأتيه هذا الشك من نفسه لا من غيره ويجب أن يأتيه هـذا البرهان من عقله لا من عقل سواه والناس أحرار في أن يشاركوه في هذه الآراء أو أن يخالفوه ، (٤)

فهل هـذا الرجل إلا طه حسين ؟ فقد اتخـذ الشك الذى يأتيه من نفسه لا من غيره أساسا لكثير من دراساته الأدبية .

ولكن أكثر الأعذار غير المقبولة حين يقول : فخذ اللوزميات كما هي

---

(١) مع ، أبي العلاء في سجنه : طه حسين ص ١٠٩

(٢) المرجع السابق ص ١٣٤

(٣) المرجع السابق ص ١٣٦

(٤) انظر المعذبون في الأرض

فان أعجبتك فذاك وان لم تعجبك فدعها والتمس لذه لنفسك ... فلم ينظمها « أبو العلاء » لك وانما نظمها لنفسه . (١)

هـــل فاته أن أى عمل أدبى انما يكتب للناس ؟ والأدب لا يكون أدبا منتجا مثمرا الا بين الناس .. وأن الأدب وثيق الصلة بالمجتمع .. وأنه هو أكثر من نادى بهذا ؟

فالمؤلف اذن ينفذ إلى أعماق « أبى العلاء » الى حياته ، أخلاقياته فلسفته آرائه السياسية ، مذهبه ، زهـده ، ينفذ إلى كل هـــذا نفوذ المستمتع الراضى المدافع .

وتشتد نغمة الحماس فى الدفاع حتى فى أمـــور الدين فيبرر له معتقداته ويخبرنا بما يأمر به « أبو العـــلاء وما لا يأمر به !! » وهو لا يأمر بالحج .. وأكبر الظن أن رأيه فى الحج سيء !! وهو يأمر صراحة بالركن الأول من أركان الاسلام وهو أن تشهد بأن لا إله إلا الله وبأن محمدا رسول الله . لا يأمر بذلك صراحة ، إما لأن فى نفسه من النبوات شيئا كما قدمت وإما لأن هذا الأمر مفهوم ضمنا .

أهناك أكثر من استماعا أو رضا أو دفاعاً ؟ هكذا كان موقف الكاتب من ذلك الفيلسوف . لا نقاش ولا لوم .. على غير العادة منه .

وينسى فى التعريف بتلك الفلسفة التى أسماها مظلمة ، التى بدأت بالأمى وأنتهت الى اليأس فحاول صاحبها أن يتخذ لنفسه معزلا يحاول فيه تطهير

---

(١) مع أبى العلاء : « طه حسين » ص ١٣٧

(٢) المرجع السابق ص ١٣٨

(٣) المرجع السابق ص ١٨٣

النفس من شوائب الدنيا . ويلتمس للرجل عذرا عن هذا الاعتزال فيقول : « أبو العلاء ، ليس صاحب أصلاح عملي .. انما هو مفكر شاعر ناقد ؛ يرى الشر فيدل عليه » . (١)

وقد اقتطع له هذه الصفة من نفسه ، فهو أيضا ليس صاحب إصلاح عملي انما هو مفكر ناقد يرى الشر فيدل عليه ، ولكن بايجابية ، فلا ترى في « طه حسين » سلبية « أبي العلاء » ؛ .

ولكن منطق الدفاع يخونه بعض الشيء حين لم يعد باستطاعته مساندة هذا الزهد وامتداحه وهو الذى طالما أشاد بزهد الرجل وكبريائه وترفعه عن الدنيا ؛ يعود ليقول كلمة حق بالغابها درجة من الصدق لم يفصل بيننا وبينها كل هذا الحب والولاء لشخص الفيلسوف يقول : هو اذن ساخط على الدنيا لأنها أعجزته لا لأنه زهد فيها ، وفلسفته اذن فلسفة المحنق المغيظ لا فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها لا لأنه أراد أن يرتفع بل لأنه أكره نفسه على هذا الارتفاع » (٢)

اذن فترفع الرجل كان اضطرارا لا طبيعة جبل عليها وخلقت فيه !! ولا أدرى بعد كلمة الحق هذه كيف يباهى المؤلف بهذه الكبرياء وهذا الترفع بعض الناس كالمتنبي مثلا ، لكنه سرعان مايعود إلى الحنين فيتساءل : « أترحم هذا الرجل وترثى له ، أم تضيق به وتسخط عليه ، أما أنا فأحتضنه بالرحمة والعطف » (٣)

---

(١) مع أبي العلاء : طه حسين ص ١٨٣
(٢) المرجع السابق ص ١٩٠
(٣) المرجع السابق ص ١٩٠

مابا له يجيب عنا ، ولم يتلق بعد منا الجواب ؟ أما أنا فأضيق بالرجل رغم تقديرى الكبير لظرفه الخاص، فأنا لا أحب الهروب من الحياة ، فليواجة الانسان مصيره وقدره وليتلاءم مع واقعه أيا كان . وهذا مافعله «طه حسين» نفسه . أما « أبو العلاء » فقد فر من الدنيا ولم تكن له القدره على المواجهة وهذا موقف ضعف ، ارتضى فيه قتل النفس ببطء . ولو صح لنا أن نطبق علية منطقا من علم النفس لقلنا انها السادية . أنا لاأهاجم شخص الرجل فأنا أحبه وأحب فيه هذه الشفافية . ولكن موقف « طه حسين » بالتأييد المطاق هو الذى دفع بهذا الرأى . وان لم أكن فى مجال من يصدر أحكاما . وتعبيراً عن توافق الرؤيا بينهما يفسر لنا فكره بما يمكن أن يفسر فكر نفسة لو سئل عن ذلك . يقول : « ايمانه بالله يدفعه إلى الحب والأمن والثقة حينا ، ويدفعه إلى الخوف والاشفاق والقنوط حينا آخر ، وايمانه بالعقل يدفعه إلى الشك والانكار مـــرة ويدفعه الى الايمـــان واليقين مـــرة أخرى »[1] وما هذا الا « طـــه حسين » نفسه .

ويتساءل ، عن غرض « أبى العـــلاء » من تأليف الفصول والغايات . ويجيب ، بأن كتابه هذا نوع من أنواع التقرب إلي الله ولكنه يعبد الله ويتقرب اليه كما يريد ويختار لا كما يريد الناس . أى أن « لأبى العلاء » الحق فى عدم الاقتناع ببعض أركان الدين طالما هو يعبد الله على طريقته الخاصة!! فهو يقطع بشئين : أحدهما وجود الله والآخـــر انقطاع الصلة بين الله والناس إلا عن طريق العقل وحده ، وفى هذا انكار مطلق للنبوات كلها بما فيها بالطبع نبوه محمد عليه السلام ! فليكن ، فالمؤلف لم يناقش لأنه لا يحب

(١) مع أبى العلاء فى سجنه : « طه حسين » ص ٢٠

مناقشة « أبى العلاء » فى هذه الأمور كما أعلمنا سابقاً . وان كان قد ناقشه في أمر الوحدة والقسوة على النفس والاستمتاع بالدنيا .

ولا أدرى ، فحين ارتضى المناقشة مبـدأ فى أول الكتاب وأقـام حواراً بينه وبين الفيلسوف . فليناقش اذن ، وليحاور الآن ، وما أوسع باب المناقشة فى هذه الأمور لو أراد أن يفتحه .

ويعود ليحاول التخفيف من هذا الشطط فيتحدث عن آلام « أبى العلاء » الكبار التى يشكو منها فى اللزوميات وفى الفصول والغايات والتى يتصور انها هى التى دعته الى هذه الفلسفة وتلك السيرة ، فيقول أنها فقد بصره وفقد أبويه واضطراره الى ترك بغداد . وكل هذه الألوان من الحرمان التى فرضت عليه كونت له هذا المزاج الحاد!

وكأنه يرد على نفسه فيقول : أن هذه الآلام قليلة ان أردنا احصاءها ولكن آثارها ونتائجها لا تحصى !

وبعد فاننا لاننكر على الكتاب قيمته الفنية الأدبية فقد جعلنا الكاتب نشارك « أبا العلاء » فى سنواته الخمسين التى عاشها فى سجنه هذا يعمل فكره وينثر آراءه فى الحياة ومصير النفس ، وفى اللذة وفى الألم ، وفى السعادة وفى الشقاء وفى الموت وفى البعث وفي الديانات والنبوات ، في تراوحه بين الشك واليقين ، وفى خضوعه التام لسلطان العقل الذى قاده إلى طريق طويل وعر تصعب فيه المسالك وأدت به فى النهاية إلى التخبط فى الحيرة حيث لم يصل إلى اقتناع قام بشيء . وترك لنا نحن أيضا حيرة وتساؤلات خطيرة تلتف حوله .

أظهر « طه حسن » فى هذا الكتاب كل قدراته لمزج ببراعة فائقة بين

كل المناهج . فلم تعد ترى منهجا بعينه انمـا هو مزاج رائع يضاف اليه كثير من نفس الأديب وروحه . لقد نحـا نحوا نقديا فلسفيا فجاء الكتاب تجديدا فى طريقه تناول الشخصية الأدبية .

... ...

ويعلى « طـه حسين » مرة أخرى صوت « أبى العلاء » فى كتاب يحمل نفس الاسم « صوت أبى العـلاء » ساهم فيه بقدر كبير لتقريب فن الفيلسوف من الناس .

فهو يرى أن اللزوميات التى كان « أبو العلاء » يلهو بانشائها ويتسلى ، تصعب وتغمض على فهم كثير من الناس فترجمها بأسلوب مفهوم ، أو نثرها بأسلوب شعرى حتى يقرب غايات الفيلسوف ومراميه إلى الناس .

ويخلع على « أبى العلاء » ما أحب أن يخلع من صفات تؤكد أن الرجل كان تجدفى هذا الفيلسوف المثل والمثال إلى أن يقول : « قد عرفت أبا العـلاء » إلى خاصه النـاس وأحب أن أعرفه إلى عامتهم بالترجمـة الصحيحة عنه والتفسير الدقيق لشعره . فلوقد نشرت اللزوميات فى عامة المثقفين لما فهمها أكثرهم لأن أبـا العلاء لم ينشىء اللوزميات لعامة المثقفين بل لست أدرى لعله أن يكون قد أنشأها لنفسه وللذين يرقون إلى طبقته من أصحاب العلم الكثير والبصيره النافذه » [1]

وهذه مجرد أعذار يسوقها المؤلف حبا وإيثارا للرجل . فالأدب لايعيش الا بين الناس والعزلة تخنقة وتقضى عليه . فالأدب للناس ومن الناس .

ويريد المؤلف كعادته مـع « أبى العـلاء » أن يجد المبررات لكل شىء

(١) صوت « أبى العلاء » : طه حسين ص ٨ مطبعة المعارف ٤٤

عنده ، فيفرض رأيا غريبا فى مجال الدفاع عن تشاؤم الرجل . يقول : « والشباب فى حاجة إلى شيء من التشاؤم يزهدهم فى الحاضر ويرغبهم فى المستقبل ويدفعهم إلى الإصلاح ويزين فى قلوبهم حب الرقى » .(١)

ألا نرى جميعا أن هـذا منطق معكوس ؟ الشباب فى حاجة الي التشاؤم ليزداد رغبة فى المستقبل ؟ ترى هل أخطأ الكاتب . فالمفروض أن الشباب بحاجة إلى التفاؤل ليرغبوا فى المستقبل ولو أخذ الشباب بتشاؤم الرجل وتعمقوا داخل فلسفته هذه لكرهوا الماضى والحاضر والمستقبل جميعا .

وفى مجـال الدفاع أيضا عن الرجـل يحمله الأخطاء من حيث لايدرى ، فالمفروض فى الأديب أن يجيد توصيل أفكاره وآرائه إلى الناس ، وبهـذا تكتمل صورته . وحين يقـــول المؤلف : ليس كل الناس قادرا على قراءة اللزوميات والفصول والغايات ورسالة الغفران . يدل هذا القول على أن خللا فى ذلك الأديب لا فى كل الناس . فقد أساء اليه حيث قصد الإحسان لذلك فهو يرى أن يترجم هذا الشعر مع النصوص . فليطلع القارىء على الصوت والصدى معـا . . وليفضل بعد ذلك مايشاء أما هو ، أما « طـه حسين » فيقول أنه يجد صوت « أبى العـلاء » أعذب فى النفس وأحب إلى القلب من كل صوت ، ومن كل صدى !

... ...

(١) المرجع السابق ص ٩ مطبعة المعارف ٤٤

أبو الطيب المتنبي

فارسنا هذه المرة نقيض لأبى العلاء فى نفس « طه حسين » . « المتنبى » ذلك الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، وليس له حظ مع أديبنا الكبير ، وذكره ليس بالجديد علينا ، فقد دخلنا فى مناقشات حوله طوال التحدث في الكتابين السابقين . واتضح لنا جميعا شعور الكاتب نحوه . والان يخلص له فى كتاب خاص .

يصحب ديوانه معه فى رحلة إلى جبال الألب حيث يخلو اليه ويعيش معه ، وليس هذا بالغريب ، فالأديب وأن كان يكره المتنبى الا أنه لاشك قد رأى فى فنه شيئا مايستحق التوقف وسنرى أنه فى بداية الكتاب يخبرنا كيف أقبل على صحبه المتنبى معاندا لنفسه التي تأبى هذه الصحبة لأنه على حد قوله : « لست من المحبين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه ، فلم أجد بأسا فى أن أشق على نفسى أثناء الراحه وأثقل عليها حين تبغض الاثقال » . (ولأنه على حد قوله أيضا) حاولت ومازلت أحاول أن أستكشف السر فى حب المحدثين له وأقبالهم عليه وأسرافهم فى هذا الحب والاقبال كما أسرف القدماء فى العناية به حبا وبغضا وإقبالا وإعراضا » . (١)

ولكن سنرى بعد ذلك أن « المتنبي » قد استغرق أديبنا المعاند لنفسه ، وفرض أدب « المتنبى » نفسه عليه فلم يعد يرى سوى هذا النتاج الجميل الذى استهواه وانتزع منه كلمات الاعجاب وتورات كلمات الهجوم وخففت بعض الشيء . وظهرت روح الأديب الذواقة وانسالت منه عبارات ما كنت أحسب أنى سأقرؤها له عن « المتنبي » ، « فلم يتمالك نفسه في أظهار الاعجاب .

... ...

(١) مع المتنبي : « طه حسين » ص ٩ دار المعارف الطبعة العاشرة

يقول « فرانشيسكو جابزيالي » ربما كان عدم تحيزه سمح له بتحليل المتنبى ومؤلفاته تحليلا دقيقا ، وبعيدا عن كل تحيز ورغما عن الاعتراضات الأولى على عدم وجود طريقة يسير عليها فى كتابه فان هذا الكتاب سرعان ما تغلغل تغلغلا عميقا فى مشاكل سيرة هذا الشاعر وأصبح تكملة للأبحاث التى قام بها كل من ماسينون وبلاشير ولو أنه خالفها بعض المخالفة » . (١)

أما عن التحيز فيبدو أن فرانتشيسكو لم يقرأ بعض مؤلفات « طـه حسين » الأخرى والتى تحدث فيها عن « المتنبى » أما عـدم وجود طريقة يسير عليها فى كتابه ، فمن الواضح أنه قد اتخذ المنهـج الفنى الخالص الذى ينصب على التذوق . فأقبل على شعـر « المتنبى » يدرسه ويفسره ويحلله ويستوحيه سيرة الشاعر . بل انه لم يمس سيرة الشاعر الا من خلال النصوص وما تخبر به النصوص . وجد فى شعره تصويرا لحياته بأحداثها وآمالهـا وطموحها وصراعاتها واتخذ من الشعر وسيلة افهم نفسية الشاعر يقـول : « اقرأ معى هذه الأبيات ، ولكن قراءة المستأنى المتمهل الذى لايمر بالشعر مرا والذى لايشغله الجمال الفنى عن التماس نفس الشاعر وما يمكن فى ضميره من العواطف المكظومة والأهواء المكتومة والخواطر التى لايعرب عنهـا الا بالاشارة والتلميح » (٢)

هذا هو النهج الذى ظهر أن الكاتب قد اتخذه ، ولكنه الكاتب فى آخر الكتاب يدلي برأى آخر يبدو مناقضا لهذا الذى نقوله . يقول : « أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب ان صور شيئا فهو خليق أن يصورنى أنا فى بعض

---

(١) طه حسين كما يراه كتاب عصره ص ١٧

(٢) مع المتنبي : « طه حسين » ص ٢٢

لحظات الحياة أثناء الصيف الماضى أكثر مما يصور المتنبى ، (١)

ويعده من الغرور أن يقرأ الإنسان إنتاج أديب ما وتمتلىء نفسه بما يثيره ما قرأه فى نفسه من إنفعالات فسجل هذا متوهما أنه بذلك قد صور الأديب كما كان أو كما ينبغى أن يعرف . وهو فى الحقيقة لم يصور إلا نفسه عارضا ما ماج من خواطر .

ويقول : انه خرج بنتيجة يعجب من نفسه انه لم يفطن اليها الا متأخرا وهو أن شعر « المتنبى » لا يصور « المتنبى » ، كما أن شعر أى انسان لا يصوره تصويرا كاملا . فهو يريد أن يلفتنا إلى شىء : « أن ديوان « المتنبى » ان صور شيئا فانما يصور لحظات من حياة « المتنبى » لا أكثر ولا أقل ، كما أن هذا الكتاب الذى بين يديك ان صور شيئا فانما يصور لحظات من حياتى أنا لا أكثر ولا أقل » . « اذن فقد يكون من الخير أن نقتصد وألا نتشدد فى هذه النظرية التى يحبها المحدثون ويشغفون بها حبا وهى أن الشعر مرآة الشاعر وأن الأدب مرآة الأديب ولست أشك فى أن الشعر مرآة لشىء ولكنى لا أدرى أهذا الشىء هو نفس الشاعر أو شىء آخر . ومهما أغلو فى تصديق هذه النظرية وفى نقد النقاد وبحث الباحثين فلن أتجاوز أن أقول أن نقد الناقد إنما يصور لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر أو الأديب الذى عنى بدرسة »، (٢)

---

(١) المتنبى : د طه حسين ، ص ٣٧٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٩

وبهذا يريد أن يقلب مفهومنا رأسا على عقب . وأكثر العبارات التى أقف أمامها متعجبة لا أفهمها : ان هذا الكتاب ان صور شيئا فهو خليق أن يصورنى أنا أكثر مما يصور « المتنبى » . الحقيقة انى لم أفهم كيف يصوره هو . أيقصد تصوير الموقف الشعورى له ؟ اذا كان هذا فان هذا شى واضح بالفعل . لكنه موقف شعورى مترتب على مواقف الشاعر ، وان ظهر الموقف الخاص للمؤلف فقد سبقه إلى الظهور موقف الشاعر ، فيظر الشاعر أولا وقبل المؤلف . وهذه اللحظات التى يتحدث عنها بالنسبة إلى نفسه لن يكونها ويشعره بها الا لحظات الشاعر نفسه . وحين يقول أن ديوان الشاعر ما هو الا لحظات من حياة الشاعر فإنى أرد ... وهل الحياة الا مجموعة من لحظات متميزة ؟ فان هذه اللحظات المتميزة التى يدل عليها شعر الشاعر أو أدب الأديب هى التى تعنينا ونسعى لاكتشافها . والا فما حاجتنا إلى معرفة لحظات باهته خامله من حياة شاعر أو أديب ؟ فان كان « طه حسين » قد تلمس فى شعر « المتنبى » خطا لحياة « المتنبى » فانما هو قد سعى وراء تلك اللحظات التى تتشابك مع بعضها البعض مكونة نسيج حياته . وما ضره أن يعترف بذلك صراحة وقد اعترف به ضمنا بين صفحات الكتاب . ألمجرد الرغبة فى الهجوم على نظرية المحدثين ؟ ربما لأن أديبنا يفضل دائما أن يوضح لقارئه أنه لايتبع نهجا بعينه ، وانه يأتى دائما بالجديد رغبة منه فى أن يبهر القارىء . ولا أدرى لماذا أراد فى خاتمة الكتاب أن يوقعنا فى هذه الحيرة مع أن الكتاب قد سار فى نهج متسق منذ البداية ودل على أن صاحبه يسير على النهج الفنى الجمالى الذى يتخذ من النص وتذوقه وسيلة لسبرغور النفس وفهمها وتصور لمسار الحياة .

ومن الشعر يستدل على تميز ذلك الصبى الذى لم يكن يتجاوز العاشرة ويقول الشعر . ومن الشعر استدل على أن الصبى كان يتكلف جهدا أحيانا للوصول إلى مايريد . ورأى فى شعره المبكر الطفولة الحلوة والجزالة المطبوعة ونزوع نفسية الصبى إلى الحرب والقتال . ويستدل أيضا على رغبة الصبى الشديدة فى تغيير حاله والخروج عما هو فيه من الهدوء والطمأنينة إلى حياة المغامرة والمخاطرة ويستشهد بهذه الأبيات :

إلى أى حين أنت فى زى محرم ‍ ‍ وحتى متى فى شقوة وإلى كم ؟
وإلا تمت السيوف مكرما ‍ ‍ تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقا بالله وثبة ماجد ‍ ‍ يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم .

يدل ذلك على روح الثورة الكامنة فى نفس الغلام يقول : « ليس عندى من شك فى أن هذه الأبيات تصور ماماد به الغلام من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة » (١)

ومن الشعر يستنتج انحرافه إلى اعتناق مبدأ الحلول ويقول عن شعر يصور ذلك « هذا الكلام وحده صريح فى انحراف « المتنبى » عن الجادة الدينية واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى الالحاد أقرب منها إلى أى شىء آخر » (٢)

ويذكرنى هذا الحديث بحديثه عن رجل آخر ينكر النبوات ويهدم أركان الدين ولم يتهمه مثل هذا الاتهام .

---

(١) مع المتنبى : « طه حسين » ص ٤٤
(٢) مع المتنبى : « طه حسين » ص ٤٥

ويستنتج المؤلف أن الرجل قد نشأ نشأة شيعية غالية لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية وانه ماذهب إلى الشام إلا داعية من دعاة القرامطة وهو فى السابعة عشرة بعد ويستند فى هذا كله إلى شعوره القوى بذلك ؟

* ومن شعره أيضا يستنتج خصلتين فنيتين للشاعر هما : المطابقة والمبالغة . المطابقة يستخرج منها فنونا من الجمال وبراعة التعبير ، والمبالغة التى تتماشى مع حدة طبعه وقوة حسه وعنف نفسه . ويدفعه كل هـذا إلى الغلو والاسراف فى كل شيء .

* وفى الشعر نلمس هموم نفس ، وآلام إنسان يحاول اخفاءهـا على القارىء . ومن يقرؤها يفهم منها شعور الحب والعشق،لكن همومه كانت أبعد من ذلك . ذلك الحنين المضنى فى نفسه إنما هو للوطن وقد ثقلت عليه الغربة .

أرق على أرق ومثـلى يأرق — وجوى يزيد وعبرة تترقرق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى — عين مسهدة وقلب يخفـق
مـا لاح برق أو ترنم طائر — الا انثنيت ولى فـؤاد شيق

* ويسير مع شعر الشاعر فيرى بدء التفكير الفلسفى الحزين عند الفتى وهذا التفكير جاء من رجوع الفتى إلى نفسه وإلى قومه . ومن إحساسه بالغربة والضياع هو وقومه فهو اذن يسير مع الشاعر خطوة خطوة فى حياته من خلال الشعر وهو ما يؤيد قوله فى آخر الكتاب .

وعلى هذا يسير فى كل مراحل حياة « المتنبي » ، فهو يعرف مذهبه السياسي من تلك القصيدة التى لمس فيها أنه أعم وأشمل بكثير من التشيع والقرمطة . وهو مذهب يرجو منه توحيد كلمة العرب وأن يبتعد الخدم والرقيق عن الحكم العربي ليبقى خالصا كما كان .

وليس أدل على أن المؤلف يستقصي الشعر ويستلهمه حياة الشاعر من قوله : ,, نحن حين نقرأ القسم الأول من ديوان « المتنبى » قراءة ممعن مفكر مضطرون إلى أن نلاحظ أن « المتنبي »صبيا وشابا كان يحي لونين من الحياة مختلفين أشد الاختلاف ... إلى آخره ,, (١)

وهذا يوضح لجوءه الدائم إلى شعر الرجل ليستنبط حياته وأحداثها منه ، وحق أخلاقياته فهو يعرف ان « المتنبى » كان مبغضا للخمر من قوله :

لأحبتي أن يملئـــوا بالصافيـات الأكوبـــا
وعليهم أن يبذلـــوا وعلى ألا أشربــــا
حتى تكون الباتـــرا ت المسمعـات فأطـربا

وحين يقول عنه : ,, كان المتنبى شابا قوي الحس دقيق الشعور عنيف الطبع حاد المزاج ، لا يعرف هذه الصفات الا من تذوقه لشعره وإحساسه به :

غثاثة عيش أن تغث كرامتي وليس بغث أن تغث المآكل.

وهكذا سار مع الديوان فقسم حياة الرجل طبقا لاحساسه بهذا التقسيم في شعر الرجل إلى خمسة أقسام تحدث عنها في خمسة أبواب جمعها هذا الكتاب « مع المتنبي » وما كان حديثه عن حياة الرجل بأقسامها الخمسة الا من خلال الديوان ، مستلهما أبياته مستوحيا معانيه متخذا منه هاديا لفهم هذه الحياة والاقتراب من تلك النفس .

---

(١) مع المتنبي : « طه حسين » ص ٨٩

ويضمن أبوابه الخمسة آراء له تعتمد على الذوق الخاص به وأحكاما يطلقها . وأنا على يقين من أنه لو كان غير ,, المتنبي ,, ما أطلقها .

يقول عن هذا الاسم الذي زعموا أن ,, المتنبي ,, اتخذه له وهو ,, ولا ,, هذا الاسم المشتق من النفي الخالص الشامل أشد الأسمـــاء ملاءمة لحياة ,, المتنبي ,, العملية والعقلية في ذلك الوقت فهو كان ينفي كل شيء ، كان ينفي الدين والسلطان والنظام والناس ولم يكن يثبت إلا نفسه لم يكن قرمطيا فحسب بل كان كذلك داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها ,,.(١)

ولا أدري لماذا يقول عنه ذلك وهو الذي بدا منذ هنيهة متفهما لمذهبه السياسي الذي وصفه هو نفسه بأنه خطير ! وأرى أن الرجل لم يكن قرمطيا ولا فوضويا انما كان ثورة كاملة .

المهم أنه يبدو أحيانا متفهما لظروف الرجل مقدرا لها ... فيعرضها في شيء من الحياد ، لكنه يعود فجأة إلى كراهيته وتعصبه على الشاعر فيطلق الأحكام المجحفة ، يقول : ,, كان في حياته الأولى شديد الثقة بنفسه ، عظيم الايمان بعزمه وهو في حياته الثانية شاك في نفسه أشد الشك قانط من عزمه أشد القنوط . كان في حياته الأولى ساخطا على ماضيه متبرما بحاضره طامعا في مستقبل باسم فيه الرضا وتحقيق الأمال . وهو في هذه الحياة الثانية نادم على ماضيه الذي جحده ملتاع على مستقبله الذي يئس منه ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق . ولاشك أن هذه الحالة النفسية أبلغ الأحوال تأثيرا في نفس الشاعر الحساس . ,, (١)

---

(١) مع المتنبي : ,, طه حسين ,, ص ١٥٠

اذن هو على درجة كبيرة من التقدير لمتاعب الرجل . ألا يكفيه كل هذه الظروف المعاكسة فى توجيه هذا الانسان الى تلك الطرق التى سلكها فى حياته ولم يرض عنها المؤلف ؟ ومن كلامه هو نفسه نلتمس الأعذار للمتنبى ، فكل هذا يجعل هذا الرجل يستميت فى سبيل تحقيق غاية لتلك النفس المعذبة ويسلك فى سبيل تحقيق هذه الغاية كل طريق حتى لو لم يرضى عنه « طه حسين » .

يقول بعد اتصاله ببدر بن عمار ومدحه أياه : « سنرى أن حياة المتنبى منذ ذلك الوقت ليست الا سلسلة متصلة من بذل الكبرياء للسادة والقادة والأمراء . ثم يعدد الصفات التى مدح بها « المتنبى » بدرا ويستكثرها عليه ويرى ذلك من الشاعر مبالغة . ولم يشفع له عنده أنها قصيدة مدح يريد أن يثاب عليها . ويعيب عليه حدة نفسه وتهالكه على الراحة بعد التعب وعلى الرضا بعد السخط وعلى الغنى بعد الفقر وعلى الأمن والهدوء بعد الخوف والاشفاق . . . ولو لم يطمح الشاعر إلى مثل هذا . فالى مايطمح ؟ ؟ أيلومه لأنه لم ير أنه قد جدد شيئا فى فن المديح كما يقول ؟ فما باله لايغفر له عدم تجديده فى قصيدة وقد بهر بعد ذلك من فنه بكثير وهو الذى يقول قبل ذلك بقليل لاتسل عن ارتفاع فنه وانحطاط نفسه . [1]

فهو برغم اتهامه له بانحطاط النفس الا أنه يشيد بفنه . وما أرى الا أنه مطلق لأحكامه فى عجلة من أمره ، ويوحى من بغضه .

ويترصده دائما ليصدر أحكاما عليه . فما يكاد يمدح أحد العلويين حتى يقول عنه : « وقد عاد « المتنبى » هنا شيعة علويا كما كان » [2]

---

(١) مع المتنبى : « طه حسين » ص ١٢٣

(٢) المرجع السابق ص ١٥٥

يقول هذا ليسطيع اصدار الحكم : « فالمذاهب السياسية والدينية وسيلة لاغاية كما ترى »[1] ولم يعنه أن الرجل كان معكسبا بشعره يمدح من يثيبه عليه ولم يكن له غير هذه الوسيلة للكسب . فليس هناك مايدعوه إلى أن يتعجب من تلك الظاهرة التى أطردت فى حياة هذا الشاعر . وهى التى جعلته «لايعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقى بفنه إلا تحت لواء السادة والأمراء كأنه النبت الطفيلى لاينمو ولا يزدهر الا فى ظل الشجر الضخام المرتفعة فى السماء »[2]

ماكان أغناه عن هذا الوصف . وما كان أحراه أن يقول ، أن الفن ينمو ويزدهر حين يتوفر لصاحبه الأمان والاستقرار وحين يهدأ الفنان نفسيا ويطمئن إلى حياته ويضمن قوته وراحته ، وقتها تسطيع ملكاته الفنية كلها أن تبرز فتعطى وتعطى ماشاء لها العطاء . ولعل فى قوله هو نفس المعنى عندما وصف شعره فى سيف الدولة : « وإن جمع فى سفر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبى وأروعه وأحقه بالبقاء ، بل من أجمل الشعر العربى كله وأروعه وأحقه بالبقاء » .[3]

لماذا اذن ؟ لأن شاعرنا وجد الراحة والاستقرار والأمان فى كنف هذا الأمير العربى ، وحين هدأت نفسه وأمن يومه وغده بلغ بشعره مرحلة النضج هذه التى يعجب بها المؤلف كل الاعجاب . فليس الشاعر اذن كالنبت الطفيلى لأن النباتات الطفيلية سرعان ماتموت . أما وقد عاش شعر المتنبى ،

(١) مع المتنبى : طه حسين ص ١٥٥
(٢) مع المتنبى : « طه حسين » ص ١٦١
(٣) المرجع السابق ص ١٦٩

وملأ الدنيا (بشهادة المؤلف نفسه) فهو اذن عميق الجذور لايطلب الا مناخا مناسبا ليحيا ويعطي ويثمر .

ويعود المؤلف ليقول : « ونحن نستطيع أن نعتبر هذه الأعوام التى قضاها عند سيف الدولة خير أعوامه وأخصبها وأغناها وأكثرها حظا من الانتاج المختلف المتنوع » (١)

وماذا تريد من شاعر غير هذا ؟ بل لماذا تريد أكثر من أن يصل بفنه إلى درجة من الصدق الفني فى وصف الجهاد بين المسلمين والروم كتلك التى بلغها ووصفها « طه حسين » واعترف بها حتى أنه ليقول : « ولقد ارتقى بهذا الفن حتى انتهى به إلى أقصى ماكان قد قدر له من كمال » (٢)

ويقول : شخصية « المتنبى » ظاهرة قوية فى شعره الرومى لايستطيع القارىء وان بعد العهد بينه وبين الشاعر أن ينساها أو يعرض عنها » (٣)

بل أنه يرد بنفسه على نفسه . وهو الذى طالما نعى على « المتنبى » إنتماءه إلى الامراء ، حتى سيف الدولة تعجب من « المتنبى » حين قصر نفسه عليه ، لكنه يرد بنفسه على هذا التعجب حين يقول : « لاغرابة فى أن تزدهر الحياة العقلية والأدبية فجأة حول هذا الأمير العربى الفتى وفى أن يسرع اليه العلماء والأدباء والشعراء يلتمسون فضله وحمايته » (٤)

---

(١) مع المتنبى ص ١٧٣
(٢) المرجع السابق: « طه حسين » ص ١٧٦
(٣) المرجع السابق ص ١٧٧
(٤) المرجع السابق ص ٢١٩

وحين شــرح ظروف امتياز المتنبي في هــذا الطور . كان في ذلك أبلـغ رد على اتهامه الأول .

وكان « المتنبي » ينحو نحوا فلسفيا في بعض شعره. وهذه الرؤيا الفلسفية هي التي فتح بها « المتنبي » آفاق الفلسفة لأبي العلاء وأظهر له ولنا قدرة احتواء الشعر للفلسفة . لكن « طه حسين » يضن أن ينسب الفضل كل الفضل في ذلك للمتنبي واستمع اليه يقول: في هذين البيتين بذرة من بذور الفلسفة العلائية .»[1] وما كان أحراه أن ينسبها أولا الى صاحبها لا الى من حذا حذوه .

وأكثرُ ماينعاه المؤلف على الشاعر .. لجوءه إلى كافور بعد أن ترك ملك الحمدانيين ، ولواجتهد في تلمس الأعذار للرجل كما فعل مع غيره لافترض مثلا أن الشاعر ربمـا كان يبحث عن البديل . لقد خرج من عند الحمدانيين متآمرا عليه . بجفاه صديقه وغلب عليه أعداءه . تعمدوا أذلاله والتصغير من شأنه . فأراد أن يظهر للقوم أنه شاعر الملوك وأنه خرج الى ملك يضاهي ملكهم ويفوقه . لجأ الى ملك آخر عله يحقق طموح نفسه أو يكون في هذا رد أعتبار له . فهو لم يترك حلبا إلا بعد أن أحاطت به المكايد من حوله . وأصبح بقاؤه خطرا على حياته وقــد شجه أحدهم وبمحضر من الأمير . . أليس في كل هذا اعزاز له . في الخروج واللجوء إلي أي انسان يرى فيه ملاذا وملجأ . ونظر الرجل فلم يجد أمامه غير مصر . لأن العداء كان يحيط به من كل جانب فخيلت إليه نفسة أن يستعيض مكانة بمكانة وأراد أن يحقق لنفسه بعض الانتقام فيمدح بمدح سلطان آخر . وليسمعه القوم هناك في حلب حتى يأخذهم الندم بما قصدوا فيه وبحثوا عليه . ربما كان هذا الفسير أقرب

(١) مع المتنبي « طه حسين » ص ٢١٩

من غيره إلى الأذهان . وحين يبلغ هذه المرحلة يشيد ويشيد « بأبي العلا » ذلك الذي ترفع عن الدنيا وشهواتها ولذاتها ومنافعها واحتقر الناس وازدراهم وأنكر الملوك والأمراء . . إلى آخر هذه الصفات . ونرد نحن بالرد نفسه . ان ظروف الرجل فرضت عليه هو ، وقد ترفع كارها بشهادة المؤلف نفسه، وقد اعتزل الدنيا كلها وارتضى لنفسه حياة هي أقرب للموت ، فبعدت عنه غايات الحياة وبعد عنها . فلا وجه للمقارنة بين الاثنين بأي حال من الأحول .

وليس أدل على هذا الرأي الذي نقول به وهو أن « المتنبي » كان يأمل أن يجد عند كافور مايستطيع أن يباهي به الحمدانيين . . وهو حين لم يجد بغيته فر بنفسه وبفنه بعد أن تجرع غصة الخيبة مرة أخرى . أقول ليس هناك دليل على هذا الرأي خير من كلام « طه حسين » نفسه يقول : « أما في مصر فنحن نحس أن شيئا قد أنحطم في نفس هـذا الشاعر العنيف . فان حزنه لا يصطنع لغة الغضب ، ولا لغة الثورة وإنما يصطنع لغة الشكوى والأنين كأنه الجريح لا يستطيع أن يقبض على السيف ولا أن يبطش به » (١)

ويكفي « المتنبي » هذه الشهادة التي لا يستطيع المؤلف تكتمها « حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار أعظم منه وأبعد مدى ، وأنفذ إلى القلوب والنفوس . فأنا لا أرى شاعرا يصطنع الشعر ليصور مايجد من لوعة وحسرة ويأس . وأنما أرى اللوعة والحسرة واليأس تتخذ الشعر لهـا لسانا لتبلغ أسماعنا وتنتهي إلى قلوبنا» .

(١) مع المتنبي : « طه حسين » ص ٣١٨

يقول « المتنبي » :

فان أمرض فما مرضى اصطبارى — وان أحم فما حم اعتزامى
وان أسلم فما أبقى ولكن — سلمت من الحمام الى الحمام
تمتع من سهاد أو رقاد — ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى — سوى معنى انتباهك والمنام

ويقول « طه حسين » : « والمتنبى ، فى هذه الأبيات يبلغ الفلسفة العليا ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرضه وما يحيط به من الأحداث إلى التفكير فى طبيعة الموت وما يكون وراء القبر » (١)

وأرى تقاربا بعض الشىء بين المؤلف والشاعر وكانه شعر فى أعماقه أنه قد ظلمه وتجنى عليه فرق فى أحكامه قليلا وملكة آلام الشاعر فلم يعد يسخر منها انما أثر فيه عمقها ولو كان قد أصغى لصوته منذ البداية لخففت هذه الأحكام الجافية وهدأت حدتها ، لكنه التحيز .

بل أن « طه حسين » يعترف بهذا الرأى ضمنا اذ يقول أنه يرى قصة المتنبى مع سيف الدولة هى التى تلهمه هذه الأبيات المظلمة .

لهذا يرى المؤلف أن الشاعر كان يدبر فى نفسه هروبا من مصر ويستدل بالأبيات :

غير أن الفتى يلاقى المنايا — كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحى — لعددنا أضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد — فمن العجز أن تموت جبانا
كل ما لم يكن من الصعب فى الأر — ض سهل فيها إذا هو كانا

(١) مع المتنبى : طه حسين ص ٣٢١

وذلك أن ,, المتنبي ,, أحس أنه فى سجن لأن الأمير لم يستجب لرغبته فى السفر . وزاد من حزنه وألمه وفاة ,, فاتك ,, بعد أن اتصل به ونال عطاءه فرثاه بثلاث قصائد تتضمن هجاء كافور .

ولا يغفر المؤلف للشاعر هجاءه لكافور ، : ,, فالمتنبى فى قصته مع كافور كلها صغير حقا ، صغير حين مدح وصغير حين هجا وصغير حين رضي وصغير حين غضب ,, (١)

وهو كعادته لا يقدر دوافع الشاعر التى دفعته للمدح أو الهجاء . ومع هذا نرى كاتبنا هائما بأبيات للرجل مفتونا يرى أنه لا يوجد فى كل ما قرأ من الشعر العربى ما يشبهها جمالا وروعة ونفاذا إلى القلب وتأثيرا فى النفس .

ويرى أن لمصر على ,, المتنبي ,, فضلا فقد رققت غناءه وعلمته الحزن الطويل العميق . وهى علمته الهجاء اللاذع الذى يبقى على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة .

وفر ,, المتنبى ,, من مصر حتى انتهى إلى الكوفة . وفى الطريق قتل أحد عبيده لأنه كان يسرقه . وهنا يوصمه ,, طه حسين ,, ويرى أن هذه الحادثة وحدها لخليقة أن تسبغ على حياته لونا أحمر قانيا يبغض صاحبها على الناس . ولا يضع فى الاعتبار أيضا أى دوافع تبرر للشاعر فعلته هذه . ويناقض بذلك رأيه الذى سبق فى كتاب ,, مع أبى العلاء فى سجنه ,, :

,, على أن ما يعنينى من حياة رجل من الناس شيء آخر غير هذه الأعراض التى تطرأ له وليس ينفعنى مولده ولا حبه ولا شقاؤه ولا كل هذه الأشياء

(١) مع المتنبى : ,, طه حسين ,, ص ٣٢٩

التى يمكن أن تلاحظ فى حياة الناس لانى لا أجد فى هذا كله أيسر الوضوح المقنع الذى تستبين به قيمته الصحيحه والذى يميزه تميزا عميقا من الناس ومنى ،، (١)

كل هذا و ،، طه حسين ،، مكب على النصوص يستلهمها ويحللها ويعجب بها لكن النصوص لاتسعفه بما كان ،، المتنبى ،، يضمر فى نفسه من خطة ؟ وقد أفسد ما بينه وبين أصحاب بغداد سابقا . وأصبح عسيرا عودته إلى حلب والحاشية مازالت هناك قائمة . ولهذا يرجح المؤلف أنه أن يعيش فى الكوفة عيشة هادئة معتمدا على ماجمع من المال .

الا أنه يرجح أيضا أن الشاعر لم يستسغ هذه الحياة الخافلة فرحل عن الكوفة فليس فيها له مأرب . ولم يقل شعرا لأنه كان لايقول الا عن رغبة أو رهبة . وزار بغداد وخرج منها ولايعنى المؤلف بهذه الزيارة لأنها لم توح إلى الشاعر شيئا . ويعارض المؤرخ بلاشير أن ،، المتنبى ،، لم يمدح الرؤساء فى بغداد ابقاء على ما كان بينه وبين سيف الدولة من الود . لأنه يرى أن الشاعر كان ماعاد يفكر فى العودة إلى حلب . ولكن بغداد لم تكن مرحبه بالشاعر الكبير الذى يفرض وجوده على أصحابها . فيهجوه الشعراء البغداديون ويتعرض لحملة من الجدال والتشنيع و ،، المتنبى ،، صامت على كره فى رأى المؤلف لأنه كان يريد العيشه فى العراق .

لكن السياسة والأدب تحالفا عليه حتى أنه ليفكر فى الخروج إلى الكوفة

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه : « طه حسين » ص ٩

يستقبل أمره فيها بالروية والتفكير ، أما قناعة بحياة هادئة واما أن يجد طريقا إلى الصلح بينه وبين السياسة والساسة فى بغداد .

وعاد للكوفة ووصلته هدية سيف الدولة فشكرها باللامية المشهورة . ونعيت أخت سيف الدولة فرثاها بالبائية المشهورة .

وتثور فى الكوفة ثورة القرامطة . فينقلب عليها « المتنبى » حفاظا على ماله وارضاء لأصحاب السلطان متنكرا كما يقول المؤلف لقرمطيته الأولى ويهجو داعية من دعاتها هو « ضبة بن يالكلابى » . ويشترك هو وغلمانه فى رد المغيرين على الكوفة وتصله دعوتان من سيف الدولة ومن « ابن العميد » فى ارجان فيرد على سيف الدولة بقصيدة شعر . ويذهب بنفسه „ لا بن العميد „ . ويرى المؤلف أن الشاعر هو الذى تودد إلى „ ابن العميد „

وذهب المتنبى واتصل „ بعضد الدولة „ فى شيراز والذى كان يمهد للدعوة له فى البلاد العربية . وكان „ المتنبى „ أنفع أداة لهذه الدعوة . ويظهر „ طه حسين „ أثر السياسة فى حياة شاعر „ كالمتنبى „ . وجادت قريحة الشاعر بالكثير من الشعر فى „ عضد الدولة „ فى تنوعه واختلافه „ وما أتردد فى الجهر بأن „ المتنبى „ لو أطال الإقامة فى فارس والاستمتاع بما كان يستمتع به فيها من الخفض والأمن والنعيم لتغير مذهبه الشعرى تغيرا قويا جدا ولجاز أن يحدث فى الشعر العربى فنا جديدا لم يسبق اليه ولم يتح لأحد من العرب أن يحدثه لأن نبوغه واستعداده لم يتاحا لشاعر عربى من الذين زاروا بعده هذه البلاد » (1)

---

(1) المتنبى : „ طه حسين „ ص ٣٧٠

ولم يشأ ,, عضد الدولة ,, أن يمسكه فى شيراز ويحبسه عن العـــراق فاستأنف الشاعر سفره إلى العراق . مؤكدا العودة إلى الأمير .

انتهى إلى واسط عند صديق له يعرف ,, بأبى بأبى نصر محمد الجبلى ,, الذى حذره من أن ,, فاتكا ,, الأسدى ,, خال ضبه ,, القرمطى يضمر له الشر ونصح له ان يصطحب أحراسا فأبى ، وخرج ومعه ابنه وغلمانه ، وفى الطريق لقيه ,, فاتك ,, فكان قتال وقتل ,, المتنبى ,, .

ويدلى المؤلف برأى لا يستند فيــه إلى نصوص ترجحــه ـــ أن يكون مقتله مدبرا من القرامطة من جهة أو من العرب من جهة أخرى ثمن خيانته للاثنين .

وبهذا انتهت حياة أكبر شعراء العربية .

وبعد فقد فرغ المؤلف من ,, المتنبى ,, بعد أن سار معه على منهجه الفنى وذوقه الشخصى . اما المنهج الفنى فما كان أروعه وأعذبه فى تفسير النصوص واستلهامها والاستدلال بها على سيرة الشاعر . ولولا تدخل عنصر الذوق الشخصى الذى حاول إفساد تلك المسيرة الفنية البديعة لسلمت تلك الدراسة الأدبية من أى شائبة تشوبها .

. . .

قادة الفكر

جمع "طه حسين" في كتاب قادة الفكر بين مجموعة من مفكرى الإنسانية ... يرى انهم كانوا القادة للفكر الإنسانى ورواده الأوائل وعلي طريقهم وهديهم سار الفكر العالمي وارتقى .

وهو لا ينظر اليهم كما ينظر لغيرهم حين يريد التأريخ . لكنه يتعمق عقولهم . ويسبر أغوارهم ويتأمل أفكارهم . يقول : "وحسبنا اننا سنعرض في هذه الفصول لا لتاريخ أشخاص بعينهم . بل لتاريخ العقل الإنسانى وما اعترضه من ضروب التطور وألوان الاستحالة والرقى حتى انتهى إلى حيث هو الآن "(1)

ويعود في هذا الكتاب إلى المنهج الاجتماعى الخالص الذى يرى أنه المنهج السائد عند الذين يعنون بتاريخ الأداب . يقول : "ان هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ... أى أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر منها أثرا من آثار الفرد الذى رآها وأذاعها "(2)

فهو لا ينظر للفرد كفرد لكنه ينظر اليه من خلال الجماعة ... كذلك ينظر إلى الجماعة من خلال الفرد . فكل من الفرد والجماعة يعطى الآخر وأخذ منه . وتقوم بينهما صلة دائمة ولكليهما أثر في كل نتاج إنسانى من آداب وآراء فلسفية ونظم اجتماعية أو سياسية .

يكتب عن سقراط فصلا في حوالي عشر صفحات . لا يذكر فيه عن سقراط كلمة انما يوجه كل جهده إلي دراسة البيئة اليونانية وتطور العقل اليونانى من البداوة إلى التحضر وكأنه يؤرخ للعقل اليونانى عامة . يصف ويشرح دقائق البيئة والظروف والعوامل التى أدت إلي ظهور الفلاسفة كقادة

(1) قادة الفكر : "طه حسين" ص ٥ دار المعارف الطبعة العاشرة
(2) المرجع السابق ص ٦

للفكر اليونانى بدلا من الشعراء ، وكيف أن الحياة اليونانية خضعت للشعر أول أمرها ثم خضعت بعد ذلك للفكر والعقل . ويبين الأسباب التى جعلت من هذا التطور أمرا محتوما سببان هامان ، أحدهما سبب أقتصادى والآخر سياسى واجتماعى .

ويوضح تلك الصلة التى قامت بين اليونان والشرق المتحضر هـذا الشرق الذى كان له حضارة راقية بل أرقى بكثير من حضارة اليونان .وقد استفادت الحضارة اليونانية من الشرق ولكن عن الطريق المادى العملى كنظام النقد ونظام المقاييس والموسيقى والحساب والهندسة . ولكنهم لم يأخـذوا شيئا عقليا يذكره ويميز بين طريقين سلكهما العقـل اليونانى والعقل الشرقى . فالعقل اليونانى سلك المسلك الفلسفى فى فهم الطبيعة وتفسيرهـا . والعقل الشرقى سلك المسلك الدينى وخضع للكهان فى أول أمره ثم للديانات السماوية بعد ذلك . امتاز العالم اليونانى بالفلاسفة وأمتاز العالم الشرقى بالأنبياء .

ويتبع نظام المقارنة للتفرقة بين العقلتين ليعرض تطور العقلية اليونانية التى نشأت من بينها عقلية سقراط .. فهو كما قلنا يؤرخ للعقل اليونانى قبل أن يؤرخ لسقراط . ويبدو هذا تطبيقاً لمذهبة الذى قال بة فى أول الفصل : أن هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية . فهو يرى ألا سبيل إلى فهم سقراط وفكر سقراط أن لم تحط علما بالبيئة التى احتوتة والعقلية العامة التى أنتجتة .

وبعد هذا العرض لتطور العقلية اليونانية حكى قصة سقراط . يقول : أوجزت لك حياة سقراط . فهو يوجز تفاصيل حياة الشخص لأنها تعينه من

حيث أنها حياة شخصية .

وبعد هـذا يكتب عن فلسفة سقراط فصلا منفردا . فهو ينظر للشخص ككل ، لأنه ليس مؤرخ سيرة . فهو صاحب نظرة كلية للانسان . وحين يؤرخ لسقراط يمهد لظهوره بعرض كل ظروف المجتمع ونشأة وتطور الفلسفة التى سبقت سقراط وتلائمها مع هذا المجتمع .

ويمهد لظهور سقراط بتعريفنا بالعقل اليونانى الذى كان قد ارتضى الشك طريقا له . الشك فى كل شىء فى الفلسفة السوفسطائية التى كانت تعبيرا صادقا عن الحياة الاجتماعية . وفى وسط هذه الحال السيئة نشأ سقراط .

ويكتب عن سقراط فيشير إلى صفاته الشخصية . الصفات التى تكون الفيلسوف وهى الصفات التى تدفع الرجـل للجحد والبحث والتعمق . كيف أن هذا الفيلسوف كان يرى نفسه جاهلا تواضعا منه ورغبة فى الاستزادة من العلم والمعرفة . فهو يكرم فيه تواضع العلماء .

ويهتم بالمنهج العلمى لسقراط وطريقة تعليمه للشباب . ويناقش محاكمته ويعجب . كيف يأبى سقراط الهرب أكبارا لقوانين الدولة واحتراما لأحكامها فى حين أنه بدا فى المحاكمة ساخرا من نظام الدولة عابثا به .

يقول : وأكبر ظننا أن هـذه القصة لاتخلو من مبالغة أو قل أن سقراط لم يأب الهرب الا أزدراء للحياة وشوقا إلى الموت . فنحن نراه فى حواره ينتظر الموت انتظار مشتاق اليه مؤمن بأنه سيكون سعيدا به ، (١)

فالمؤلف يعمل فكره ولا يقبل الروايات كما هى انما يأخذ بما عليه المنطق والعقل . وهـو يناقش حـق الشكوك والفروض التى قامت حـول شخصية

(١) قادة الفكر : « طـه حسين » ص ٤٠

سقراط ووجـوده ويسوق أدلته العقلية وبراهينة على وجـود سقراط أو الشك فى وجوده ، ثم بعد ذلك يفرد فصلا لشرح فلسفة سقراط ويلخصها ويعرض منهجه فى البحث وطريقتـه فى التفكير ويهـتم بالأثر الذى تركـه الفيلسوف والمدارس التى أنشأها وتلاميذه . ويـــبرز التأثير الذى أحدثه سقراط فى العصر الذى جاء بعده مباشرة . وهكذا فهو يتتبع فكر الفيلسوف منذ نشأته وتطوره وتكامله وتأثيره فى عصره وفى من جاء بعده . ثم يشرح فلسفه المدارس التى نشأت عن فكره .

وفى حديثه عن أفلاطون . سار النسق نفسه والنظرة نفسها . أن الفرد نتاج المجتمع . ويصف البيئة التى نشأ فيها أفلاطون وانصرافه عنها والظروف التى أجبرته على ايجاد نظم أخرى غير التى نشأ عليها لأن أفلاطون أرستقراطى المولد والنشأة يميل إلى النظام الأرستقراطى وينفر من النظام الديمقراطى . لكن أفلاطون ينظر فيجد أن للنظام الأستقراطى فى بلده عيوبا فانصرف عنـه أيضـا وأخـذ يطيل الفكر فى ذلك النظـام المنشود الذى يحقق الخـير للحياة الانسانية .

وأخذ المؤلف فى شرح الظروف السياسيه التى شملت العصر كله فى اليونان وبلاد فارس وايطاليا وصقلية . وكيـف لعبت السياسية دورا فى هجرة أفلاطون ، والفائدة التى عادت عليه من هجرته والتى كان لها أثر كبير فى حياته الفلسفية والنظرية والعلمية .

واستحدث أفلاطون بدعا فى الفلسفة مخـالفا بذلك فلاسفة ماقبل سقراط بل وسقراط نفسه وتلامذة سقراط من بعده . لقد أوجد أفلاطون شيئا من كل المذاهب الفلسفية التى سبقته فى فلسفته .

ويجد المؤلف في أفلاطون نفسه شخصيات مختلفة فهو كاتب وصاحب شعر وخيال وفيلسوف يبحث عما بعد الطبيعة وفيلسوف أخـــلاق يؤسس علم الأخلاق وفيلسوف نفس . ويجمل فلسفة أفلاطون بأنها تقوم على نظرية العلم والمعلوم ثم يشرح فلسفته بدقة ويعرض الأفكار الأساسية لها كفكرة الوجود وفكرة الله . وخلقه السياسي وتفسيره للنفس ومكوناتهـا ورؤياه لفكرة الثواب والعقاب وشرح فكرته في تكوين المدينة الفـاضلة ، ذلك في تبسيط وايجاز ولا يفوته ابداء الملاحظات والنقد لمدينة أفلاطون الفـاضلة . ويتبع ذلك كله بشرح أثر فلسفة أفلاطون .

ويبدأ الكتابة عن أرسططاليس بتعريفه : هو سقراطى وهو أفلاطونى. ويجرى المقارنة بين المذهبين ويتخذ من هذه المقـارنه طريقة للكشف عن فكر أرسططاليس .

وتطبيقا لمنهاجه يتكلم عن عصره وظروفه السياسية وبيئته . وتأثير ذلك عليه . ثم يأخذ في شرح منهجه ويفرق بينه وبين منهج أفلاطون . ويذكر رأيه الخاص في طريقة تناول كل من الفلاسفة لفلسفته ويؤيد أرسطاطاليس في طريقته ولا يخفى اعجابه به كأديب وأعجابه به كصاحب نظرية سياسية باقية خالدة . ويسجل اعجابه الكبير بنظرياته في السياسة والأخلاق . ولهـذا ينزله المنزلة الأولى بين قادة الفكر .

وفي تناوله لقادة الفكر يتناول قائدا حربيا . فقـــد عرف النـاس في الاسكندر عبقرى الحروب . ولـكن المؤلف يكشف عن نواحي أخرى في هذه العبقرية . ويمهـد لذلك بمقـدمة عن تطور الفكر الانساني من الخضوع

للشعر ثم للفلسفة ثم للقوه أو بالأحرى السياسة . ويشرح الظروف التى مهدت لظهور الاسكندر كمركز للقوة بل والحاجة الماسة لوجود هذه القوة . وكان الاسكندر هو الذى نقل قياده الفكر إلى السياسة . انتزعها من الفلسفة وأقرها للسياسة . ويرى أن خلود الاسكندر لا يرجع إلى ما أحدثه من فتح لم يكن معروفاً للتاريخ من قبل ، بل يجب أن يرجع إلى أنـــه قائد فكر ربما لم يفهمه معاصروه ولم يفهمه خلفاؤه . ولكن يجب أن نفهمه نحن الآن

فالاسكندر « لم يكن يريد أن يفتح الأرض وحـــدها انما كان يريد أن يفتح معها العقل بل قل أنه انمـا كان يفتـح الأرض تمهيدا لهـــذا الفتـح العقلى » . (١)

فقد استطاع هذا القائد المظفر أن يخضع العالم القديم كله لسلطان واحد محاولا لإزالة الفروق الجنسية بعد أن نجـح فى إزالة الفروق السياسية

وبذلك يحاول المؤلف إثبات رأيه فى الاسكنـدر بشرحه للطريقة التى اتبعها الاسكندر للسيطرة على الفكر الانسانى ويدلل على صحـة رأيه حين يقول إن الاسكندر وإن كان قد فشل فى قيادته الفكرية أثناء حياته فـلم يتم له توحيـــد الشعوب والتقريب بين العقول . لـكنه ظفر بذلك بعد موته فلم يكد القرن الثـامن ينتهى حتى كانت الحضـارة اليونانية حضارة الشرق القديم واللغة اليونانية لغة الشرق القـــديم . ويرى أن الاسكندر هو السبب المباشر لهـــذا الإمتزاج بين الشرق والغرب يقول : الاسكندر إذن قائد من قادة الفكر بل هو زعيم من زعماء قادة الفـكر . بل هو أشد قادة الفكر القدماء انتاجا وأكثرهم نفعا . فما قيمة الفلسفة اليونانية

---

(١) قادة الفكر : « طه حسين » ص ١٠٩

كلها لو لم يتح لها الاسكندر ليذيعها فى أقطار الأرض ويبثها فى مختلف الشعوب » . (١)

ويستدعي ذكر الاسكندر ذكر قيصر . فالمؤلف يرى انهما متشابهان بل أن ثانيهما يكمل الأول . فهما الاثنان حاولا اخضاع العالم القديم لنظام سياسى واحد تمهيدا أو وسيلة إيجاد وحده عقلية للانسانية كلها .

وبهذا يرى « طه حسين » أن الوحدة السياسية طريق إلى الوحـــدة الفكرية . ولا أدرى هل دار بفكر الاسكندر وقيصر ما دار فى عقل المؤلف حقا ؟ من يدرى أنهما كانا بالفعل يسعيان إلى الوحده العقلية . الاسكندر الفاتح رجل الحرب المغوار . هل كان يفكر بهذا النمط الحديث ؟ ربمـــا أعقبت سياسته الحربية كل هذا بالفعل لكن هل كان هـذا ما يبغيه بفتوحاته حقا ؟ هل كان يستهدف وهو يفتح البلاد . . ويقهر الحكام الوحدة العقليه التى يراها المؤلف أم كان يستهدف الفتح والسلطان ؟ من يدرى . . لا أحـد . وربما الذى أوحى إلى المؤلف بهذه الفكرة هو انتشار الفكر اليونانى فى الشرق . هذا الانتشار الذى جـاء عن طريق الفتح . الفتح الذى أراده الاسكندر أولا وأخيرا .

وربما كان أوحى به اليه أعتقاده فى الهيلينية وعظمة الفكر اليونانى وأصالته ، ودعوته الذاتية اليه ، وإلى أن يأخذ مواطنيه به .

وفى الفصل الذى كتبه عن قيصر وبعد استعراضه للظروف السياسية للبلاد يكتب عن شخصه ، كيف كان شخصـا عاديا ، وكيف لم يكن به

---

(١) قادة الفكر : « طه حسين » ص ١١١

ما يميزه عن غيره . لكنه كان متفهما للعصر الذى يعيش فيه ويقدر ظروف الواقع وعرف الطريق إلى الفوز السياسي . عرف كيف يتملق طبقات الشعب ويبالغ فى أرضائها . وقد استطاع قيصر أن يتم ما لم يستطع الاسكندر أن يتمه من تنظيم الوحـدة السياسية . وكما يقول المؤلف : كان الاسكندر صاحب الفكرة فكان قيصر منفذها .

ويعتبر المؤلف أن أوربا كلها مدينة بنظامها السياسي لقيصر .

وبهذا يضع « طه حسين » بعض القادة العسكريين على رأس أئمة الفكر بعد أن أثبت أن الزعامة أو القيادة كانت فى أول أمرها للشعراء أو للشعر ثم أصبحت للفلسفة والفلاسفة ثم صارت للقادة أو للسياسة .

يكتب المؤلف إذا عندما يؤرخ لبعض أبطال التاريخ سيرتهم الفكرية . ويدخل إلى عقولهم ليرى كيف يفكرون . وذلك بعد أن يلم بظروف البيئة والعصر . ولا يهتم بالشخص نفسه أوحياته الشخصية بقدر اهتمامه بفكره وعلاقته بمجتمعه .

وهكذا مرة أخرى نرى أن الكتاب ليس بكتاب سيرة تقليدية . بل انه يختلف تمام الاختلاف عن كتب السيرة . فهو لم يقدم لنا تفاصيل عن سيرة لهم . إنما هى سيرة فكرية لهؤلاء الأبطال . فقد أظهر من أبطاله تأثيرهم فى زمنهم وتأثيرهم فى المستقبل بعد أن أوضح الظروف التى كونت فكرهم .

فاتخذ المنهج الاجتماعى وسيلة لذلك .

إذا كان « طه حسين » قد كسب لنفسه ولقرائه هذا المنهج

العقلى الديكارتى الذى لا يصطدم مع عقلانيه نوابغ العرب فى كل شىء ،
فانه قد جد فى دراسه الفكر والتاريخ فاذا به يطلع علينا بمنهج أحـــدث
ما تكون الحداثة وأجد ما تكون الجدة . هو هـذا المنهـج الاجتماعى فى
تحليل الشخصيات الفكرية والأدبية ونجدة فى كتاب قادة الفكر الذى نقل
فيه فصولا عن أرسطو وسقراط والاسكندر وغيرهم من نوابغ اليونان قـد
كشف عن منهج فى التحليل غاية فى العصرية والحداثة . (١)

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : كامل زهيرى ص ١٥١

الباب الرابع

الترجمة الذاتية

فى أدب طه حسين

كتب ,, طـــه حسين ،، كتاب ,, الأيام ،، وجعله الصورة المباشرة لحياته الذاتيــة . وكتب ,, أديب ،، و ,,شجرة البؤس ،، وجعلها انعكاسا لعنصر الذاتية في حياته .

وفي محاولة تعرفنا جوانب فن ,, طـه حسين ،، في السيرة الذاتية نعرض هذه الكتب الثلاث لأنها تمثل هذا الفن في أدبه .

... ...

الأيــام

كتب ,, طه حسين ،، الأيام .. فجعلها ثلاثة أجزاء . خص كل جزء منها بفترة معينة من فترات حياته . وأطلق اسم مذكرات ,, طه حسين ،، على الجزء الثالث منها ، الا أنه بالطبع الجزء الثالث من الأيام ومتم لها .

وبهذا التقسيم ارتضى أن تنقسم حياته إلى ثلاث فترات بارزة المعالم . وكل فترة من هذه الفترات تعتبر طورا من أطوار حياته . وبالفعل كان كل طور يتمايز عن الآخر . وتحيط به ظروف وملابسات مختلفة .. وان جمع بين الأطوار الثلاثة أنه الانسان الضرير الذي يعيش واقعة وانه يتعرف عليه بضميره ، ولا تفارقه هذه الحقيقة .

ولم يكن من قبيــل المصادفة أن تنشر فصول ,, الأيام ،، متتابعة في مجـلة الهلال عام ٢٦ ,, وكأنها استجابة نفسية شرطية للمحنه التي مر بها مؤلفها بسبب رأيه في انتحـال الشعر الجـاهلي وهي المحنة التي قـدم من أجلها المفكر إلى النيابة العامة ،، (1) .

... ...

(1) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : عبد الحميد يونس ، ص ٦٣

الجزء الأول من الأيام يدور كله فى القرية وحياته فيها .. يصف فيه عالم القرية بكل مافيه وسذاجته وفقره وجهله وأمراضه وخزعبلاته وطبائع الناس.

واذا أردنا أن نوضح أحداثا بارزة فى هذا الجزء ما وجدنا سوى حادثة فقده لبصره ، وذهابه للكتّاب ومحاولة حفظه للقرآن ، ثم حادثة فقده لأخته ، وحادثة فقده لأخيه التى كان لها أثر كبير فى نفسة . ثم بعد ذلك وصفة لأيام حياته .

يبدأ في الكتابه فيعطينا منذ الوهلة الأولي إحساسا بعلته أو بمأساته . فيهيأ القارىء لما حتى لايفجأه بها : "وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم فى فجره أو فى عشائه. يرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى فى ذلك الوقت هواء فيه شىء من البرد الخفيف الذى لم تذهب به حرارة الشمس ويرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورا هادئا خفيفاً كأن الظلمة تغش بعض حواشيه ،(1) .

ويستمر فى جهله هذا ، إلا أنه كان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من اخوته مكانا خاصا ، وانه كان يلقى من الأبوين لينا ورفقا أحيانا إلى جانب الاهمال والغلظة أحيانا أخرى ، وكان يجد من أخوته احتياطا فى المعاملة وشيئا يشبه الازدراء إلى أن عرف سبب هذا ، وعرف أن لغيره من الناس عليه فضلا وأن اخوته وأخواته يستطيعون مالايستطيع. وأحس أن أمه تأذن لاخوته وأخواته فى أشياء تمنعها عنه وسمع أخوته يصفون مالاعلم له به ، فعلم أنهم يرون مالايرى. فادرك مأساته. واستحالت المأساة فى نفسه إلى حزن عميق

(1) الأيام : "طه حسين" ج ١ ص ٣ الطبعة الخمسون دار المعارف

وأسبغت هذه الآفة على تصرفاته شيئاً كثيراً من الحذر وفرضت عليه سلوكاً معيناً وتقيدت حركاته بشيء من الوزانة والحياء ، وخلقت فيه ارادة قوية فكان يحرم نفسه ألواناً من الطعام كان يخجله تناولها وأصبح قليل الأكل ، لا لأنه كان قليل الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه اخوته .

وحتى فى لعبة ولهوه حرص على ألا يعرضه ذلك للضحك أو الاشفاق . وكان هذا دافعاً له إلى أن يلجأ إلى الاستماع للقصص والأحاديث وانشاد الشاعر ، حتى تعلم حسن الاستماع وأضحت لديه حصيلة طيبة من الأغانى والقصص والشعر والأوردة والأدعية والأناشيد .

وفى الكتّاب تعلم القرآن . وكان الكتّاب عالماً آخر يرأسه سيدنا ويقوم على وكالته العريف . وفى هذا العالم الصغير عرف الكذب والغش إلى جانب تعلم القرآن . فقد كان العريف يكذب على سيدنا ويكرهه ، وسيدنا يكذب على الأهالى ، والأولاد يخدعون العريف وهكذا . وفى الكتّاب حفظ القرآن،حفظه ونسيه وتلقى عقاباً على ذلك النسيان هو وسيدنا وكان كل أمله أن يذهب إلى القاهرة مع أخيه الازهرى ليصبح مجاوراً يلبس الجبة والقفطان ولكن الأخ الازهرى يشير على الأبوين أن يبقى الصبى فى البلدة عاماً آخر ويدفع إليه كتابى ألفية ابن مالك ومجموع المتون ليستذكرهما استعداداً لرحيله إلى القاهرة .

وضاق الكتّاب ومن فيه عن الاتساع للعلم الذى تحويه ألفية ابن مالك ، فذهب بها إلى المحكمة الشرعية ليقرأ على القاضى ما يريد أن يحفظه منها،واستمر فى الحفظ إلى أن ثقلت عليه فتراخى فى التحصيل ، وكاد أخوه أن يكشف أمره للأب .

وفى هذه البلاد الصغيرة يحتل العلماء والشيوخ مكانا ممتازا من الناس : وكان طبيعيا أن يختلف بين علماء البلدة جميعا ويأخذ عنهم جميعا حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض عمل عملا فى تكوين عقله الذى لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض ، [1] .

واجتذب علم السحر والطلاسم انتباه الصبى ، فحاوله مرات الا أنه لم يجد عنه شيئا . وتولاه مفتش الطرق الزراعية بالعناية فعلمه أصول التجويد وكان الصبى يحب الاختلاف إلى بيت المفتش ليلهو مع زوجة التى لم تكن تكبره الا بسنوات قليلة لهو الأطفال البرىء .

واتصلت أيام الصبى بين البيت والكتاب والمحكمة والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر ، لا هى بالحلوة ولا هى بالمرة ولكنها تحلو حينا وتمر حينا آخر إلى أن عرف الموت طريقه إلى هـذا البيت . فاختطف أخته الصغيرة وهى فى الرابعة من عمرها . وكانت هذه الطفلة هى لهو الاسرة كلها وترك موتها أثرا حزينا عميقا فى هـذا البيت . ثم اختطف الموت أخاه الشاب مصابا بوباء الكوليرا . وكان لوفاة هذا الأخ أكبر الأثر فى نفسه فقد دفعه موته إلى طريق الله . وحرص على التقرب اليه ليغفر لأخيه هذا .

ثم انتقل الصبى إلى القاهرة ليدرس فى الأزهر وبدأت بهذا مرحلة جديدة من حياته .

... ...

---

(١) الأيام : « طه حسين » جـ ١ ص ٨٧

وفي الجزء الثاني من «الأيام» نراه في القاهرة طالبا للعلم مختلفا إلى مجالس الدرس في الأزهر يسكن بيتا غريبا يسلك اليه طريقا غريبا أيضا يعيش في غرفة متواضعة من غرف ربع كبير يضم أشتاتا من الناس .

وكان مجلسه من هذه الغرفة معروفا محددا متواضعا يفضله مجلس أخيه الشيخ الأزهري . وعرف طريقه جيدا بين البيت وبين الأزهر . وقد ألف الطريق بكل مافيها من قهوات وباعة وحوانيت متواضعة ودخان وروائح ، وميز أشخاصا كان لهم أهمية لدى سكان الحي من الطلاب مثل الحاج فيروز الذي كانوا يطعمون من عنده ويتسلمون رسائلهم عن طريقه .

كان يعيش في غرفته هذه حياة الغربة والوحشة ، كان غريبا عن الناس وعن الأشياء ، وكان يعوضه عن هذا الشعور شعوره بالراحة والأمن والطمأنينة والاستقرار في صحن الأزهر . لأنه كان يعلم أنه سيتلقى فيه شيئا جديدا حبيبا إلى نفسه وهو العلم .

كان يجلس بجانب أحد أعمدة الأزهر يستمع إلى الدروس حتى يأتي صاحبه ليأخذه إلى البيت حيث يبقى في الغرفة كما مهملا ، بينما يأنس أخوه إلى رفاقه من الطلاب ينفقون معا ساعات حلوة . وفي هذه الغرفة عاش والوحدة رفيق له ، وكان أخوه ورفقاؤه يتندرون ويتناظرون ويدرسون ويشربون الشاى غير بعيد منه وهو لايستطيع أن يشارك في شيء من هذا ، ولا يستطيع أن يطلب من أخيه أن يشاركه مجلسهم لأنه كان يكره طلب شيء من أحد . كان لذلك يذكر أيامه في القرية حيث كان يرضى في الكتاب حاجته إلى اللعب ، ويشبع رغبته في الحديث بأن يقص على أمه ما جرى في

الكتاب . ويسمع الأحاديث من صاحب الحانوت صديقة أو يخلو إلى رفيق يقرأ له هناك كان لا يشعر بهذه الوحده الأليمة الثقيلة على نفسه .

ويمضي يصف أيامه بدقة خاصة يوم الجمعة الذى كان يحظى بالفاخر من الطعام فيه . ويعرفنا ببعض سكان الربع مما كانوا يشاركون أخاه ورفقاءه طعامهم ولهوهم ، ويعرض نماذج منهم شارحا بعض العادات والمظاهر المألوفة فى ذلك الوقت . تصور بذلك تلك البيئة التى عاش فيها فى أول عهده بالقاهرة . وعرض كذلك لكثرة من سكان الربع بقصصهم وطباعهم وانفعالاتهم . ومن الأزهر وصف بعض أساتذته ، وتلك الفترة التى هيأته للانتساب للازهر بعد أن كان مستمعا . ولكن الوحدة تثقل عليه وتؤلمه ولم يبددها الا حضور ابن خالته ورفيق صباه إلى القاهرة لتلقى العلم . ومنذ ذلك الوقت تغيرت حياته : "فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحيانا ، وكثر عليه العلم حتى ضاق به أحيانا أخرى ." (١) ووجد الحياة الخصبة الممتعة فى الأزهر ، وهو يختلف مع رفيقه إلى الدروس . وتأتى الأجازة ويعود إلى القرية آمنا فى أن يتلقاه القوم بالترحيب والاعجاب كما كانوا يلقون أخاه الشيخ . ولكنه لم يجد شيئا من هذا . انما أحس انه مازل كما كان كماً مهملا لا شأن له فانتابه الغيظ وخيبة الأمل . ولكنه لم يصبر على ذلك واختار أن يشغل به الناس ولو عن طريق المخالفة والعناد . فكان يعارض سيدنا ، ويعارض أباه فى دلائل الخيرات ووصل فى عنادة إلى معارضته فى خارج الدار مما اثار عجب الناس وسخطهم على هذا الفتى الشاذ

(١) الأيام : "طه حسين" ج ٢ ص ١٠٩ الطبعة الثالثة والعشرون

الغريب . وزادت سعادة الاب بابنه هذا الذى يثير الجـدال والخصـام . وسعد هو بما أصبح له من مكانه . وبهذا لم يعد كما مهملا لايحظى الا بالشفقة والرحمة . وبالفعل نجح أن يجعل لنفسه مكانا سواء فى القرية أو فى الازهر أو بين سكان الربع من زملاء أخيه . ولكن جـدله فى الازهـر لأساتذته اشتد لدرجة أنه كان كثيرا ما يطرد من حلقه الدرس .

ومضت أيام وهو يتنقل بين الأساتذة الشيوخ لايقنع بأحد منهم ولايرى لوجوده فى الأزهر جدوى . وكان لحادثة إبعاد الشيخ الإمام "محمد عبده" عن الازهر ووفاته بعد ذلك وما لحظه من قلة الوفاء له أكبر الاثر فى نفسه ، مما جعله يزداد نفورا من الأزهر وانصرافا عن شيوخة وطلابه . واتجه إلى دراسة الأدب وحفظ كثيرا مما كان يتلوه أخوه من المعلقات والمقامات ومن ديوان الحماسة . وحرص على حضور دروس الشيخ المرصفى الذى أحبه وقربه منه ، وبث فى نفسه حب الأدب والشوق إلى الحرية . وتكونت عصبة صغيرة منة ومن اثنين من زملائه بعد صيتها فى الازهر وتسامع بها الطلاب والشيوخ ، وبخاصة بنقذها للازهر وثورتها على التقاليد وأخذت تجهر بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب الأزهرية حتى وشي بهم الواشون فهددوا بالفصل من الازهر . فلجـا فتانا إلى محـاولة نشر شكوى فى "الجريدة" وكانت هذه هى بداية الصلة بصاحب الجريدة الذى ينادى بحرية الرأى ، وبداية الصلة ببيئة جديدة تماما على الفتى .

وقد أحب الاجازة الصيفية لانها تباعد بينه وبين الأزهر والأزهريين ولأنها تفتح أمامه آفاقا جديده بما كان يقرأ عليه من كتب أدبية متنوعة .

وتتغير أمور أهل الربع تغيرا شديدا ويلتحق أخو الفتى بمدرسة القضاء الشرعى ، ويفارقه ابن خالته الذى كان يعينه على وحدته فى الأزهر والربع والتحق بدار العلوم . وعاد بذلك مرة أخرى الى عزلته القاسية . ويرق له الأب فيرسل معه خادما أسود . صغيرا يقيم معه .. ويختلف معه إلى دروس الأزهر ويهيىء له طعام الافطار ويقرأ له قراءة محطمه متعثرة أثناء فراغه .

وتنشأ الجامعة فيقبل عليها فتانا منتسبا إليها . فيذهب إلى الأزهر صباحا ، وإلى الجامعة مساء . وبذلك وجد للحياة طعما جديدا وإذا به يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة مختلفين تمام الاختلاف عن أساتذته بالأزهر . وبدأ يبتعد شيئا فشيئا عن الأزهر وأن بقى مسجلا فى السجلات.

..

ويبدأ الجزء الثالث بعنوان . « مذكرات طه حسين » بحديث عن الجامعة . فنجد صاحبنا مبهورا معجبا بما يسمع من الأساتذة ونجده قد أدى « مصاريف » الجامعة بعد أن كان الأزهر يعلمه بالمجان . وهو مع ذلك سعيد فخور . وأسهم كل هذا فى وهن صلته بالأزهر . وزادت صلته « بلطفى السيد » صاحب الجريدة . واتصل بالشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان يشجعه على النقد . وعرف صاحبنا بطول اللسان، وأضمر له شيوخ الازهر سوا فأسقطوه عمدا فى امتحان العالمية .

وسلك الفتى طريق الكتابة يشجعه على ذلك أستاذاه « لطفى السيد » و « عبد العزيز جاويش » وهو فى هـــذه الأثناء يكتب حبا فى الكتابة لاتكسبا بها وقد أعانه هذان الأستاذان على الخروج من بيئته المغلقة إلى

الحياة العامة . وعلى أن يكون له اسم معروف . وأصبحت حياة صاحبنا في الجامعة عيدا متصلا وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علما يخلق نفسه خلقا جديدا لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد. وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها في يوم من الأيام [1] .

وفتح له الأساتذة الأجانب أمثال « نللينو » و « سنتلانا » و « ميلوني » و « ليتمان » آفاقا جديدة في العلم والمعرفة تشبع حاجة نفسه وترضى طموح عقله ، وحافظ الأساتذة المصريون على شخصيته المصرية العربيـة من الضياع في غمار ما كان يأتي به الأساتذة المستشرقون .

إلا أنه لم يرجع عن طريق المجادلة التي اتبعها من قبل .

وحين فرضت الجامعة على الطلبة العلم بلغة أجنبية أقبل على دراسة الفرنسية مع ما في ذلك من المشقة عليه وأصبحت الجامعة بالنسبة إليـه وسيلة بعد أن كانت غاية ولاسيما بعد أن ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش بفكرة السفر إلى أوربا عامة ، وفرنسا خاصة في عقله . . ومازجت هذه الفكرة نفسه وأصبحت جزءا من حياته . فلابد أن يبتغي الوسيلة . وأعلنت الجامعة عن بعثتين إلى فرنسا فصمم على نيل إحداهما. وكتب بذلك للجامعة التي رفضت طلبة ولكنه أصر وطلب مرة أخرى مع تنازله عن بعض المطالب ولكنها رفضت أيضا فأمعن في اصراره وأخبرها باتقانه للفرنسية فاضطرت إلى الموافقة بشرط أن يحصل على الدكتوراه أولا . ومنذ ذلك اليوم آخذ في الاعداد لهذه الدرجة إلى أن فرغ من املائها على صديق له وطبعها له صديق آخر . وقدمها إلى الجامعة،

(١) أنظر مذاكرات طه حسين ص٥٥ دار الآداب البيروتية طبعة أولى ٦٧

فكان أول طالب مصرى يرشح نفسه للجامعة المصرية للظفر بدرجـــة الدكتوراة ويحصل عليها . وكانت فرحته بهذا الفوز عظيمة لأنهـا تقربه من تحقيق حلمه بالسفر إلى فرنسا . وقررت الجامعة ضمه إلى بعثتها بباريس ولكن الحرب العالمية حالت بينه وبين السفر فلبث يعيش أيامه فى فراغ ثقيـل حيث لا عمل له إلى أن أقترح على الجامعة العمل بها فأجابته إلى طلبه وقررت منحه خمسة جنيهات شهريا ! !

وانتهت الحرب فسمـح له بالسفر إلى مونبلية بدلا من باريس برفقة أخ له يعينه على الحياة هنـاك . واضطر الاخوان أن يقتسما مرتب شخص واحد ليعيشا . ومع ذلك كان يرى نفسه أسعـد النـاس وأعظمهم حظا من النجاح والتوفيق حين يوازن بين حياته الجديدة وحياته القـــديمة ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم .

وكان لزاما عليه أن يحصل على درجة الليسانس أولا ولا سبيـل إلى ذلك إلا إتقـــان اللغة الفرنسية ولغة قديمة هى اللاتينية . وتهيأ لذلك بكل نفسه وان كان يكلف هذه النفس نصبا « ولـكنه على ذلك وعلى ضيق ذات يده وعلى المشقه التى كان يلقاها فى الاختلاف إلي الجامعة راض عن حيـاته كل الرضي لايتمنى إلا أن يمضى فيها حتى ينتهى إلى ما قدر له من غاية وهو واثق بأنه سيبلغ من هذه الحياة ما يريد » . (١)

وتلوح فى أفق حياته بارقة أمل متمثلة في صوت فتاه تقرأ له فتحيـــل الدنيا من حوله إلى غبطة وسعادة .

---

(١) مذكرات طه حسين ص ١٣٩

وتسلم بالجامعة ضائقة ماليه تستدعى على أثرهـا طلبتها فى الخـارج . ويعود صاحبنا تملأ نفسه الحسرات على مستقبل لم يتمه ، وعلى فراق الصوت الحنون . وعاش فى القاهرة ثلاثة أشهر يقاسي التبطل والفراغ وما كان شىء ليسعده قدر ما كانت تسعده هذه الرسائل التى تأتيه من هناك تحمـل له الأمل والحياة .

وتنكشف الغمة فتتقرر العودة ، ولكنهـا عودة إلي باريس هذه المرة . وفى باريس عانى بعض المعاناة من تغير الحيـــاة المـادية من حوله وعانى أيضا من الدرس الذى لم يكن قد أعد لتقبله إعدادا سابقا . فأصبح عليـه أن يقرأ فى أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الأعوام الطوال فى درسه بمدارسهم الثـانوية . فكان عليـه أن يكون تلميذا ثانويا فى بيته وطالبا جامعيا فى الجامعة . وفرغ من دراسة مقررات الثانوية فاستقامت له دروس الجامعة .

وتعلق بصـاحبة الصوت الحنون تعلقاً كبيرا . وأفضي لهـا بحبه هذا الذى ما توقع أن يجد له صدى عندها . وحاول الأكتفاء بمـا يتاح له من سماع ذلك الصوت . والحديث إلي صاحبته وما كان يتيحه لهما اللقـاء من الاستمتاع العقـلى والشعورى بمـا كان يقرآن معـا من آيات الأدب الفرنسي ؛ وتمهله الفتاة فترة للتفكير . ثم ينتهى تفكيرها إلي أن تقبل خطبته ولـكنهما لم يتزوجا إلا بعد حصوله على درجة الليسانس . وكان بذلك أول مصرى ينالها من السربون . وبعدها قدم رسالته للدكتوراه عن « ابن خلدون » والتى كان يعدها فى أثناء استعداده لأمتحـان الليسانس ونال

درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة . وتقدم بعدها لنيل درجة دبلوم الدراسات العليا واختار لها موضوعا فى التاريخ القديم مما كلفه عناء كبيرا .

وتضطره ظروف الحرب إلى الهجرة إلى جنوب فرنسا وهناك فى مونبليه واصل الدرس واتقان اللغة اليونانية تشاركه زوجه . وهما فى ذلك ينتظران معا قدوم أول طفل لهما . وتولد لهما « أمينة » ويعودان بها إلي باريس فنراه مقبلا على حياته غارقا فى مشكلتها مثقلا بأعبائها بعد رسالته ويختلف إلى دروسه ويلقى أستاذه ويتحمل ضروبا من الجهد في إجراء حياة أسرته على ما ينبغى أن تجرى عليه من هذه السعة اليسيرة التى تقيم الأود ولا تعرض للبأس أو الشقاء (١)

ثم أقبل على امتحانه فنجح فيه نجاحا حسنا وظفر بالدبلوم وأتم بذلك أداء واجبه الذى كلفته الجامعة أن يؤديه . ويعود إلي مصر بعد ذلك . ويعين أستاذا بالجامعة .

ويقبل على الحياة فى مصر ، وتأخذه هذه الحياة فى غمارها ويغرق فى السياسة إلى أذنيه ، يدافع عن مذهب يؤمن به ويلقى فى سبيل ذلك ما يلقى ولكنه يستمر

وبهذا ينتهى الجزء الثالث من الأيام .

... ...

كتب « طه حسين » أيامه فى فترة معينة من حياته كان يعيش فيها

---

(١) مذكرات طه حسين ص ٢٢٨

كتب «طه حسين» أيامه في فترة معينة من حياته كان يعيش فيها
معاناة نفسية قاسية . لذلك كانت «الأيام» انطلاقة من ظروفه الخاصة . هذه الظروف الخاصة التى لعبت منذ البداية دورها في تكوين هذه النفس وذلك الفكر . فقد نمّت هذه الظروف استشعاره بالذات واستقطابه لها أولا . ثم نمّت فيه الاحساس بمكان هذه الذات من الحياة والمجتمع ثانيا .

كتب « طه حسين » « الأيام بعد المحنة التى تعرض لها بعد صدور كتابه « الشعر الجاهلى » وكان هـــذا الموقف هو الذى دفعه إلى أن يخلو بنفسه ويحادثها، يسمعها ويحاسبها ويحنو عليها آنا ، عليها ويقسو آنا آخر.

فالأيام كأنها حديث النفس ، لم يعمد كاتبها إلى جعلها صنعة كتابية تنطوى تحت واحد من أنواع الآدب . يقول عبد الرحمن صدقى : « قرأت كتاب الأيام أكثر من مرة فما أحسست مرة أنه ترجمة حياة يرويها . بل كان احساسى فى كل مرة انه حديث من يحدث نفسه . وقد خلا بها يناجيها ويسترجع ماضيها » (١)

ليست الأيام هى كتاب حياة « طه حسين » الكامل . لكنها ذكريات تدور فى ذهن الأديب يتأملها دائما ، ويسترجعها دائما فأسر بتسجيلها ضنا بها من أن تبقى فى طى الكتمان حتى يطويها الزمان . . . . سجلها لأنها تصوير لهذه النفس التى يستشعرها صاحبها ويرى فيها نمطا غير عادى من الأنماط الانسانية . نمطا متميزا يعجب به الكاتب نفسه ، وعنصر الاعجاب هو العنصر الأول الذى يدفع أى كاتب ليكتب ترجمة حياة سواء أكانت ذاتية أم غيرية .

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : عبد الرحمن صدقى ص ١٦

وإذا كان الكاتب قد استقطب ذاته، وجعل الكتاب يدور حول هذه الذات، إلا أننا نلاحظ أن هناك بطلا آخر يزاحم بطلنا الصغير في الاستئثار بالأهمية في هذا الكتاب، وذلك البطل. هو «البيئة» وكأن الكتاب هو سيرة الحياة التي أحاطت بالبطل. فهو لم يستقطب ذاته وحدها، انما استقطب الحياة التي عاشها. بكل ما فيها، يصفها ويصورها لنستنبط حكمه عليها بأنفسنا. «الانسان حين يكتب عن نفسه لا يكتب عن فردية منعزلة بل يكتب عن مجموعة تدور حول فرديته وبيئته تمثلها بيئته فهو بهذا يكتب عن كل باسم جزء. وكتب قضية خاصة لتكون لبنة في قضية عامة (١).

صور في هذا الجزء الأول البيئة الريفية. وقد جعل ينطلق في تصوير هذه البيئة من ذاته وأحساسه هو بها. «ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج. ويجتهد في أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة.. فأما بعضها فكانت أصوات ديكة حقا، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثا وكيدا، وكان يخاف أشد الخوف أشخاصا يتمثلها وقد وقفت على باب الحجرة فسدته سدا وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر.(٢)

هكذا كان يحس بما حوله، كان الظلام في عينه يضفي على الحياة من حوله، جوا من الغموض والابهام، فأضفى من نفسه على البيئة ذلك الجو نفسه.

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : ابراهيم الابيارى ص ٨٤

(٢) الأيام : «طه حسين» جـ ١ ص ٨ الطبعة الخمسون

وأجتهد أن يصف بين كل مشهد وآخر روح القرية المصرية : «ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس ، وتعشى الناس فيعتمد على قصب هذا السياج مفكرا مغرقا فى التفكير حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم فى نغمة عذبة غريبة أخبار « أبى زيد » و « خليفة » ودياب وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب .»(١)

«كتاب الايام» وافر الغنى باللوحات التى تمثل الريف المصرى لا فى مشاهده الخارجية التى تقف فى تمثيلها الأشياء عند القشرة الظاهرية التي يرسمهـــا كل انسان بل الريف المصرى كما يصوره صاحب « الأيام فيتجاوز ما أفاده من حسن الاستماع وأحاط به محفوظه إلى النفـاذ من كل شىء إلى روحه . فاذا الريف المصرى ، صورة وروحا تتمثل فى نفوسنا »(٢)

وأطلعنا على طبيعة البيت الريفى ، كما أحسها فى بيته هو ، فالصغار يعجون ويضجون منذ الصباح الباكر هذه الضوضاء التى لم يكن لتنتهى إلا بنهوض الأب من فراشه ، فتسكت الأصوات وتهـدأ الحركة حتى يتوضأ الشيخ ويصلى ويقرأورده ويشرب قهوته ويمضي إلى عمله ، فاذا أغلق الباب خلفه نهضت الجماعة كلها من الفراش وانسابت فى البيت صائحة لاعبة حتى تختلط بما فى البيت من طير وماشية .

وتحـدث عن النساء فى قرى مصر ، من واقع البيئة أيضـا ومن نمـاذج

---

(١) الأيام : « طه حسين ، ص ٥

(٢) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « عبد الرحمن صدقى ، ص ٢٧

النساء اللاتى رآهن. فهن لايحببن الصمت دائبات الثرثرة. حتى إذا خلت أحداهن إلى نفسها ولم تجد من تحدثه تحدثت إلى نفسها حديثا يتفق مع حالتها النفسية. غناء أن كانت سعيدة، وتعديدا أن كانت محزونة. ثم يذكر هذه الملحوظة اللماحة حين يقول: «وكل امرأة فى مصر محزونة حين تريد».

ومن صور البيئة الريفية وصف الكتّاب ومايجرى بداخله. لقد كان هذا المكان عالما مصغرا لعالم القرية بما فيه من طبائع الناس من غش وخداع وتظاهر وأنانية.

والبيئة الريفية تكبر العلماء وتجلهم وتضعهم فى مكان أكبر من مكان زملائهم فى العاصمة، فعلماء الريف يغدون ويروحون فى جلال ومهابة، يقولون فيستمع لهم الناس بكل يقين وايمان.

وصور البيئة بمظاهرها الدينية. إذ كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة أقتسموا فيها بينهم أعجاب الناس ومودتهم. وهذا الأخ الأزهرى الذى كان ينتخب خلفية فى كل عام. والأم التى تشفق عليه من العـــين وتعد له البخور تطوف به حجرات البيت حجرة حجرة لتحفظه من العين. والزيارات التى كان يقوم بها شيوخ الطرق للمريدين. فكان الشيخ من هؤلاء يقبل للزيارة يصحبه جيش كبير يكاد يبلغ المائة مستخدما هو ووفده المرافق الحمير والبغال فى تنقلهم. يقبلون فتذبح لهم الذبائح وتمد لهم الموائد. ويقبل الناس على شيخهم يسألونه حاجاتهم والشيخ يجيب بألفاظ غريبة غامضة. وكانت هذه الزيارات تستهلك كثيرا من القمح والسمن والعسل وتكلف المضيف مالا طـاقة له به. ولكنها تكون فخرا لهذه الأسرة ومباهاة لها. كانت هذه الزيارات عـادة ريفيه وهى شر لابد منه جرت به العادة.

وكان للغيبيات فى هذه البيئة صداها القوى. وكان الناس يقبلون على التهام ما فى بعض الكتب التى ترد على الريف من أمور السحر والطلاسم وكتب الوعظ والإرشاد وعجائب الأخبار وقصص الأبطال الهلاليـــين والزناتيين وعنترة والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن والأوراد المختلفة وقصص المـولد النبوى ومجموعات من الشعر الصوفى . فكانت عقليتهم تتكون من نتاج هذا كلـه مما حدا بصاحبنا أن يحاول السحر ويوهم نفسه بأنه قادر عليه .

وأظهر الأديب ما فى هذه البيئة من بساطة وتواكل . كان الأب يتوصل لقضاء حاجته بعدية يـــس التى يقرؤها الفتى الضرير ، وكان الأب يعتقد أن الله لا يرد له طلبا .

والجهل كيان جبار فى هذه البيئة قد ترك بصماته على كل شىء فيها وتسبب فى نكبات كبيرة يشقى بها الناس . وقد تسبب أول ما تسبب فى أن يفقد أديبنا عينيه من جراء علاج خاطىء جاهل "و تعدو به أخته إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ولا يجدى عليه خيرا ، [1]

وتسبب الجهل أيضا فى فقد الأخت الصغيرة. وتسبب الجهل فى أن يورثه المرارة فى الحياة ، فهو حين يتكلم عن الجهل المحيط ببيئته يتكلم من نبع ذاته. وقد عانى من الجهل ، فهو يعكس ما فى داخله من مرارة حين يتحدث عن واقعة موت أخته ، "أصبحت الطفلة ذات يوم تشكو فتورا وهمودا ولكن أحدا لم يلتفت إليها فللنساء فى قرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منه إثما .. علم النساء وأشباه النساء. وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيه أصابه الرمد

---

(١) : الأيام ، طه حسين ، ج ١ ص ٦

فأهمل أياما ثم دعى الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة [١] .

أعطانا الأديب أبلغ صورة للجهل فى هذا الوصف القصير فأكمل لهذه البيئة بقية مقوماتها وكان فى موت أخى الفتى بوباء الكوليرا تكملة للصورة الكئيبة المظلمة لحياة الريف التى يظلها الفقر والجهل والمرض .

. . .

وفى الجزء الثانى صور البيئة القاهرية الأزهرية المحدودة حيث كان عالمه لايعدو الربعة فالأزهر والطريق بينها ، فوصف الطريق وصفا مصورا حيث نقل الينا مناخه بأصواته وروائحه وحوانيته ومأكولاته . ونكاد نحس ارتفاع الطريق وانحداره ونحن نسعى معه بين البيت والازهر .

ووصف بيته بدرجه الحجرى الذى استحال إلى درج من طين وطبقات الربع التى يسكن فيها أخلاط من الناس . عمال ، وباعة ، وطلاب علم ، وهذا الدهليز الضيق الذى تجمعت فيه المرافق المادية للبيت ثم الغرفة الواحدة التى تجمعت فيها غرف النوم والطعام والحديث والقراءة والدروس . وكان رفيقه فى هذه البيئة هو الفقر الذى وصف مظاهره بأشكال مختلفة .

وصور البيئة الأزهرية بحصرها المبسوطة البالية ، وصلاة الفجر ، والعمد التى يتجمع حولها الطلاب لسماع الدروس والأحاديث ، وتنقل الطلاب من شيخ إلى آخر .

---

(١) الأيام : «طه حسين» ج ص ١٢٠ .

ثم انصب وصفه على تلك المجموعة من الناس الذى كان يلقاها فى بيته فى الأزهر . وأخـــذت صورة البيئة الاجتماعية تظر مظاهرها واضحة فى ذلك الوصف . وصف أشتاتا من الناس فى حياتهم المادية وحياتهم المعنوية وقـدم نماذج بشرية من سكان الربع تتضح معالم البيئة الاجتماعية من خلالها . وكم كان صادقا حين يصف مجلس الطعام بين هؤلاء الشبـان وهم يتنافسون أيهم يقهر أصحابه فى الأكل وهم يتنافسون ويزدحمون فى أصوات مرتفعة وضحكات تملاء الغرفة وتخترق النافذة عن شمال فتتردد فى الحارة من ورائهـا وتخترق البـاب عن يمين فتتردد فى الربع » [1] .

وكان فى استعراضه لشخصيات الربع مصورا لبيئة الطلاب ، ونوع معيشتهم فى ذلك الزمان . كيف كانوا يدرسون وكيف كانوا ينـــامون ، فأطلعنا بذلك على حال هذه « الجماعات الضخمة من أبناء الريف التى كانت تفد على القاهرة لتدرس العلم والدين فى الأزهر فتصيب من العلم والدين ما تستطيع ولكنها تصيب معها ألوانا من علل الأجسام والأخـــلاق والعقول أيضا » [1] .

وكان عهد، لـما يجرى فى الأزهر من خلافات ومناقشات ومجادلات وأختـلاف وخصام ، ووصف لبعض الشيوخ وأصـواتهم وطريقة تعبيرهم واللوازم التى كانت تلزم بعضهم تعريفا للبيئة الأزهرية ، كـذلك تلك البيئة العلمية الضيقة التى ما كانت لترضى طموحه إلى العلم والتى كانت السبب فى ايقاظ عقله وحثه على العمل حتى يدرك أن هناك آفاقا أوسع وأرحب للعلم .

---

(١) الأيام : د طه حسين ، ص ٢٥ جـ ٢

وكان هذا أيضا انعكاسا لما يعتمل في نفسه وذاته من عوامل الرفض لهذه البيئه الخانقة .ودائما نلمح ونتعرف ذلك التفاعل بينه وبين البيئة ولم يستطيع صاحبنا أن يختلف إلى درس الاستاذ أكثر من ثلاثة أيام لانه لم يجد عنده غناء، وانما وجد عنده عناء لم يقدمنه شيئاء وانما كان يكظم ضحكه كظما عنيفا ويكلف نفسه من ذلك مالم تكن تطيق والتمس غيره من الأساتذة الذين كانوا يقرؤن هذا الكتاب فلم يجد عندهم الا هذه « اللوازم » التى كانت تختلف باختلافهم ، ولكنها كانت تدفع الغلام إلى الضحك وتضطره إلى أن يبذل فى ضبط نفسه من الجهد ماكان يشغله أحيانا عن الاستماع » (١)

كذلك كشف عن أنواع النفاق التي تعمل فى هذه البيئة وبهذا أكمل صورة البيئة الأزهرية .

وقد أثرت هذه البيئة فى نفسه ولاسيما فى طور التكوين والتفتح يقول : على هذا الربع أقبل الصبي . وفى هذه البيئة عاش وأكبر الظن أن ما كتسبه فيها من العلم بالحياة وشئونها والأحياء ، وأخلاقهم لم يكن أقل خطرا مما اكتسبه فى بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد » (٢)

وهو بهذا القول البسيط يطلعنا على انفتاحة الذات على البيئة . فلم يكن هناك شيء يمكن أن يكتب عنة في هذه البيئة الا كتب عنة بشعوره الذاتى الخاص .

ومن الواضح أن فتانا لم يقبل على البيئة الأزهرية وهو خالي النفس من آثار البيئة الريفية الأولى أن تلك البيئة الاولى قد تركت فى نفسه الصغيرة

---

(١) الأيام : « طه حسين » جـ ٢ ص ٧٣

(٢) الايام : « طه حسين » جـ ٢ ص ١٣٤

(٣) الايام : « طة حسين » جـ٢ ص ٩٨

عـلامات بازدة وآثار الا تمحى . تلك البيئـة التي خلقت في نفسه الاحساس بأنه كم مهمل ، شيء قليل الخطر ضئيل الشأن . فترسب فى نفسه نوع من التحدى لهذه البيئة التى تنكر وجوده ، وعـاد اليها فى الأجازة الصيفية وهو يحمل أسلحة التحدى هذه المرة . فقد سافر إلى القاهرة واستقر فى الأزهر وتعلم ، فلابد له من المباهاة بذلك على تلك البيئة الجاهله التى أهملته وآذته فاذا به ينبو على ماكان يألف وينكر ماكان يعرف ويتمرد على من كان يظهر لهم الاذعان والخضوع . قال عن كلام «سيدنا» حين كان يحدث الأم فى شأن من شئون الدين . هذا كلام فارغ ، وسمع أباه يقرأ دلائل الخيرات كما كان يفعل دائما فضحك وقال أن قراءة الدلائل عبث لاغناء فية . وجهر بالرأى ، انه ماينبغى للانسان أن يتوسل للأنبياء ولا بالأولياء ، وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة لأن هذا لون من الوثنية . وهكذا دخل الفتى فى صراع مع البيئة محاولا التغلب على تخلفها وجهلها ورواسبها فى نفسة مستغلا تأثير البيئة الجديدة فية وما حصله فيها من علم ، وما أمدته به هذه البيئة الثانية من قيم لتكوين عقله وفكرة فقد كان لبيئته الثانية أثر كبير فى كشف جوهر عقله ، فقد كان الأزهر بأفكارة العتيقة ومنهجه القديم وطريقة شيوخه داعية له لأن يعمل عقله وفكره ، وداعيـــا لأن تطمح نفس ذلك الفتى الضرير إلى آفاق أرحب وأوسع .

وبهذا عملت هاتان البيئتان فى نفسية الأديب كثيرا وأدرك مافى حياته من حرمان مثـل غالبية أطفال الريف ، حرمانا عاطفيا لكثرة الاطفـال في الاسرة وعدم قدرة الأم أن تنهض بأعبائها المنزلية وتدلل أولادها فى نفس الوقت ، وحرمانا ماديا يرجع إلي الفقر . فكره الفقر ، ونسب اليه معظم الشرور التى تصيب الانسان . كره الفقر كما كره الجهل من قبل ، وكرة المرض

أيضا واعتبر هؤلاء الثلاثة أعداء للانسان . ولم ينس أبدا أنه فقد اثنين من اخوته نتيجة لذلك .

وكره النفاق فى الأزهر وكره التخاذل ، وكره النهج القديم . وعمل كل هـــذا فى نفسيته . ولذلك فانه حين أفاض فى وصف البيئه الريفية والبيئة الأزهرية لم يكن مفرطـا بأن أفسح لهـا إلى جانبـه مكانا ، لأنه كان يعـد نفسه وكل انسان فى الحياة مزاجا لبيئته ونتاجا لمجتمعه .

... .

أما فى الجزء الثالث فتتوارى البيئة بعض الشيء بعد أن كان لهـا مكان المساواة بالبطل فى الجزء الثانى ، فنى هذا الجزء الثالث وهو الخـاص بالجامعة وفرنسا فان البيئة العامة تتوارى خصوصا أنه كان قد استقر فى القاهرة ولم تعد به حاجة لأن يصفها من جديد . ثم انه فى بيئته الجامعية كان مشغولا بما يتلقى من دروس جديدة عليه فلم يشغله شىء عن أن يعرفنا بهـذه الدروس أكثر ممـا يعرفنا بالبيئة التى يتلقاها فيها .

وفى فرنسا كان منطويا على نفسة منكمشا فى غرفتـه لا يعمل عقله ولا فكره الا فى هذا العدد الضخم من الكتب فـلم يصف كثيرا ولم يصور ، لأن نفسة أصبحت مشحونة بأحاسيس مختلفة ومتنوعة ، لا كما كانت فى الجزء الأول صفحة بيضاء تخط البيئه فيها ما تشاء ، ولا كما كانت فى الجزء الثانى برعما يتفتح ويتكون ويلتقط مما حوله كثيرا . كانت النفس قد استوت والفكر قد استقر والشخصية قد نضجت فطغى كل هذا على الاطـار الخارجى ولم تعد البيئة تنازعه مكانه من الكتاب . ولكن لا نستطيع بطبيعة الحـال أن ننكر

أثر البيئة الفرنسية فى نفسه . فقد لمس تفاوتا كبيرا بين هذه الحياة التى عاشها فى فرنسا وتلك التى عاشها من قبل ، ويظهر ذلك بصورة واضحة حين عاد الى مصر بعد أن أمضى ثلاثة أشهر فى فرنسا وقارن بين درس الأدب هنا وهناك . لقد كان المناخ العلمى متغيرا تماما عنه فى القـاهرة . وقد تعرف إلى أسلوب مختلف للحياة ، كالنظام ، والنظافة ، والغرفة المنظمة والطعام فى مواعيد معينة والانتقال للحياة مع أسرة من الاسر ، والانتقال بين باريس والجنوب فى الصيف ، وظهور الرفيقـــة التى أعانته على تفهم البيئة الجديدة بطبيعتها وتقاليدها وعلمها . ولاشك أن هذا كله قد عمل فى عقل الأديب ولكن فى هدوء وأناة .

فالنقلة لم تكن هينة لذلك كان صوت البيئة فى هـذا الجـزء خافتا بعض الشىء لأنه فرغ إلى التقبل والتأمل . «فكتاب الأيام صورة واعية للصراع بين الانسان وبيئته . وكاتبه يعمد عمدا إلى تصوير ذلك الصراع ولا يدعه ليستنتج من طبيعة السيرة نفسها ، فهو يصف مراحله ويتدرج بها معتمدا على أن حياته خير مثل للانتصار على البيئة »[1]

... ...

وها نحن وقد عرضنا للبيئة فى بنـائه للسيرة لنعود لتناول عنصر الذاتية . ذاتية الكاتب الذى ارتضى لنفسه أن يتوارى خلف ضمير الغائب . لم يشأ أن يفرض نفسه على الحـديث فيفصح عنها بضمير المتكلم . أراد أن يخرج بكتابه عن نطاق الأنا .

حقا أن كل كلمة تنبع من ذات نفسه ولكنه يترك القارىء يتقبل هذه

(١) فن السيرة : أحسان عباس ص ١٤٢

الذاتية بكل ترحاب لانها ذاتية رقيقة ، ذاتية مطحونة بالحياة ، لاذاتية مغرورة متعجرفة ، ذاتية تنساب بين السطور والكلمات لاتكاد تسمعها إلا همسا لا ذاتية صارخة ملحة على الأذن . وهو بهذه الرقة المفرطة يجذب القراء لذاته . وكأنه فى أثناء تسجيله لخواطر هذه النفس قد لمس هذا التعاطف الذى سيلقاه من القارىء فأفرط فى الرقة والهمس حتى جعل القارىء يمتزج مع تلك الذات الصغيرة البسيطة، يحس إحساسها ويعيش محنتها ويقاسى آلامها .

منذ أول كلمة فى الكتاب يفتح كتاب الذات على مصراعيه فيدخل منه شعور بالعطف والشفقة والرحمة يقول : « لايذكر لهذا اليوم إسما .. ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة ، بل لايستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه وانما يقرّب ذلك تقريبا . وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم فجره أو فى عشائه ويرجع ذلك لانه يذكر أن وجهه تلقى فى ذلك الوقت هواء فيه شىء من البرد الخفيف الذى لم تذهب به حرارة الشمس ، ويرجع ذلك لأنه على جهلة حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من ألبيت نورا هادئا خفيفا لطيفا كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه »[1] .

أهناك أهدأ وأرق من هذه الكلمات لتقديم الذات ؟ هكذا قدم لنا الكاتب نفسه بكل تواضع وكأنه يستحى من تقديم نفسه . فأكثر من ذكر هذه الكلمات : لايستطيع ، أكبر ظنه ، يرجح ، يكاد يذكر .

كل هذه الكلمات تنبىء عن التواضع الجم . وتعطينا الاحساس الذى يحسه صاحب الكتاب بضآله هذا الكيان الصغير الذى تهوى به الأقدار فلا

(١) الأيام : « طه حسين » ج ١ ص ٣

يكاد يدرك من أمر نفسه شيئا , ولا يملك من أمر نفسه شيئا . فيعطينا الإيحاء بالمحنة التي يعيش فيها .

ويقدم نفسه مرة أخرى تقديما مقتضبا حين يقول : كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه وخامس أحد عشر من أشقته ، وبعد هذا التعريف القصير يتكلم عن إحساسه بموقفه بين هذا العدد الضخم من البنين والبنات كان يحس من أمه رحمة ورأفة وكان يجد من أبيه لينا ورفقا . كان يشعر من اخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم اليه ومعاملتهم له ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئا من الاهمال أحيانا ومن الغلظة أحيانا أخرى . كان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الاهمال أيضا والإزورار من وقت إلى وقت . وكان احتياط اخوته واخواته يؤذيه لأنه يجد فيه شيئا من الاشفاق مشوبا بشيء من الازدراء [١] ، ويصور قمة المأساة الذاتية حين يدرك أن أخوته وأخواته يستطيعون ما لا يستطيع . وتأذن أمهم لهم بما لا تأذن له به . فأدرك الحقيقة بصورة أوضح حين سمع أخوته يصفون ما لا علم له به فعلم أنهم يرون ما لا يرى وأستحال كل هذا في نفسه إلى حزن صامت عميق .

ويذكر من صفات نفسه أنه كان في أول الأمر طلعة لا يحفل بما يلقى في سبيل اكتشاف ما لا يعلم . ولكنه لم يكن يقدم هذه الأوصاف الا ليصل بعدها إلى رواية حادثة بعينها كان لها أثر في نفسه أو غيرت كثيرا من بعض تصرفاته . وعلى سبيل المثال كان نتيجة لرغبته في أكتشاف ما لا يعلم أن أخذ

(١) الأيام : « طه حسين » ج ١ ص ١٧

اللقمة بكلتا يديه فأضحك أخوته وأبكى أمه وأحزن أباه . وكان من نتائج هذا الحدث أن تقيدت بعده حركاته فى شىء من الرزانة والاشفاق والحياء لاحد لها . ومنذ ذلك الوقت عرف لنفسه ارادة قوية فحرّم عليها ألوانا من الطعام . كذلك أخذ نفسه بألوان من الشدة فى حياته فكان قليل الأكل حتى لايوصف بالشره . وكان يستحى أن يشرب الماء على المائدة خشية ألا يحسن تناوله . حتى اللعب فقد حرّم على نفسه من ألوانه ما يمكن أن يعرضه للضحك أو الاشفاق .

بذلك نرى أنه لم يصف ذاته بهذه الصفات ألا ليطلعنا على تغيرات نفسية حدثت له وغيرت من سلوكه وعاداته . كذلك انصرف عن العبث وأقبل على الاستماع إلى القصص والأحاديث ، ومن هنا تعلم حسن الاستماع .

ومن هنا نرى أنه لم يقدم وصفا صريحا لذاته ، انما قدم وصفا للظروف التى كونت هذه الذات (وأحيانا نراه يصف ذاته وصفا حسيا بعد أن أتم حفظ القرآن وأصبح سيدنا يدعوه شيخا ، وكان شيخنا الصبى قصيرا نحيفا شاحبا زرى الهيئة على نحو ما ليس له من وقار الشيوخ ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو كثير .

ويعترف بمثالب تلك الذات الصغيرة . فكان يشترى صمت عريف الكتاب حتى لايخبر سيدنا بنسيانه للقرآن .

على أن البيئة تنازع الذات كما قلنا فى البداية ، فيخلص إلى أنواع من الوصف والتعريف بالأشياء والأشخاص والطبائع والتقاليد . بل أننا من خلال هذه البيئة نصل إلى الذات وإلى مكوناتها بعد أن نلمس الظروف المحيطة ونتعرفها .

ثم يضيف الصبي إلى ماحصّل من علم بعض علوم السحر والطلاسم والتظاهر بالقدرة على أعمال السحر . ولم يكن فى هذا أكثر من نمط من أنماط هذه البيئة ولكنه فى الوقت نفسه يظهرنا على مكوناته الشخصية الذاتية والتى تختلف به كثيرا عن غيره من أنماط هذه البيئة . فمثلا حين تقبل بوادر عيد الأضحى ويأخذ كل واحد فى الاعداد لهذا العيدفتهيأ الدار ويعد الخبز وأنواع الفطير ويأخذ الصبية يستعدون فمنهم من يذهب للخياط ومنهم من يذهب إلى الحذاء ، ولكن صبينا ينظر إلى أولئك وهؤلاء فى شىء من الفلسفة الخاصه كان قد تعوده . فلم يكن فى حاجة إلى أن يختلف إلى خياط أو حذاء ، وما كان ميالا إلى اللهو بمثل هذه الإستعدادات الطارئة وإنما كان يخلو إلى نفسه ويعيش فى عالم من الخيال يستمده من هذه القصص والكتب المختلفة التى كان يقرؤها فيسرف فى قراءتها . هنا يخبرنا عن ذات نفسه ويفرض نفسه ككيان مستقل له مفاهميه الخاصة به . وكذلك تغيرت نفسيته تغيرا تاما بعد حادثة وفاة أخيه وهو يطلعنا على هذا ليعرفنا بأبعاد حزنه على ذلك الأخ فهو منذ ذلك الوقت عرف الله حقا وأخذ يقترب اليه بأنوع من الصداقة والصلاة وقراءة القرآن ، بل أنه أخذ يؤدى الصلاة مرتين . مرة لنفسه ، ومرة عن أخيه لأن أخاه لم يكن من المصلين . يبتغى بذلك أن يغفر الله لهذا الأخ تقصيره فى الصلاة .

حتى إذا كان الجزء الثانى وجدناه يشغل عن ذاته بكثير مما حوله ، وفى هذا يقول إحسان عباس : كانت الوحدة المستقطبة حول الذات فى الجزء الأول أوضح منها فى الجزء الثانى ، (١)

(١) فن السيرة : « احسان عباس » ص ١٤٣

شغلته البيئة الجديدة عن نفسه فاندمج فيها يقدمها وصفها أكثر من وصفه لنفسه وتقديمه لها . قدم شخصيات عديدة يصف حركاتها وأصواتها وحياتها ولا أدرى لم شغل بكل هذه الأنماط من الناس ؟ ولم قدم كل هذه الشخصيات التي لم يكن لها أى دور فى مسار السيرة . فلا هى ذات تأثير عليه ولا هى ذات تأثير على أيامه . ربما أراد أن يستمد من وصف هذه الشخصيات وصفا للبيئة أو ربمـا أردنا أن ندرك مدى أحساسه الدقيق بكل مايحيط بـه . تحدث فى هذا الجزء عن الأزهر أكثر مما تحدث عن نفسه . فذاتيته فى الفصول الأولى منكمشة قد قبعت في زاوية من الازهر ، وقد أطال الحديث عن هذا وذاك من زملائه وأساتذته أكثر مما أطال عن نفسه » (١) .

غير أنه قدمس ذاته فى كثير من المواضع بهذا الجزء ولكنه عمد إلى أن يجعل فى ذاته انفتاحه على تلك البيئة الجديدة التى كان يحس فيهـا الجـدة والوحدة ، بخاصة تلك الغرفة التى كان يشعر فيها بالغربة شعورا قاسيا ، لأنه لم يألفها ولم يألف ما احتوت عليه من أثاث ومتاع بخاصة بعد أن انفصل عن بيئته الأولى التى ألف فيها الاشياء ، أعنى بيته الريفى الذى ألف حجراته ومتاعه ، ومن ثم كان مثله فى حاجة لأن يوجد الألفة بينه وبين الأشياء كى تؤنس عليه دنياه المظلمة . لقد كان مضطربا في هذه البيئة الجديدة : كان مصروفا عن نفسه بما يرتفع حوله من الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات وقد كان مستخذيا فى نفسه من اضطراب خطـاه . وعجزه عن أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ومشية صاحبه المهتدية

---

(١) فن السيرة : « أحسان عباس » ص ١٤٣

العازمة العنيفة ». [١]

ولكنه كان يهرب من اضطرابه هذا إلى الازهر .«يريد أن يلقي نفسه في هذا البحر فيشرب منه ماشاء الله أن يشرب ثم يموت فيه غرقا .. وأى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرق فى العلم » [٢] .

ويصف مكان هذه الذات فى ذلك الخضم الطلابى ساعة الطعام . وهو جالس وقد حنى ظهر كأنه القوس ويده تذهب وتجيء في خوف وخجل بينه وبين طبق الطعام، ويده تصطدم بهذه الأيدى التى تزاحمت حول الطبق ثم وهو يتلقى نصيبه من الشاى فيشربه فى هدوء وهو ملق كل انتباهه إلى مايجرى حوله ومايقوله هؤلاء الشبان. وهكذا لا نلمح حديث الذات إلا قليلا فى هذا الجزء، فقد كان كما ذكرنا قد شغل نفسه تماما بكل ما حوله ، ولا يحدثنا عن ذاته إلا فى تلك اللمحات القليلة التى ذكرنا مثالها ، حين يجلس وحيدا فى الغرفة يتسمع صوت الظلمه ، وخجله الذى كان يقتضية أن يجلس الساعات تلو الساعات لايقوى على الحركة خشية أن يلقاه أخوه فيسأله عن جهته ، أو يطلب من أخيه أن يحضر مجلسه مع الرفاق فيرده عن طلبه ، وما كان ليحب أن يسأل عن شيء أو يرد عن شيء .

وحين يقارن وحدته هذه ، وبين جلسته هناك فى الريف في حانوت الشيخ محمد عبد الواحد وأخيه الشاب محمود ، حين كان يجلس متحدثا متندرا

---

(١) الأيام : « « طه حسين » ص ١٥
(٢) المرجع السابق ص ١٧

مستمعا لمختلف الأحاديث فنعرف بحق مدى احساسه بالوحدة ، وكم كانت قاسية عليه الغربة ، ونعرف مدى حنينه إلى تلك الأيام التى كان يأنس فيها إلى رفاقه وكم هو محتاج إلى أن يؤنس الناس عليه وحدته .

يقرب من الاعتراف حين يتكلم عن نوازع النفس البشرية وغرائزها . ولم يتحرج عن التحدث عن هذه الناحية وهو يعلم أن القارىء ربما يتبادر إلى ذهنه ذلك السؤال : هل كان هذا الفتى الضرير يجد متنفسا لغرائزه وهو الذى يعيش فى سن المراهقة ؟؟ إلا أنه لم يحدث عن ذلك الأمر حديثا مباشرا بل جعل الحديث عن هؤلاء الصبية جميعا ووضع نفسه بينهم. وذلك حين تحدث عن ذلك الطيف الذى كان يلم بالشباب بين حين وآخر ، والذى كان يلم بهم ثم يرحل عنهم بسرعة بعد أن يتركهم متحرجين متأثمين حريصين على أن يتطهروا قبل أن يدركوا درس الفجر . فهو حين تحدث عن هذه الناحية ضم ذاته إلى هذا الجمع المتأثم ، وكان فى هذا صريحا وصادقا .

ويرجع أسي هذه النفس إلى تلك العلة التى أبتليت بها . كان يعرف هذه العلة ، ويذكرها فى نفسه آناء الليل وأطراف النهار ، ولكنه ما كان ليحب أن يذكره أحد بها . كان ذلك يؤذيه فى نفسه وفى احساسه . ويكلفه ليالى ينبو عنه فيها النوم .

ويظهر نفوره من العزلة،وحبه وحنينه للرفيق حين يأتيه ابن خالته ليشاركه الإقامة وتلقى العلم فتجد هذه النفس لها رفيقا يخرجها من وحدتها .

يصور ذلك بكثير من البهجة والانشراح ، فنلمس حاجته إلى الصديق ، واكباره للصداقة .

ويمو احساسه بالذات معه، ويأخذ تكوينة الفكرى والعقلى فى الاكتمال، ويحين له أن يشعر بهذه الذات التى حققت لنفسها بعض النجاح رغم المعوقات. و نتعرف ذلك حين عاد إلى بلدته فى أجازة صيفية ولم يلق من مظاهر الترحيب والاقبال ماكان يتوقع ، أو مثل ماكان يلقاه الأخ الأزهرى عند عودته ، وينزعج اذ يدرك أنه مازال قليل الخطر ضئيل الشأن كما كان قبل رحيله . فيسعى إلي تحقيق ذاته ، وأثبات وجوده ويطلعنا على المعاندة والمخالفة والخروج على المألوف حتي يشعر بة القوم ويحقق ما أراد بهذه الكلمات البسيطة « وعلى كل حال فقد أنتقم الصبى لنفسه وخرج من عزلتة وشغل الناس فى القريه والمدينة بالحديث عنة والتفكير فية وتغير مكانة من الأسرة . مكانة المعنوى أن صح هذا التعبير. فلم يهمله أبوه ولم تعرض عنة أمة وأخوتة ولم تقم الصله بينهم وبينة على الرحمة والاشفاق بل على شيء أكثر وآثر عند الصبى من الرحمة والأشفاق » [1] .

وبهذا جلى لنا تلك النفسية بكل مافيها من رواسب الشقاء الذى تركته فيها هذه العلة المؤلمة من رغبة فى الانطلاق من هـــذا السجن الذى فرضته عليه ، وذلك السياج من العزلة الذى حاول جاهدا تحطيمه إلي أن نجح .

وقد أخذت هذه النفس من بعـد ذلك من العنـاد والمشاكسه والمجادلة في مجالات الدروس ، لمجرد الرغبة فى أثبات الوجود ، وفرض هذا الكيان فى مجاله فلا يكون نصيبه التجاهل أو الأزدراء . عوامل نفسية تصطرع ونزعة

---

(١) الأيام : « طه حسين » ص ١٢٨

جارفة إلى تحقيــق الذات ، ردا على لطمه القدر . وتحــــديا للطبيعة فعرف صــاحبنا فى أروقة الأزهر بأنه من المجادلين المخــالفين لأســاتذتهـم . وقد عرض فى كثير من المواضع لهذا الخلاف والجدال الذى كان يجـد فيه عزاء لنفسه المقهورة .

... ...

حتى إذا كان الجزء الثالث ، وانتقل صاحبنا إلى حيــاة جديدة وبيئة مغايرة . يطلعنــا على هذه التغيرات التى حــدثت فى تلك النفسية ، وعــلى هذه الآمال التى تفجرت فى ذاته بقرب تحقيق الأمل فى الخروج من هذه الحياة الرتيبة المملة التى كانت كأنها الليل المظلم الذى تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال ، فلم تدع للنور إليه منفذا ،والبعد عن هذا السأم الذى ملأ عليه حياته وملأ أرجاء نفسه من حياة مطردة متشابهة لايجدفيها جديدا .إلى حياةالجامعة الرحبة المتسعة المنيرة .

ويشع الرضا عن النفس منذ قرأ لنفسه أول مقال نشرته له الصحف ، ومضى فى خلال هــذه الحيــاة الأدبية الجــديدة يشق لذاته طريقا كــان يحقق فيه وجودها .

وتزاحمه عن ذاته هــــذه الصور الجديدة لدروسه وأساتذته ويمضى يصف هذا وذاك وتتوه ذاتيته بعض الشىء فى هذا كله .

ويكشف لنا صفة الاصرار فى طبعه حين يصرعلى طلبه أن توفده الجامعة إلى فرنسا .

ويظل على إصراره هذا إلى أن يفوز بالبعثة بعد أن تخطى فى سبيل ذلك الشاق من الشروط التي وضعتها الجامعة للفوز بهذه البعثة متخطيا بهذه الذات جدار المستحيل مظهرا لنا هذة الذات في إطار الاصرار والطموح كأعظم ما تكون . ويصور ما أصابه من اضطراب نفس حين تعطل سفره إلى فرنسا بسبب الحرب وأضطر أن يعيش تلك الفترة التي عاني فيها البطالة والفراغ . ويصور معاناة تلك النفس وهى تحاول جاهدة أن تنفصل عن ماضيها الثقيل وتقف أمام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه إلى ما كتب لها فيه من سعادة أو شقاء .

وفى فرنسا يجد لهذه النفس مكانا ، ويحمس لها طريقا ويشعر لها بارادة قوية معجزة تتحمل الصعب حتى تصل إلى ماتريد . وتعرف هذه النفس عاطفة الحب فتمتلىء حياتها بهذه العاطفة التى تشيع فيها السبر والحنان . فاذا هذه الذات تحفل بالجديد من العوطف والأحاسيس حتى أنها لتتمرد على ما كانت تعرفه من تشاؤم ويأس ، كان يساعد على تكوينه تعلقه الشديد « بأبى العلاء » وفلسفته التشاؤمية التى طالما ملأت نفسه ضيقا بالحياة وبغضا لها ويأسا من الخير . فاذا به يترك كل هذا جانبا ويقبل على الحياة باحساس جديد فنعرف معه هذا التغيير النفسى فى هذه الذات ونراقب معه الانتقالة من اليأس إلى الأمل ومن التشاؤم إلى التفاؤل . فنشارك هذه الروح سعادتها ونشفق عليها لأننا نراها تتعلق بالأمـــل لأول مرة فى حياتها وتقبل عليه بكل يأسها وشقائها وحرمانها . ذلك الشقاء الذى لازم تلك النفس حياتها كلها ، والذى أتاها من

تلك الآفة التي منيت بها والتي فرضت عليه وهو في باريس أن يحيا سجينا أو كالسجين .

وتتمثل دائما في خاطره حياة « أبي العلاء » ووصفه لنفسه بأنه رجل يستطيع بغيرة دائما ، وكم كانت حاجته لهذه الرفيقة . ويشرح لنا أحاسيسه ، وكيف أن نفسة تنكر علية الشعور بالحب ، وكيف تستحي هذه النفس من أن تواجة نفسها بتلك الأحاسيس . وأين هو من مثل هذه العاطفة التي لم يخلق لمثلها ؟ . وعاش فترة معاناة ، لكن القدر أراد أن يعقد مصالحة معة فهيأ له من تلك النفس مكانا وجعل لحبة صدى . فكأنه جعل في ذلك تعويضا له عن طول عذاب .

ويحاول جاهدا أن يخلص نفسة من رواسب « أبي العلاء » ، تلك الرواسب التي أفسدت علية الحياة وقتا طويلا ، كان يرى نفسة مثلة ، أنسى الولادة وحشى الغريزة ، ولكن تحولا طرأ علية بعد أحساسة بذلك الحب الذي ملأ أفق حياته فاذا هو يتخفف رويدا رويدا من تلك الغريزة الوحشية القلقة . ويحمل الأنس لبعض الناس ويتحول إلى أنسان اجتماعي ويبتعد عنه شعور الغربة الذي كان يحسه أينما حل لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطا به . فكانت الأوطان لديه سواء والطبيعة لديه مجهولة ، كان ينكر الناس وينكر الأشياء فاذا بالحب يقشع كل هذا عنه ، وأخذ يقبل على الحياة متعرفا اليها مرة ثانية مع دليله الجديد ، تلك التي كان يرى الدنيا بعينيها.

وهكذا وجد ذاته بعد طول فراق وغربة وكان وجود الزوج المحبة إلي جانبه رفيقة على الدرب تكملة لشخصه وانفتاحة على الحياة الطبيعية . وكان هذا ذروة ما وصل اليه من تغير نفسي .

وحين عاد إلى مصر كانت الشخصية قد استوت ووضحت معالمها فأكمل طريقها ماضيا بها نحــو الاكتمال . رمى بنفسة فى خضم السياسةوكان له رأيه الخاص به . ونعرف فية الثبات على المبدأ مها كلفههذامنعناء لايعنيةأنيرضى عنهالراضونأو يسخط علية الساخطون . يكتب عن هذا مصورا تلك الذاتفى كلأطوارها وانتقالاتها .

رأى نفسة ذات يوم وليس بينة وبين المحنة الا خطوة إلى أمام ، وليس بينه وبين العافية إلا خطوة إلي وراء ، ولكن ما جبل علية من طبع يحول بينة وبين الرجوع إلي الوراء .

هذا هو عنصر الذاتيـة فى كتاب الأيام ، ذاتية رقيقة هامسة كما قلت . تعرفنا تلك الذات بكمالها ومثالبها ، بطموحها وآمالها ، بيأسها وقنوطها . وهو وان قدم لنا هذه الذات قدمها متوارية حينا وظـاهرة أحيانا . وقدمها فى أطار البوح النفس أحيانا أخرى . وكان بوحه شجيا يأخــــذ بمجامع النفس . ويخلق فى نفس القارىء شعورا جارفا بالتعاطف والحنو .

وأن كـان هذا البوح بما يحمله من أسى وشجن يضفي على المؤلف كله ظـلالا من حزن إلا أنه حزن أخضر ، ليس هــو بالحزن القاتم الذى يذهب ببهجة النفس فيكسبها التشاؤم والاحساس بثقل الحياة ووطئتها . لقد صور لنا ذروة أحزانه فلم يزرع فى نفوسنا شوكا ، ولكنه زرع حنانا ورحمة . وانعطافا ومشاركة . «تحمله أخته بين ذراعيها كأنه الثمامة وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى ، وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ولا

بجدى عليه خيرا ، ثم ينقل إلى زاوية في حجرة صغيرة فتنيمه أخته على حصيرة قد بسط عليها لحاف وتلقى عليه لحافا آخر ، وتذره وان في نفسه لحسرات»([١]).
«على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلا وأن اخوته وأخواته يستطيعون مالا يستطيع وأحس أن أمه تأذن لاخوته وأخواته فى أشياء تحظرها عليه. كان ذلك يحفظه ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن أستحالت إلى حزن صامت عميق ، ذلك أنه سمع اخوته يصفون مالا علم له به. فعلم أنهم يرون مالا يرى »([٢]) .

بهـذه الكلمات البسيطة صور مأساة حيـاته ، كلمات هادئة تصور حزنا هـادئا يخلق فى النفس الشجى والأسى الهادىء ويصور أسى نفسه أيضا فى كلمات رقيقة هامسة وهو يصف الوحدة والغربة التى كان يحسها ويعيش لحظاتها الباردة «ثم يدعو مؤذن المغرب إلي الصلاة فيعرف الصبي أن الليل قـد أقبل ، ويقدر فى نفسه أن الظلمة أخذت تكتنفه ، ويقدر في نفسه أن لو كان معه فى الغرفة بعض المبصرين لأضيء المصباح ليطرد هـذه الظلمة المتكاثفة ولكنه وحيد لاحاجة له إلي المصباح فيما يظن المبصرون »([٣])

نقرأ هذا البوح فنحس معه باحساسه فى مجاسه هذا المظلم الذى تحوطه برودة الوحدة فتأسى له النفس تشاركه عذابه وتشفق على هذا الكيان الضئيل من كل هذه المعاناة . . وهو بصفة عامة يجيد تصوير المواقف المؤلمة ، تصويراً

(١) الأيام : « طه حسين » جـ ١ ص ٦
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٨

يترك فى نفس القارىء أثراً عميقاً حتى لكأننا شاهدنا ما شاهد وحضرنا هذه المواقف المؤلفة ولمسنا كل شيء فيها ورأيناه رأى العين ،، . (١)

ويصور حاله حين نسيه أهله فى القطار كأى متاع رخيص ، شغلوا عنه بأنفسهم وما يحملونه من متاع ، وإذا به يجد نفسه ضائعاً تائهاً عاجزاً لايرى طريقه ولايعرف أحـداً ، فأى أحاسيس تثور فى نفسه وأى ألم يسببه له هذا الموقف ؟ وأجمل كل هذا الألم وكل هذه الأحاسيس في كلمة قصيرة معبرة إذ قال : ،، وآذت هذه القصة الفتى فى نفسه ،، .

ومن بين أسطر البوح ، حين صور حاله على مائدة علوى باشا وبين أساتذته الممتحنين ، والعشاء الذى أقيم تكريماً له ، وهو جالس غارق فى الصمت ، لايقوى على أن يحرك ساكناً ، يتملكه الخوف والخجل ، لايصيب طعاماً . كيف وهو لايعرف أستعمال أدوات الطعام ويصاب حين يلمسها بذعر شديـد أن الخجل والضيق ليملك عليه نفسه وهو فى هذا المـأزق الحرج ويصور لنا ذلك بطريقته البسيطة التى أتبعها فى البوح بذات نفسه .

ويلجـأ إليه أصدقاؤه وهو فى فرنسا ليقضي بينهـم فى خـلافاتهم ، وإذا بصاحبنا يصبح قاضياً بين رفاقه فى شئون الحب ، وليس له أرب فيه ولاسبيل إليه . وأنى له بشيء من ذلك وهو المكفوف الذى لايحس شيئاً حتى يعينه عليه معين . كيف وهو لايرى وجوه الحسان ولايعرف كيف يتحدث إليهن . ولكن الليل لايكاد يتقدم حتي يتفرق عنه الرفاق جميعاً ، وإذا هو يخلو إلى

---

(١) طه حسين الشاعر الكاتب : ،، محمد سيد كيلانى ،، ص ٩٣ الدار القومية سنة ١٩٦٣

نفسه هذه الخلوة المرة التى لايجد عليها معيناً .

ويستمر هذا البوح الشجى ، حتى بعد وصوله إلى فرنسا بعد كل ماحقق من نجاح ، وفى طريق تحقيق كل ما تصبو إليه نفسة من طموح ، وبعد أن بعث إلية الله هـذا الملك الكريم يشاركه كفاحة ويعينة علية . ما يكاد يقع له حادث صغير حتى تثور شجونه الدفينة فى أعماق النفس ونجـده يبوح لنـا بمكنون نفسة هذا البوح الشجى : « وليس كل هذا بالشىء القليل (يقصد ما حققة من نجاح) ، وبعض هذا كان جـديراً أن ينسية كل ما لقى من جهد وكل ما أحتمل من عناء . ولكنة كان يحمل فى نفسة ينبوعاً من ينابيع الشقاء لاسبيل إلى أن يغيض أو ينضب إلا يوم يغيض ينبوع حياتة نفسها . وهو هذه الآفة التى أمتحن بهـا فى أول الصبا ، شقى بها صبياً ، وشقى بهـا فى أول الشباب . وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلى عنها بل أتاحت له أن يقهرها، ويقهر ما أثارت أمامه من المصاعب وأنشأت له من المشكلات ولكنها كانت تأبى الاأن تظهر له بين حين وحين ، أنها أقوى منه وأمضى من عزمه وأصعب ميراثاً من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة » . (١)

وحين أحب باح لنا بوطئة الحب عليه وشعوره بالضآلة أمام تلك العاطفة ويقينه من أن ليس له الحق فى الحب كغيره من الناس يقول : « ولكن حبه كان يستحى حتى من نفسه فينكرها وكان الفتى يخفى شعوره ذاك فى أبعد ما يمكن أن يستقر من أعماق ضميره ويكره أن يتحدث به إلى نفسه وقد

---

(١) مذكرات طه حسين : ص ١٥٣

أستيقن انه لم يخلق لمثل هذا الشعور ، وان مثل هذا الشعور ، لم يخلق له ، وأين هو من الحب ، وأين الحب منه ، (١)

بهذا الهدوء وهذه الشفافية نسج « طه حسين » احاسيسه وصاغها بوحا مؤثراً يلمس منا الشعور والوجدان .

ويقول شوقي ضيف : « بهذا الصوت العذب ، بهذا البوح الصريح عن حياته وكل ما اضطرب فيه من ضيق عيش أو ضيق حس يكتب « طه حسين » أيامه فيؤثر في نفس قارئه تأثيراً بعيداً ويجذبه جذبا إلى متابعته ومشاركته مشاركة وجدانية . (٢)

ولكن « الأيام » لاتلبس كلها وشاح الحزن بل أن الأديب قد عرض فيها صفحات فكهة ساخرة تبعث على الابتسام . وقدم بعض الشخصيات التي يثير وصفها الضحك ، وكأنه لم يرد لأيامه أن تتخذ طابع المأساة فخفف من وقع المأساة علينا بتلك الصفحات الضاحكة . فحين يصف سيدنا وطريقته في السير وموكبه الذي كان يسير فيه يضحكنا حقاً .

لقد عرض « طه حسين » أيامه في اطار فني يتوافق مع أحاسيسه وشعوره في تلك الفترات التي سجلها من حياته . لم يعتمد السرد كطريقة لتقديم العمل الأدبي . وهكذا تستمر السيرة بابها مفتوح على مصراعيه إلى الداخل لا إلى الخارج ، فليست الأحداث تسرد سرداً وانما هي تنعكس انعكاسا ولاهي تجرى صياغة تقريرية وانما هي تروى في بناء درامي يجمعها رابطة داخلية من

(١) المرجع السابق ص ١٧٣

(٢) الترجمة الشخصية . شوقي ضيف ، ص ١١٥ دار المعارف الطبعة الثانية .

الحس »[1] . فالخط السردى غير مكتمل بوضوح ، انما هى مواقف لامعة فى حياته وخواطر وذكريات وعتها ذاكرته فسجلها . حقيقة أن العرض يتطور بنا معه فى أطوار حياته ، لكن الأيام ليست كتاب حياته الكامل .

وبخاصة الجزء الأول الذى يجعل العرض فيه مواقف متعاقبة ، وليست أحداثاً تسرد أو تروى . وان كان فى الجزء الثانى قد أخذ إيقاع العرض يسرع بعض السرعة وتتعاقب الشخصيات فى عرضها إلا أن الذكرى تأخذ بأكبر نصيب فى العرض . وتظهر هذه اللحظات المضيئة فى ذاكرته بصورة واضحة أيضاً ، ولا يسرع هذا الايقاع إلا حين يصف الشخصيات فى الربع فكأنه يريد أن يقدم للقارىء كل شىء وبسرعة عن كل شخصية ، أما فيما يختص بذاته فيأخذ شكل الذكرى .

وفى الجزء الثالث جعلنا نلهث خلفه بين الأزهر والجامعة ، وبين الجامعة إلى باريس . تتابعت الذكريات وتزاحمت خطوات التطور بالشخصية . وكأنه فى هذا تابع إيقاع الحياة نفسها فى كل من البيئات الثلاثة

فى القرية كان إيقاع الحياة هادئاً رتيباً حيث نسعى مع صاحبنا بين البيت والكتاب فى هدوء وأناة . والأيام فى الريف تمر متشابهة مع بعضها فكان للذكرى هذا الوقع الرتيب بما يوافق حياة الريف نفسها ، أما فى القاهرة فان الحال تختلف ، فاليوم مشحون منذ الصباح حتى المساء ، ووجوده فى الأزهر وسط عديد من الطلاب ، وتعدد الشيوخ والأساتذة ، وهذه الشخصيات

---

(١) تطور الرواية العربية الحديثة : د عبد المحسن طه بدر ، ص ٣١٠ طبعة المعارف ٦٣

المتعددة التي تسكن الربع ، وهذه الأصوات ، وهـــذا الضجيج ، كل هذا أكسب هذا الجزء سرعة الايقاع . مما جعلنا نسمع بعض الضجة بين الكلمات خاصة أن صوت الأديب قد أخذ يعلو ، لقد أصبح هو نفسه قادرا على الكلام والمجادلة والمشاكسة ،فظهر صوته بين الأصوات وعات نغمة الايقاع وتزاحمت الصور .

حتى إذا كان الجزء الثالث وجدنا هـــذا الايقاع السريع يعلو أكثر فأكثر نظرا لتعدد الأنشطة فنتابعة من محاضره لأخرى ، ومن كتاب إلى كتاب ومن دراسة إلى دراسة ، ودرجات علمية تنال ونجاح يتحقق ، وعاطفة نامية تتوج بالزواج وأحداث سيـاسية ، كل هـذا يسرع بالعرض بصورة أوضح منها في الجزء الثاني .

وأكثر مانلاحظ فى عرض الأيام أنه قـد أوجد الترابط الشعورى بين الماضى والحاضر .. ففى بعد المواقف نجد حاضره ينعكس على ماضيه . أى أن العقل المستنير يتدخل فى السيرة ، إذ يربط بين مجـوعة من الصور يجمعهـا موقف عقلى شعورى يقوم على التداعى والترابط ،فهم صاحبنا هذه الأطوار من حيـاة « أبى العلاء » حـق الفهم لأنه رأى نفسه فيها ، فـكم كان يتمنى طفلا لو استطاع أن يخـــلو إلى طعامه ولكنه لم يكن يجـرؤ على أن يعلن إلى أهله هذه الرغبة على أنه عندما استطاع أن يمتلك أمر نفسه أتخذ هـذه الخطة له نظاما ، بدأ بذلك حـين سافر إلى أوربا لأول مرة فتكلف التعب وأبى أن يذهب إلى مائدة السفينة ، فكان يحمل اليـه الطعام فى غرفته ثم وصل إلى فرنسا ، فكانت قاعدته إذا نزل فى فندق أو فى أسرة أن يحمل

اليه الطعام فى غرفته » (١)

ومن أوضح الأدلة على انعكاس الحاضر على الماضي ذلك النهج النقدى الذى تناول بـه الكتاب . وهو نهج أملاه عليه موقفه ككاتب وكأديب لاموقفه كطفل . فهو الرجل الذى لمس مظاهر الحضارة الغربية ووقف على أسباب التقدم والرقى ، فرفض مظاهر التخلف ورفض واقعـا أليما عايشة وعاناه. وضمن كتابه نقدا ساخرا أحيانا ، ومرا أحيانا أخرى . فمن النقد الساخر « والنساء فى قرى مصر لايحببن الصمت ، ولا يملن اليـه فاذا خلت أحداهن إلى نفسها ولم تجد من تحدثه تحدثت إلى نفسها فغنت ان كانت فرحة وعددت أن كانت محزونة ، وكل أمرأة فى مصر محزونة حين تريد » (٢)

وحين يسمع سيدنا وهـو يقسم كذبا أغاظ الايمـان بأنه يسمّع للصبى القرآن مرة فى كل أسبوع ؛ وبخاصة حين أقسم يمين الطلاق المثلث ، تعجب صاحبنا من قدرة سيدنا على الكذب ، وهـذا الطلاق المثلث الذى ألقـاه كما يلقى سيجارته متى فرغ من تدخينها ، كان هذا ممـا جعله يوقن بأن رجـل الدين يكذب أحيانا ، ولا يحترم نفسه أحيانا .

ومن النقد المر الذى ينطلق من نفس ملتاعة تتقبل الحسرات والآلام ولا تملك لها ردا .حين نهضت أخته الطفلة ذات يوم فى شيء من الفتور والهمود فلم يكد يلتفت اليها أحد «والاطفال فى قرى ومدن الاقاليم معرضون لهذا النوع من الاهمال.. ولنساء القرى ومدن الاقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها اثما، يشكو الطفل وقلما تعنى به أمه واى طفل لا يشكو .إنما هو يوم وليلة ثم يفيق ويبل فإن عنيت به أمه فهى تزدرى الطبيب أو تجهله ، وهى تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء وأشباه النساء،هذا على النحو فقد صبينا عينيه ، أصابه الرمد فأهمل أياما ثم دعى الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينية » (٣) .

---

(١) الأيام : « طه حسين » جـ ١ ص ٢١-٢٢

(٢) الأيام : « طه حسين » جـ ١ ص ٢٥

(٣) الأيام « طه حسين » جـ ١ ص ١٢٠

مرة فى فمه الكلمات ، أليمة على النفس هذه الذكريات . أنسان يجتر آلامه فيصوغها كلمات ، فهو لا ينقد بنفس مجردة أى لا ينقد ككاتب يدلى برأى أو بوجهة نظر ولكنه ينقد عن معاناه فقد عاش ظروف هذه البيئة المتخلفة الجاهلة . وعانا من تخلفها وجهلها . وحين يستقبل حياته فى مونبلييه يحس السعادة والرضا، إذ كان يكفيه أن « يفكر فى صباه ذلك البائس الذى قضاه مترددا بين الازهر وحوش عطا . حياة مادية ضيقة عسيرة كأقصى مايكون الضيق والعسر . وحياة عقلية مجدية فقيرة ، كأشد مايكون الأجداب والفقر ، ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التى أخذ يحياها فى هذه المدينة الفرنسية(١) وهو أن لجأ إلى هذه المقارنة فهو إنما ينتقد تلك البيئة التى تركها ، ويصورها بهذه الكلمات السابقة . ومن هذا النقد تتكشف طبيعة الثورة فى نفسه .

والغريب أن يرى إحسان عباس « أن طبيعة الثورة عنده ليست قوية ولا هى مما يؤكد صيغة النصر النهائي . وربما أضافت الحلقات التاليه من . الأيام ، قوة إلى هذه الحقيقة وجعلتنا نحس بمعنى التحرر من قبضة البيئة والظروف إحساسا عميقا . أما الآن فأقوى صور الثورة الايجابية فى الكتاب وقفة الصبي من والده وتهكمه بقراءة دلائل الخيرات وسخريته ممن يلجئون إلي الأولياء، ثم تلك الغضبة التى أعلنها الطالب على أستاذه فقال له « أن طول اللسان لا يمحو حقا ولا يثبت باطلا » (٢) .

---

(١) مذكرات طه حسين ص١٢٩

(٢) فن السيرة : « احسان عباس » ص١٢٤

ولا أدرى ماذا يريد من غلام صغير ضعيف ضرير أكثر من هذا ؟ أكان بوسعه أن يعبر عن طبيعة الثورة فى نفسه بأكثر من هذا ؟ أهذه المجابهة كانت شيئا هينا فى بيئة كالتى نشأ فيها الغلام ، والتى يدين فيها الصغير للكبير بالطاعة والولاء ؟ كان هذا التحدى بذورا لتلك الثورة التى تعتمل فى نفس الصبى ، والتى آتت ثمارها فيما بعد ، ويكفينا أنه ثار بنظام التعليم الذي كان مقدرا له ، وسار فى اتجاه مغاير له تماما . ويكفينا أنه انتصر بثورته بعد ذلك على كل ظروف القهر والعجز والبيئة والزمان ، وكانت تلك الثورة التى لم يقتنع بها الدكتور إحسان عباس ماهى إلا إشارة بسيطة من هذه النفس الثائرة أبدا .

ويؤكد كامل زهيرى على معنى الثورة فى نفس « طه حسين » فيقول :
فإذا انتقل الفتى إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وعاد إلى قريته بعد عام واحد، عاد بنفس جياشه بالكبرياء متسلحة بالنقد ، عازفة عن الاستسلام . وإذا به يصدم مرة ومرات مع شيخ القرية ويخفى نقدا ولا يكتم فى نفسه حرجا وإذا به يكاشف من هو أكبر سنا ورأيا برأيه الصريح واستنكاره الساخر . وإذا كان « طه حسين » قد أرجع هذا الشذوذ فى صباه إلى الرغبة فى أثبات وجوده والرغبة فى الخروج من العزلة المفروضة عليه حتى لا يعامله أهله وصحبه على انه صاحب عاهة ، بل على أنه صاحب عقل ورأى يسمعون إليه ، فإنه لم يشذ رغبة فى الشذوذ والجنوح ، انما اكتشف أنه يتفوق بالحجة والعقل والسخرية أحيانا ، فأخذ نفسه بكثير من الجد الصارم ، وأشعل حاسته الناقدة فى كل مايسمع وكل مايصل إليه من رأى ، وفى هذا دليل على قوة طبيعة الثورة عنده » (١) .

---

(١) طه حسين كما يعرفه أدباء عصره : « كامل زهيرى »، ص ١٢٧

والكتاب في جملته صرخة من أعماق نفس عانت الفقر والمرض والجهل والتخلف ، فهى وان كان قد قدر له الفكاك من هذا الأسر، فهى تنشد الأمل للاخرين ، وهى بكل ماقصت ،وكل ماسجلت تقصد أن تضع صورة واضحة صادقة أمام العقول ، لتعى ، وأمام العيون لترى وأمام القلوب لتجد اليقين .

وهكذا أراد « طه حسين » لأيامه أن تكون رائدا على طريق الاصلاح وهو موقف يمليه عليه التزامه ككاتب وأديب . يقول أنيس المقدس : « الكتاب مرآة جلية لحياة كاتبه ولوسائل التعليم فى زمنه ولعادات قومه ومعتقداتهم بل هو مرآة للأيام فى مرورها على الناس وماتولده فيهم ، أو تحمل لهم من أسباب الحياة والأندثار » (١) .

وهكذا كتب « طه حسين » ترجمته الذاتية « الأيام » فجعل منها درة متفردة فى عالم الأدب.

« لقد لفت هذا الكتاب أنظار المستشرقين الذين كانوا يبحثون عن صورة من الأدب الذاتى الحى ، فى أدبنا المعاصر فوجدوه عند « طه حسين » فى قصة « الأيام» وهو الذى دفعهم إلى نقلها إلى لغاتهم نقلها المستشرق الروسي كراتشفوسكى إلى الروسية ، والبروفسور باكستون الى الانجليزية، وراؤول فاغوى الى الفرنسية وتسينغ يانين الأستاذ بجامعة بكين الى الصينية ، وكاتب آخر إلى العبرية ، ولخص الدكتور أسماعيل أدهم أكثر فصوله إلى الألمانية والتركية. فيكون هذا أول كتاب أوقصة تصويرية نقلت إلى أكثر من لغةمن لغات الشرق والغرب »(٢).

... ...

(١) الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة . « أنيس المقدس »ص ٦٥ دار الكاتب العربى ١٩٦٣

(٢) مع طه حسين . « سامى الكيالى » ص ٥٦

أديـــب

نأتى إلى الكتاب الثانى « أديب » الذى يعكس شيئًا من عنصر الذاتية فى أديب « طه حسين » أقول أنه يعكس عنصر الذاتية كأغلب كتب « طة حسين » ولا اسطتيع أن أعد هذا الكتاب ضمن الترجمة الذاتية فى ادبـــة كما يعتبره بعض الأدباء ،فقد كان « طه حسـين » يضمن بعضـا من كتبـة انعكاسات لذاته ، وبعضا من أرائة ، وكثيرا من رؤيتة الخاصة ، ولو أردنا أن نحصيها لفزنا بكثير ، فليس لنا أن نحيل هذا الى الترجمة الشخصية .
علي كل حال ، فلنبدأ أولا بعرض الكتاب ، وبعدها نرى رأينا

. . . . .

تعرف«طه حسين على هذا الرجل الغريب ، فى الجامعة ووصفه لنا وصفا منفرا منذ البدايـة . ونشعر بعد حادثـة التعارف أن الرجل اقحم نفسة فى دنياذلك الفتى المسكين . فبعد التعارف بقليل دعاه هذا الرجل الى منزلة بلهجة تشبة الأمر ، وسلك بة طرقا عديدة ، ليصل الى هذا المسكن الذى اختارة فى مكان مرتفع من القاهرة حتى يشعر بأنـة يشرف عليها لا منغمسا فيهـا.

حين تحدث هذا الأديب الى صديقة ، نجد أنة يعرف عنة كثيرا لأنة كان من قرية قريبة جدا من بلدة فتانا ، وتـعلم فى نفس الكتاب الذى تعلم فية وعرف اخونة الذين سبقوه الية ، أتم هذا الاديب تعليمه الثانوى ثم عمل بوزاه الاشغال ، ولكنة عكف على الدرس والقراءة حتى كـلف بها واعتبر عملة فى الوزارة وسيلة لا غاية من غايات حياتة ، طلب من فتانا أن تكون المنفعة متبادلة بينهما ، فيعلمة الفتى المنطق والفقة والأصول ويعلمة هو الفرنسية ويقرأ له فى التاريخ والجغرفيا . وكان هذا إتفاقا جمع بينهما فلم يفترقا الا حين سقبهذا الأديب إلى فرنسا . والغريب أن هذ ماكان يعلمة المنطق ، وما كان الأخر ليعلمة الفرنسيـــة . إنما كانا يضيعان

الوقت فى هذا اللغو المتصل . وتلك الجلسات الطويلة .

وأنقضت ثلاثة أعوام جامعية ولم يتقدما لا فى المنطق ولا فى الفرنسية ، انما تقدما فى إدارة هذه الأحاديث الطويلة المختلفة . وفى خلال هذه السنوات تغيرت مطامح كل منهما ، فبعد أن كان الأول يريد أن يبقى موظفا يثقف نفسه ثقافة جديدة ، ويجد لذته فى القراءة والكتابة والحديث ، كان الثانى يريد أن يكون شيخا من شيوخ الأزهر يجدد فى التفكير والحياة كما كان يفعل « محمد عبده » ، كانا قد نسيا هذه الآمال ، والتقت رغباتها فى السفر إلى هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى ، وتتغير فيها الحيـــاة من جميع الوجوه .

وكان شرط من يقبل فى بعثات الجامعة ألا يكون متزوجا ، وهنا نفاجأ بأن هذا الأديب متزوج ، وأعتزم أديبنـا هـــذا أن يطلق امرأته ! ! لأنه لا يريد أن يكذب على الجامعة باخبارها بأنه غير متزوج ومحاولة اخفاء أمر الزوجة بأرسالها إلى الريف ، وما كان أيسر عليه من هذا . ولـكنه لا يريد أن يغش الجامعة . وثار عليه صديقه من أجل فكرة الطلاق هذه ، وأتهمه بأن سعيه إلى هذه الرحلة وما يغريه بهـا ربما كان سأم الأديب والحرص على تغيير الحيـاة ، ولعل هذا ما جعله يتكلف هذا الشر الذى سيلحقه بالزوجة المسكينة . ولكن الصديق يسخر منه ، ويمضى فيما أعتزمه مؤثرا أن يطلق امرأته على أن يخدعها وهو يعلم أن الحياة فى أوربا لن تمكنه من أن يكون زوجا وفيا فلا بد له وأن يقع فى الخطيئة ، ويفزع فتانا من فكرة الاستعداد للخطيئة فينصح صديقه بأن يعدل تماما عن فكرة السفر مادام يجد فى نفسه استعدادا للسقوط فى الرذيلة ويعرض نفسه

للعقاب . فيسخر صاحبه منه أشد السخرية لأنه بهذا الكلام كشف نفسه على حقيقتها فهو لم يعد بعد أن يكون الشيخ الأزهرى القح الذى لا يستطيع أن يتخلص من رواسبه الدينية .

ويطلق الرجل زوجته ويمضى إلى فرنسا فى بعثته الدراسية ، ولـــكنه يستشعر الندم وهو ما زال فى السفينة ويكتب رسالة إلى صديقه يفضى اليـه بمكنون نفسه، ومـا يشعر به من ندم ، لأنه أساء إلى هذه الزوجة التى أخفى من أمرها كثيرا عن صاحبه خشية أن يمنعه من تطليقها، وهى التى كانت قد قبلته زوجا بعد أن رفضته ابنة عمه نظرا لدمامة خلقته . فاذا بهذه الزوجة العطوف تعلن قبولها لهذا الانسان الذى ترفضه الأخريات فتسدى بذلك اليه جميلا يقابله هو الآن بالنكران والاساءة . كل هذا يشعره بالنـــدم ولـكن بعد فوات الأوان .

ولكن هذا الانسان المتقلب مـا لبث أن نسى حميـدة (الزوجة) ومأساة حميدة بمجرد أن رأى فتاة فرنسية جميلة تقوم على خدمته بالفندق الذى نزله فى مرسيليا ، ويقطع الوقت بكتابة رسائل إلى صديقه هـذا يبثه فيهـا خواطره المجنونة . ومن باريس يكتب له عن أوقاته بها ، وكيف يترك باريس فى أثناء الصيف إلى مرسيليا للهو والاستمتاع ، ولكنه يعود إلى باريس مريض النفس وتنقطع أخباره عن صديقه مدة طويلة يسأل عنـه فتـانا خـــلالها إدارة الجامعة فيعرف انه يقبل على الدرس بكل همة ونشاط وأنه أتم فى عام واحد ما لا يتمه غيره فى أعوام .

وفى أثناء الحرب ، يرسل إلى صديقه خطابا من باريس بعد أن صمم على

البقاء بها بينما هجرها الآخرون خوفا من ويلات الحرب ، ويخبره أنه لن يترك باريس حتى لو جاءه الموت بها ، ويخبره أيضا بأنه قد ترك أمر الدرس والجد وانصرف إلى اللهو مرة أخرى وفى خطاب آخر أرسله إلى صاحبه فى مونبليه يخبره عن اضطراب نفسه وعن هــذا المرض الذى يحسه يسعى حثيثا إلى نفسه . ويعزو ذلك الاضطراب إلى نشأته فى مصر وأنه نشأ بها نشأة غير منظمة مضطربة ، وقد جاء إلى بلاد لا يصلح فيها الاضطراب ، ثم كانت الحرب فأضافت إلى نفسه فسادا إلى فساد ، واضطرابا إلى اضطراب ويوضح للصديق فى الخطاب مـدى حاجته اليه ليعـاونه على نفسه ومـدى احساسه باضطراب عقله واعتقاده أن الجنون يسعى اليه .

ويلتقى الصديقان فى باريس ولكن فتانا ينكر صـديقه وينكر أطواره فهو يجده حزينا إلى درجه اليأس تارة ، وسعيدا إلى درجة الجنون تاره أخرى يغنى نفسه إن كان سعيدا فى الكتاب ، وإن كان حزينا فى الشراب . ويشتد عليه مرض الجنون فيرى نفسه ألمانيا تجد خلفـه قوات الحلفـاء ويتوهم أن الصحف الفرنسية كلها تهاجمه ، ويتوهم أن صديقته « الين » خائنة وأنها هى التى وشت به إلى قوات الحلفاء ، ويظل يتخبط فى جنونه هذا حتى قضى عليه ويريحه ويريحنا منه الموت .

. . . .

هـذا هو محتوى كتـاب « أديب » أجد فيه بعض أنعكاسات نفسية من أديبنا ، ولـكنى لا أستطيع أن أقول أنه ترجمة ذاتية له أو حتى أنه حلقـة يجب أن تضاف إلى « الأيام »

يقول الدكتور ماهر حسن فهمي : قد يحاول الكاتب أن يقص سيرته الذاتية ، ولكنه في نفس الوقت يرفض الاعتراف أمام الجمهور لأن العقل يجد الاعتراف مخجلا . وهنا يرى الكاتب نفسه حائرة،وفي موقف متناقض ولا حل لهذا التناقض إلا أن يجد رموزا أو بدائل تكفل له السلامة فيلجأ إلي القصة ويتخير لها بطلا يمثله ، وأسماء مستعارة تمثل الشخصيات التي التقى بها في الواقع وأحداثا ترمز إلي تجاربه الذاتية ، وهذا هو التخفي . ولعل أكثر الوان التخفي أنكشافا « أديب » لطه حسين . فالكاتب يختفي وراء هذا الأديب الشاذ ليكتب جزءا من سيرته الذاتية عن حياته الجامعية بعد ان كتب « الأيام » مصورا حياته في الكتاب والأزهر . (١)

انا اوافق الدكتور ماهر على أن الكاتب احيانا يجد الاعتراف مخجلا فيلجأ إلى التخفي ، ولكني لا أوافقه على أن « أديب » هو اكبر مثل للتخفي فأين هو التخفي في « أديب » ؟ الكاتب قد قدم بطله بشحمه ولحمه وأوصافه المادية وأفكاره وخواطره ، فلماذا نقول أنه يختفي من خلفه ؟ ثم أين هو الاعتراف الذي يجده « طه حسين » مخجلا فيلجأ إلى التخفي ؟ فنحن لا نجد في الكتاب اعترافا ما يخجل منه صاحبه ، اللهم الا حوادث اللهو هذه التي وصفت في الكتاب . وهذه الحوادث لا نعرفها في حياة « طه حسين » لأن خطواته في فرنسا كانت واضحة معروفة يقيدها بلاؤه هذا الذي يصاحبه أينما حل ، فلا يمكن ان يكون هو صاحب هذا الانطلاق الذي لا تمكنه منه طبيعة تكوينه ، فهذا هو الجزء الشائن في الكتاب ، وصاحبنا براء منه

---

(١) السيرة تاريخ وفن : « ماهر حسن فهمي » ص ١٨٦

فبماذا يكون الاعتراف و بأى إثم أو نقيصة، « القصة لذلك ليست تحليلا لشخصية شاذة بقدر ماهى تصوير لشخصية المؤلف نفسة ؛ والباحث يلمس فى اختيار شخصيات الكتاب والمجال الذى تدور فية احداثه وأسلوب معالجة الوجود المستمر البارز لشخصية المؤلف فى الوقت الذى تتضاءل فية الشخصية الرئيسية ويبدو دورها باهتا [1].

ولا أرى فى الكتاب تصويرا لشخصية المؤلف إضافية تصوير لبعض أحاسيسه و بعض رؤيتة للأمور فشخصية المؤلف مختلفة تماما عن شخصية البطل وفى الأجزاء التى تظهر شخصية المؤلف نلمحها على الفور بحيث لم يختلط علينا الأمر . أو لم نستطع التفرقه بين الاثنين . أما إذا كانت شخصيات الكتاب والمجال الذى تدور فية أحداثة وأسلوب المعالجة هو الذى أوحى بأن المؤلف تختفى خلف هذا البطل ليفصح عن ذات نفسة . فربما كانت الشخصيات والمجال واحدا وما الذى يمنع من أن يكون هذا البطل قد عاش فى هذه الأماكن وعرف هذه الشخصيات . أما أسلوب المعالجة فهو أسلوب المعالجة الذى عرف بـــة « طه حسين » تجدة فى هذا الكتاب وفى غيره . وهذا هو تدخل المؤلف فى مسار . ولا يعنى شيئا غير هذا

وحين يقول الدكتور ماهر ان « طه حسين » يختفى وراء هذا الأديب « الشاذ ليكتب جزءا من سيرته الذاتية من حياته الجامعية بعد أن كتب الأيام مصورا حياته فى الكتاب والأزهر ، أسال بدورى ، أين هو ذلك الوصف

---

(١) تطور الروايـة العربية الحديثة : عبد المحسن طة بدر ص ٣١٤ دار المعارف ٦٣

للحياة الجامعية؟ لم أجد فى كتاب « أديب » وصفا لحياة الجامعة كوصف حياة الكتاب والأزهر أو حتى أقل من هذا. ولو أراد « طه حسين » أن يكتب وصفا لحياته فى الجامعة لكتبه دون الحاجة إلى الاختفاء خلف هذا الأديب الشاذ. وقد كتب كثيرا عنها وأوضح كثيرا من مواقفه واعترف بكثير من أخطائه، فما الداعي إلى التخفى خلف هـذا الأديب الشاذ ليصف حياته فى الجامعة؟ وأين هو ذلك الوصف من الكتاب؟

لقد سطر « طه حسين » فى الكتاب صفحات من وصف البيئة المشتركة التى عاش فيها هو وبطل الكتاب، وحتى لو كان بطل الكتاب شخصا وهمياً فذلك لايعنى أن « طه حسين » يكتب سيرته هو بهذه الطريقة. ولكن البطل لم يكن شخصا وهميا، فقد ذكره « طه حسين » فى مذكراته بما يوافق الحوادث فى كتاب « أديب » يقول فى مذكراته : « لكنه لايكاد يبلغ باريس حتى يصرف عن الرسالة صرفا عنيفا، ويشغل عنها شغلا متصلا أكثر من شهرين، فهذا رفيق مصرى من رفاقه فى الدرس، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها قد ألم به مرض عصبى خطير وليس له فى باريس من يرعاه أو يهتم بشأنه. وينفذ أمر الأطباء فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة فى الهواء الطلق، والحيـاة الهادئة التى لاعجيج فيهـا ولا ضجيج » [1]

ولم يكن هذا الزميل بلاشك سوى بطل كتاب « أديب » .

وإذا كان هذا اللبس يقع من حديث « لطه حسين » نفسه عن الكتاب، فقد سأله أحد الصحفيين يوما عن أى كتاب من مؤلفاته يؤثره على غيره .

(١) مذكرات طه حسين ص ٢١٦

فكان جوابه : « أن الكتاب الذى أحبه وأوثره ولا يعجب الناس هو كتاب « أديب » ، واعجابى به يرجع إلى أننى وضعت فيه كثيرا من شئون حياتى الخاصة وماكان يحيط بها فى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه » ،(١) ، فان هذا لايعنى أنه سجل حياته انما هو يقول : كثيرا من شئون حياتى الخاصة. وهوالدورالذى يلعبه بجانب صديقه الأديب الشاذ ويظهرواضحا فى الكتاب :

أما الدكتور عبد الحميد يونس فانه يعتمد على تشابه الظروف وقت أصدار كتاب الأيام ، ووقت اصــــدار كتاب « أديب » ليقرن الكتابين بعضهما ببعض ، ويرى فى « أديب » نفس رؤيته للأيام ، يقول : إذا كان كتاب « الأيام » يعد تصويرا لموقف المؤلف من المحافظين بسبب الشعر الجاهلى فان كتاب « أديب » يمكن أن يعد هو الآخر تصويرا لموقف السلطة من المفكر حين تصورت أن الفكر جهاز مادى مرتبط بظروف تقيده بالعمل . ولذلك يضاف إلى كتاب « الأيام » باعتباره حلقه من حلقات الـترجمة الذاتية وان كان الأمر فيها يختلف بعض الاختلاف » (٢)

ولا يعنى تشابه الظروف فى وقت إصدار كتابين أن يكون الكتابان متممين بعضهما لبعض . وكيف يـكون « أديب » مضافا إلى « الأيام » ، باعتباره حلقة من حلقات الترجمة الذاتية . وهو يـدور حول شخص آخر . وظروف شخص آخر ؟ إلأنه يحتوى على بعض الآراء المتشابهة ، أم لأنه يحوى وصفا لبيئة سبق أن وصفها كاتب « الأيام » ! وحتى الآراء المتشابهة لم تكن متشابهة بدرجة التطابق . لان الرجل كان له رأى وكان لصاحبه رأى آخر ، وكم

(١) مع طه حسين : « سامى الكيالى » ص ٥٧
(٢) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره . « عبد الحميد يونس » ص ٦٥

اختلفا حول مسائل بذاتها ، وكان لهذا رأى وللآخر رأى مخالف .

تصور الدكتور عبد الحميد يونس من الواقع التاريخى أن نشر « الأيام » يوضح التجربة النفسية للمؤلف ، وكذلك تصور أن ظهور كتاب « أديب» عام ٣٤ يوضح هو الآخر موقفه من السلطة التى أبعدته عن الجامعة ، ولذلك أضافة إلى كتاب « الأيام » .

ولو كان كل من الكتابين ردا من المؤلف على الاضطهاد فذلك لايعنى أن الخط النفسى فى الكتابين واحد . فالأيام معاناة ذاتية يقصد بها اثبات ما لهذه الذات من صلابة وقدرة على مواجهة ظروف الطبيعة وتحديها . وتصوير لنفاذ صاحبها من أغلال العجز والقصور ، واثبات لقدرة هذه الشخصية على تحصيل العلم والتعمق فيه بما لايقبل شكا فى قدرتها العلمية ، والذى أراده له الثائرين بكتابه « الشعر الجاهلى » . أما « أديب » فلا تلمس فيه معاناة ذاتية ترغب فى أثبات وجود ، انما هو عرض لحياة صديق فى ظروف مشابهة ، ونقد لحياة لاتعطي للانسان فرص التنشئة السلمية حتى يسطيع مواجهة الحياة فى ظروف أخرى متقدمة ، متطورة . فاضطراب بطل ,, أديب ،، فى أوربا نبع من هذا التناقض الذى وجده بين الحياتين . وأوضح ,, طه حسين ،، هذا التناقض فى الرسائل التى كان يرسلها له صديقه . فان كان هذا تدخلا من المؤلف فله من الحرية فى ذلك مايشاء فى الافصاح عن وجهة نظره ، والا كان من اليسير علينا أن ننسب كل وجهات النظر التى يقولها الكتاب إلى الترجمة الذاتية.

وأتعجب من قول د. ماهر حسن فهمي في ذلك : ، أسلوب المؤلف

مفروض على حديثه وحديث صاحبه وكأنه وجهان لعملة واحدة.»[1] وأى عجب في هذا ، أليس هو المؤلف الذى يتكلم ، حتى حين تنطق شخصياته فانها تتكلم بأسلوبه هو وكيف يتأتى لمن يكتب كتابا أن يكتب جزءا بأسلوبه وجزءا آخر بأسلوب مغاير مهما تعددت الشخصيات في أى كتاب فانها تنطق بأسلوب المؤلف .

كل هـذا نتج من أن الكتاب يحتوى على صفحات من الذكرى يكتبها « طه حسين » على لسان صاحبه بمـا يوافق ذكرياته هـــو وهذا ما أسميته الانعكاس الذاتى ، فهو حين يتحدث حديث الذكريات الأولى يشا بـه بذلك بعضا من صفحات الجزء الأول من « الأيام » وحديثه عن القناة يرجع بنـا إلى وقفته الأولى بجانب القنـاة فى « الأيام » ، . وحديثة وحنينه إلى هـذه الأماكن واضح ،وهى أماكن طفولته التعيسة التى حفرت لها مكانا فى نفسه. وربمـا أنطق صديقه بهـذا الوصف متعمدا لينطلق هو ليصف هذه الأماكن ويصور ما بقى لها فى نفسة من أحاسيس ربما لم يحدثه صديقه بكل ماوصف ولكنه أضاف من عند نفسه ليظهرنا على أن إحساسه بهذه الأماكن لم ينقص وربما حين أخبره صديقه أنه من هذا البلد الذى يقرب من قريته أثار فى نفسه الحنين والذكرى فسطر ما سطر ، انعكاسا من ذاته على ذلك الواقع الذى كان يكتب فيـه « أديب » . بل انه ربمـا جعل صديقه هـذا قريبا منه ومن بيئته وعلى دراية كاملة بكل صغيرة وكبيرة فى هذه البيئة ليتسنى له أن ينطلق من ذاته ، فتظهر هذه الظلال من الذاتية على الكتاب . ولكنه قد صور شخصية صديقه فأوضح أبعادها وأعطانا بذلك هـــذا الخط الفاصل بين شخصيته وشخصية صديقه وهو فى المواقف التى تستدعى منه أن يفصح عن ذاتة بلا تحرج ، وبذلك لايختفى خلف هذا الأديب كما قال . يقول : كذلك يسيطر

(١) السيرة تاريخ وفن : « ماهر حسن فهمي » ص ٢٨٧

الغرور على أنفس الشباب فاذا هم يتكلفون ما لا يحسنون ، ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون . ويتكفون هذا النفاق الغريب يخفون بة ما فى نفوسهم من أصول ، ويظهرون به مايرغبون فية من مظاهر التجديد » [1] . يقول هذا بعد مناقشة بينه وبين صديقه اتضح منها أمام هذا الصديق أنه لم يزل ذلك الأزهرى القح الذى يحمل فى نفسه من رواسب العقائد والتقاليد مايدل على أنه على غير مايظهر من حرية رأى وتطور فكر . فأفصح بذلك عن نفسه ورأيه دون الحاجة إلى أى تستر .

وهو إذ يفصح عن نفسه فلا عجب فى ذلك ، فقد جعل من نفسة منذ البداية طرفا فى هذا الكتاب ، وجعل لوجوده مكانا ظاهرا ولكن لا عن طريق ترجمة ذاتية بل عن طريق انعكاس رؤية أو أحاسيس الذاتية .

ويفصح مرة أخرى عن رأى من آرئه يقول : يخيل إلى أن الانسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتي أمام النفس أن وجد إلى ذلك سبيلا ، وقد يخيل إلى أن حياه الرجل المثقف من نفسه هو خير أنواع الحياه وأرقى منازله . كذلك حين كان يصف الطريق إلى بيت صاحبه وصفه نتيجة لاحساسه هو بأحياء القاهرة أو كما يتخيلها . هذه الآراء يسوقها وهو يقول أنه قائلها لا يتخفى ولا يتستر خلف أحد .

ولكن الذى لا أدريه حقا لماذا أرهقنا « طه حسين » بصحبة هذا الانسان الغريب الذى كان هو نفسه مرهقا بمصاحبته، «عقل صاحبى كان قد ركب على هذا النحو فلم يكن يستطيع أن يمضى فى تفكير أو روايه أوحديث دون أن ينحرف يمينا أو شمالا ثم يعود إلى طريقة الأولى ليعود إلى الانحراف

( ) أديب ؛ « طه حسين » ص ٨٧ دار المعارف الطبعة السابعة

عنها ، ولماذا شق علينا بمصاحبة هذا الرجل ؟ . وماذا كان يقصد بكتابه هذا؟ أيقصد أن يزودنا ببعض من آرائه وأحاسيسه ؟ ماكان أغناه عن هذا وقد ضمن كثيرا من كتبه هذه الآراء والأحاسيس . هل أراد أن يعرفنا صديقه هذا الغريب ؟ اذن ماهو الداعي إلى أن يقحم علينا رجلا شاذ اكرهه هو نفسه منذ اللحظة الأولي،وكرهناه نحن منذ اللحظة الأولى وماتلاها من لحظات بعد أن أعطانا كل مقومات الكراهية لهذا الانسان صاحب الخلقة الدمية والصوت العالي والضحك المنفر . لم يستطع « طه حسين » أن يجعلنا نقترب بعواطفنا من هذه الشخصية حتى حين ساق حديث الذكريات بكل هـذه الرقة والشفافيه نسينا صاحبه هذا وتركز إحساسنا في « طه حسين » ورقته وشفافيته وما صدقنا أن هذا الحديث العذب ينساب من هذا الانسان الغليظ الفج . فحديث الذكريات هـذا لايمكن أن يكون حديثه ، والا من أين له بكل هـذه الرقة ورهافة الحس ؟

ماذا كان يقصد بكتابه هذا ؟ أحقا كما قال أبراهيم الابيارى : « الكتاب ليس سيرة بقدر ماهو حديث عـام عن الحياة هنا والحياة هناك . هولا يترجم لهذا الأديب وإنمـا يترجم للون من ألوان الحيـاة له ، لون هنا ولون له هنـاك وما يتناول مؤرخنا هذا ألا لذلك المغزى الذى عن له ، فهو لم يرد سيرة أحداث الحياتين ليجعل منهما ترجمة متصلة ، وانما أراد مافي الحياتين من مغزى وقـــع عليه . فمضى يحيل من هذا المغزى السيرة التي يرسمهـــا لهذا الصديق » (١) .

أحقا هذا ماقصد إليه بهذا الكتاب ! حديث عام عن الحيـاة هنا وهناك

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « ابراهيم الابيارى » ص ٦٥

حتى هذ الوصف للحياة هنا أو هناك لم يكتمل ، لم نجد هذا الحديث الا فى كلمات عابرة من الغرفة المنظمة النظيفة وهذه الفتاة التى تدخل وتخرج بآنية الطعام . لم ينفذ بنا إلى أعماق أى من الحياتين . ثم ماهو هذا المغزي الذى عن له ؟ أهو أظهار ما فى الحياتين من مغزى ؟ وأين هو ذلك المغزى الذى وقع عليه ؟ لم يذكر ذلك الا فى كلمات قليلة أن كان هـذا مايقصد اليه بالمغزى ، «وبعدأن أمور مصر محزنة حقا . أليس مما يسوء ويحزن أن يعجز هـذا البلد السعيد الناعم بالسلم عن أن يمـد الجامعة من المـال بمـا يمكننا من استبقاء بعوثها فى أوربا حتى تتم ماأرسلت من أجله ؟ أو ليس مما يحزن ويسوء أن نرى هـذه الجهود الضخمة الشاقة التي تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أثقالها ونفقاتها وتضحى فيها بمـا تضحى من الأنفس والأموال ، وأن ترى مصرعا جزة أو بخيلة لاتستطيع أولا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحار » (١) .

ترى . أهذا هو المغزى ؟ لم يتضح من هـذا القول أى مغزى خاص . اللهم الا أنها كلمات ناقدة ، وقد نقد كثيرا بمثل هذا الكلام وأكثر منـه فى معظم كتبه ، وما زلت عند تساؤلى عن الدافع الذى دفعـه لكتابه مثل هـذا الكتاب ، بل أنه لم يتبع فيه طريقة التحليل النفسى ، فلم نعرف للان لماذا أصيب صاحبه هذا ، الأسباب نفسية . أم لأسباب فى تكوينه الطبيعى . وإذا كان لأسباب نفسيه فلما لم يطلعنا على صراع حقيقى يدفعه لهذا الجنون ، ولو كان لأسباب طبيعية فما لناوله وقد خلق يعانى نقصا طبيعيا .

ماكان أيسر عليه أن يكتب ما أراد من آراء أوصف أو نقد أو انعاكاسات

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : « ابراهيم الابياري » ص ٩٥

ذاتية دون أن يكلفنا صحبة هذا الانسان الثقيل الذى أجبرنا على ملازمته طوال مائتى صفحة تقريبا فأرهقتنا هذه الصحبة مع اننا لم نمل مصاحبة « طه حسين » نفسه طوال ثلاثة أجزاء ، من أيامه ، لأنه فى الأيام استطاع أن يخلق فى نفوسنا هذه العاطفة الجميلة من التعاطف والرحمة كما استطاع فى « أديب » أن يخلق نفوسنا هذا الشعور بالنفور والكراهية حتى أنى تمنيت أن يعجل الجنون بصاحبة هذا ليريحنا منه ! !

لايمكن أن يكون كاتب الأيام بكل مافيها من بوح شجى ناعم هو المعبر عن هذه الذات بكل هذا الاضطراب والسخف . أنما هو يتحدث عن شخص آخر تماما. ولا تظهر هذه الذات التى صاغها فى « الأيام » إلا من خلال تلك الانعكاسات البسيطة فى حديث الذكرى ، وبعض الآراء ، والتى تضفى على الكتاب بعضا من الشفافية والرقة التى عرفناها فى « الأيام » .

فكتاب « أديب » لايعد وأن يكون لونا من ألوان « الأدب المظلم » ، الذى تحدث عنه ,, طه حسين ،، فى كتابه ,,ألوان،،ذلك الأدب الأسود الذى تشعر بعد قراءته بأنه قد أثقل على صدرك وتركك وأنت تعانى الضيق والتشاؤم.

,, أديب،، والأيام هذان الكتابان يؤرخان للعصر الذى عاشه المؤرخ يؤرخان له من زاوية خاصة فيما يبدوان ولكنهما مع هذا يتناولان جانبا عاما ، يتناولان الحياة العامة فى ظل الحياة الخاصة ،، (١) وأعتقد أن هذا ينطبق أكثر على كتاب ,, أديب ،، .

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : ,,عبد الحميد يونس ،، ص ٩٥

شجرة البؤس

وكتب « طه حسين » شجرة البؤس ، وجعلها تتمة لهذه الكتب التى نسجها حول الذات ، ابتعد بها عن ضمير الغائب الذى عرفناه فى « الأيام » ، وعن ضمير المتكلم الذى قص به « أديب » ، واختار أن يقوم فيها بدور الراوى ، ليقترب بها من جو الراوية .

. . .

« على » و « عبد الرحمن » صديقان من التجار . يعيشان فى بحبوحة من العيش وكان لعلى ولد شاب هو « خالد » يحيا حياة دينية بين قراءة القرآن والاختلاف إلى المساجد وحضور حلقات الذكر ، لم يتعلم الا فى الكتاب ، وبعدها عمل مع والده فى التجارة وكان « عبد الرحمن » قد تزوج بزوجة حبشية أنجبت له ولدين وفتاة ، ويشاء الله أن تكون الفتاة قبيحة الخلقة . ويشاء الله أيضا أن يموت الولدان وتبقي هذه الفتاة الدميمة بين أبويها وكانت غريبة الأطوار منذ طفولتها . وعاشت الفتاة تحمل لعنة قبحها مما سبب لها آلاما قاسية .

والصديقان يتبعان شيخا واحدا يسيران على هديه . ويأمر الشيخ مريده عليا بأن يزوج ابنه لأنه يخشي عليه الولاية وهو لم يخلق لها . ثم يشير على « عبد الرحمن » بتزويجه لابنته ، ولكن عبد الرحمن يصارح صديقه بحقيقة الأمر وبأن ابنته قبيحة دميمة لاتسر زوجا . ثم أن لخالد أما يجب أن تستشار ، وخالد نفسه يجب أن يكون له رأى فى هذا الشأن لكن الصديق يابى الا أن يقوم بتنفيذ أمر الشيخ ، وحين ترى أم خالد العروس ، تفزع وتلوم زوجها ،

وتلوم الشيخ الذى أشار بهذه الزيجة. لكن زوجها يخيرها بين الرضا بهذا الأمر أو الطلاق . فتذعن الأم على كره منها طاعة لزوجها فطاعته من طاعة الله ، وابقاء منها على حياتها الزوجية . ومن العجيب انها تجد ابنها بعد الزواج مسرورا سعيدا راضيا كأنه قد زف إلى زوجة جميلة. وتصاب الام بخيبة أمل فى ذوق إبنها ، وتكره منه هذا الاستسلام . ويصيبها المرض ويعلم الله وحده أهو من الاهانة التى ألحقها زوجها بها ، أم من خيبه أملها فى أبنها . وقبل أن تموت تقول لزوجها : انك بهذا الزواج لا تزيد على أنك غرست فى دارك شجرة البؤس . ويحزن عليها علىّ حزنا شديدا ولكن الشيخ يأمر خالدا بأن يزوج أباه .وقد تزوج على بعد ذلك كثيرا ، لكنه قد جعل لذكرى أم خالد يوما ثابتا من كل جمعة يقضيه فى غرفتها متعبدا مصليا لا يطلب من الله إلا أن يميته حيث ماتت ، وأوصى أن يدفن معها حين يموت.

وتلد « نفيسة » لخالد صبية يشاء الله أن تكون آية فى الجمال . ومنذ أدرك خالد حسن ابنته تفتحت عيناه على قبح زوجته وأصبح يؤذيها . بكلمات جارحة، وتغيرت سيرته معها وعمد دائما إلى المقارنة بين الام وابنتها غير عابىء بما يسببه لزوجته من ألم . وتلد « نفيسه » بنتا ثانية يشاء الله أن يكون لها وجه أمها القبيح ، ويحاول « خالد » أن يقنع بما قسمه الله له ، ولكنه مايكاد يتطلع إلى وجه الصغيرة الدميم حتى يتمثل له الشيطان بعينه . كذلك كانت حياة خالد عذابا متصلا بين أبنتيه وزوجته. ومنذ أن تغير حال « خالد » استولى الخوف على نفس « نفيسة » من أن يتخذ زوجها لها ضره ، وأورثها هذا الخوف مرضا عصبيا . ويرى الشيخ انها لم تعد تصلح زوجة لخالد . فيتعهد أبوها بأن يكفلها

هى والصبيتين ماعاش فى الدنيا ، أما بعد وفاته فسيوصي بن خالدا كذلك بأم نفيسة على أن يؤول كل ماله لخالد من بعده .

ويستكثر على من النساء والولد فيصبح فاذا هو فى ضائقة مالية لكثرة من يعول ومن كساد حال التجارة ، ويذهب ليستطلع حال صديقه «عبدالرحمن» فاذا تجارته تشكو لكساد أيضا .

ويعيش « خالد » أيامه يشكو الوحدة نظرا لبعد زوجه عنه ولانشغال أبيه عنه بهذا العدد الضخم من البنين والبنات . كذلك كان يشعر بالفراغ . فما بقى بتجارة أبيه متسع له . فسعى هو وابن عمه صديقه « سليم » إلى العمل بالوظائف، ونشأ تعاطف بين زوجة « سليم » « زبيدة » ونفيسة وأشفقت على تعاستها ، فأرادت أن تدخل البهجة إلى قلبها فخطبت ابنتها تلك الدميمة « جلنار » إلى أبنها « سالم » منذ الصغر .

ويرى الشيخ مرة أخرى أن يتزوج « خالد » من ابنة أحمد أصدقاء أبيه ولكن بعد فترة ويموت « عبد الرحمن » والد نفيسة فينصح الشيخ لخالد أن يضم « نفيسة » إلى بيته كعهده لأبيها ، لكن بعد أن يطلقها فما عادت تصلح لأمور الزواج وليحتسبها أختا له يبرها ويعطف عليها . ولم يرث خالد بموت عبد الرحمن شيئا . انما أضاف إلى منزل أبيه أربعة أشخاص علاوة على من فيه من نساء وأبناء . وعاشت « نفيسة » وأبنتاها وأمها فى طرف من أطراف الدار كأنها جماعة غريبة عن البيت ومن فيه . وعاشت « نفيسة » تقاسى الوحدة والاهمال والتعاسة والأوهام .

ويضيق أبو خالد بنفقات هذا الجمع فيشير على ابنه بان ينفق على أهله ويستقل بهم .

وحين تزوج « خالد » من « منى » ابنة الشيخ مسعود أتخـذ له دارا مستقلة ووصلها الحاج مسعود بالهدايا وأصبحت دار خالد دارا للخير والرغد وأخذت « منى » تبر « نفيسة » وابنتها كذلك تبر حمـاها وأهله . وتنجب لخالد ثلاثة أولاد ذكور على التوالى مما يسعد زوجها أشد السعادة . ويتدخل الشيخ مرة أخرى فى حياة خالد فينصح له بأن ينتقل بأهله إلى بلدة قريبة يجد له فيها عملا أفضل . وكان للشيخ مأرب فى هذا . لان ذلك البلد كان قـــد استعصى عليه وقـــد ظل البلد الوحيد الذى لم يرسل له الهدايا أو الوفود ، فأراد بذلك أن يجعل له فى هذا البلد بيتا يدخل فيه . وتثور أم منى بالشيخ الذى يريد أن يبعد ابنتها عنها ولكنها لا تجد فى نفس ابنتها صدى لهـــذه الثورة .

ويستقر خالد فى المدينة الجديدة وترزقه زوجه ولدا رابعـا . ويشتد المرض العصبى بنفيسه فتظهر منى الرغبة فى قدومها إلى بيتها لتتولى رعايتهـا بنفسها . وتحضر نفيسة وابنتاها إلى الدار ، ومنى ترعاها ولكنها تبقى فى ذهولها بقايا امرأة . وتقوم « جلنار » الفتاة الدميمة على خدمة البيت ورعاية الاخوة الصغار . ويصبح هذا العمل وكأنها مكلفة به . « وتمر الأيام والصبية يكبرون والكهول يشيخون والشيوخ يسعون إلى الهرم ومن أولئك وهؤلاء من يدرك الموت .»[1]

وكان خالد طموحا ولم تكن امرأته أقل منه طموحا إلى الرقى فاتخذا لحياتهما أسلوبا متطورا يتماشى مع تطور الأيام حولهما . وحرص خالد على أن يعلم

(١) شجرة البؤس : « طه حسين » ص ٤٤ دار المعارف الطبعة العاشرة

أولاده فى المدارس ويتخذ لهم الزى الافرنجى . واستقلت اسرته تماما عن نشأتها فى تلك المدينة الأولى . وتتزوج سميحة الابنة الجميلة من نفيسة ، وتعود إلى مدينتها الأولى وتحيا حياتها وتشقى بها أيمـــا شقاء . وتبقى « جلنار » الابنة الدميمة فتاة وحيدة بين الاخوة البنين وبين أمها التعيسة وزوج أبيها الكريمة تعنى بشئون المنزل وترعى اخواتها وتعد نفسها لتكون زوجة « لسالم » خطيبها منذ الصغر . وكانت تحبه أشد الحب وان كتمت هذا الحب . كان « سالم » يزور هذا البيت ويطيل الزيارة وهى تسعد بذلك لانها تتصورانها المقصودة من هذه الزيارات . وترزق « منى » زوجة « خالد » بأربعة بنات تنشئهن جميعا « جلنار » ومنذ ان رزقت « منى » بالبنات تغيرت معاملتها للفتاة واخذت تقسو عليها . كأن حنانها كله تحول لبناتها فتتعاطف « جلنار » مع أمها محاولة ان تفيقها من ذهولها وتستطيع بعض الشيء ان تنجح فى ذلك ، ويزداد تقاربها . وتمر الايام ويغفل أمر الخطبة تماما لان « سالما » لا يتكلم فى أمر الزواج ، ونسيت الجماعة ذلك أيضا فلا أحد يذكر شيئا ، فيما عدا الفتاة التى تعانى فى أعماقها خيبة امل .

ويحاول « خالد » ان يوفر لأولاده سبل التعليم الراقي ، فيرسل منهم بعضا لإكمال التعليم فى القاهرة ، ويتكلف في سبيل ذلك فوق طاقته وتضطر زوجته لبيع حليها وأخذ هو وزوجه يقتران على نفسيهما أشد التقتير وكان « خالد » يباهى بأنه سيترك لأولاده ما هو أعز من المال ، فقد سلحهم بالعـلم . وكانت « جلنار » عاتبة على أبيها فقد ترك لأولاده علما ولكن ماذا ترك لبناته خاصة من لم تجد زوجا ؟ ويأتى « سالم » خاطبا ولكن ليس لـ « جلنــار » ، بل

لأولى بنات « منى » ! ويثور الأخوة ويرفضون هذه الخطبة بل يهـددون بقطع صلتهم بالأسرة أن قبلت هـذه الخطبة الوقحة ، ولكن حين يتفرق الشباب بنهاية أجازة الصيف تأتيهم الأخبـار بزواج أختهم من « سالم » وزواج « جلنار» بأخي « سالم » ذلك الخامل التافه ، ويدرك الشباب أن هذه خدعة ليتم زواج « سالم » من أختهم وتطلق بعدها « جلنار » قبـل الزفاف ، وتمعن « منى » في القسوة إذ تتمسك بإبنتها وزوجها ليعيشا فى الدار نفسها . ولا تحتمل «نفيسه » أن ترى تعاسة إبنتهـا فتغادر الدار إلى بيت سميحة تعيش معهـا ويخرج بذلك آخر شعاع من الحنان من حياة الفتاة البـائسة . ويخطبها أحد الشيوخ من أصدقاء أبيها ولـكنها ترفض وتفضل البقاء حيث هي وتسخر « منى » منها فتقول : « أن شجره البؤس مازالت تؤتي ثمـارها فيرد عليها زوجها الشيخ : « فعسى الله ألا تذوقي أنت ولا بناتك بعض هذه الثمار ، ولـكن الله لا يستجيب لدعائه ، فهؤلاء بناتها من حولهـا بين أرملة ومطلقة كأنهن أجتمعن جميعا تحت ظلال شجرة البؤس .

. . . .

حين بدأ « طه حسين » رواية « شجرة البؤس » نراه يضع فى الاهـداء كله موضحا فيها نوعية الرواية يقول : هذه صورة للحياة فى أقليم من أقاليم مصر ، آخر القرن الماضي وأول هذا القرن .

اذن فقد حدد لنا مسار الرواية . فهو يختار لها الخط الاجتماعي ، كذلك فقد حدد البطل الأول فى الرواية وهو المجتمع المصرى . وهـذا هو الشيء المألوف من « طه حسين »فقد كان المجتمع المصرى و الإنسان المصرى دائما أبدا فى

وجدانه . فالانسان المصرى ببيئته ومجتمعه ومشاكل هـذا المجتمع يحتل مكان الصدارة من أدب « طه حسين » وظهر هذا الاتجـــاه أيضا فى الكتب التى صاغها ترجمة ذاتية عن نفسه ، إذ أمتزج هو بهذا الكيان المصرى الصميم حتى أنه ليصعب علينا تصوره بصورة منفردة فهو دائمـا جزء من هذا الكيان الكبير « مصر » .

وقد صرح الدكتور « مؤنس طه حسين » أن شجرة البؤس هى امتداد للأيام وكل أشخاصها واقعيون ، وهى صورة روائية لأسرة « طه حسين » ولا يزال بعض أشخاصها على قيـد الحياة (١) ويقول سيد قطب : « ما تكاد تقطع صفحات هـــذا الكتاب حتى تحس أنك تعيش فى جو الأيام وتستنشق فى هـذا الجو ريح الأيـام ، وأعتقـد أنه بحسب كتاب ما أن يقـال عنه أنه يعيش فى جو الأيام كيمـا تشعر له نفسك بالود والكرامة والارتياح . (٢)

وأرى أن هذا لا يعنى أنها أمتـداد لحلقة الترجمه الذاتية التى كتبهـا فى « الأيام » فهو يكتب فيها عن مجتمع بأ كمله وإن كانت حقـا قصـة أسرة بذاتها الا أنها من الممكن أن تكون قصة أى أسرة فى مجتمع مصر ، وقـد صورهامن وجهة نظره ، فبث آراءه ورؤيته الخاصة خلال سطورها وهو الذى يمزج دائما بين مجتمعه ، وبين نفسه ويعكس لنا بذلك ذاته على هـذا المجتمع الكبير الذى يعد نفسه جزءا منه .

---

(١) طه حسين وأثر الثقافه الفرنسية فى أدبه : كمال قلته ص ١٦

(٢) كتب وشخصيات : « سيد قطب » ص ١١٤ دار الشروق

وهو وأن تتبع هذه الأسرة فى أطوار حياتها من جيل إلى جيل فليقف بنا على جوهر التحول الاجتماعي ومراحل تطور المجتمعات . وعلى تلك اللحظات الحرجة فى حياة المجتمع التى تنقرض فيها قناعات وتجد قناعات . ومن خلال كل هذا تستشف نظراته ، ونلمح ذاته التى كونتها كل هذه العوامل . يقول : « تتبعت حياة هذه الأسرة من قرب ،وفى كثير من العناية والدقة ، فرأيت كثيرا من الاحداث التى عرضت لها والخطوب التى ألمت بها خليقا أن نكتب فيه القصص وتنشأ فيه الكتب . وأكبر الظن أن هذا ليس مقصورا على هذه الاسرة ، وانما هو شأن كثير من الأسر المصرية فى هذا العصر الخطير من حياة مصر ، حين أخذ القرن الماضي ينتهى ، وأخذ القرن الحاضر يبتدأ ، وأخذت الحياة المصرية تنتقل من طورها القديم إلى طورها الجديد فى عنف هنا وفى رفق هناك . وما من شك فى أن الذى أقصه من أبناء هذا لاسرة - أسرة خالد — يمكن أن يقص مثله من أبناء أسر أخرى كانت تتصل بها صلة الجوار أو صلة المشاركة . (١)

وهذه حقيقة ، فالكتاب هو ترجمة للحياة المصرية الصميمة فى ذلك ألوقت قصة للبيئة المصرية التى عاشت فيها تلك الأسرة مثلهامثل آلاف الأسر المصرية التى عاشت ذلك الزمان . « تلك صورة من حياة طواها الزمن فلا رجعة لها فى أغلب الظن — وهى صورة تستحق التسجيل . وقد تولى تسجيلهاأنسب الأقلام لتسجيلها بين المعاصرين ذلك ان أهم خصائص الدكتور هو الاستعراض التصويرى اللمسات وفى غير هذا المجال ربما

شجرة البؤس : « طه حسين ، ص ١٦٩

استبطأ القارىء حركة الأسلوب وربما عن له فى بعض المواقف أن يطلب من المؤلف الاسراع ولكنه هنا لايستبطىء ولا يطلب السرعة فرقعه الحياة هنا فسيحة والخلجات فيها وئيدة » (١)

فالبيئة بكل ظروفها هى التى أكملت صورة الأشخاص المترجـــم لهم فى الكتاب .

وقد عمد أن يفصل ويوضح بشكل روائى تلك العناصر التى تحكمت فى حياة المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، وان كان قد دمجها فى الأحداث وجعلها جزءا منها ، الا أنها تظهر كوجة لهذه الأحداث .

فأول هذه العناصر هو الدين . فقد كان للـدين ولرجال الدين سلطان لايعد له سلطان فى ذلك الزمان ، فهذا هو «الشيخ» ، سلطان متوج بين رعاياه يرسم للناس خطوات حياتهم ، يامر فيطاع والكل حريص على رضاه كأن رضاه من رضا الله .

يشير الشيخ على « على » ، « أن يزوج ابنه « خالد « من ابنة صديقه عبد الرحمن « نفيسة » ، تلك الانسانة الدميمــة التى يشفق أبوهــا نفسه من زواجها ويعلم أن ابنته لاتصلح زوجا لأحد ، فهى قبيحة الشكل بشعة الصورة ويقرر ذلك بنفسه اذ يقول : « أن ابنتى قبيحـه الشكل ، بشعـة الصورة لا تكاد تقع عليها العين الا انصرفت عنها مشمئزه وانحرفت عنها نافرة فيرد عليه « على » : أو ليس أمر الشيخ ؟ فأينا يقدر على أن يخالف أمر الشيخ ، وأينا يقدر على أن يختار لنفسة غير ما اختار الله » (٢)

---

(١) كتب وشخصيات : « سيد قطب » ص ١١٥

(٢) شجرة البؤس : « طه حسين » ص ١٨

وهكذا يقرن اختيار الشيخ باختيار الله ! ! . وحين تعترض « أم خالد » على هذا الزواج محاولة أن تفر بابنها من هذه الزيجة يرد زوجها بأنه ما يستطيع أن يغير من أمر الشيخ شيئا . فليشق ابنه بهذه الزوجة القبيحة ، فالمهم ألا يخالف مشورة شيخه .

ويقول « طه حسين » رأيه بطريقة خفية فى الدين ورجاله حين ينطق « أم خالد » بهذه الكلمات : « انك ان أتممت هذا الزواج لم تزد على أن تغرس فى دارك شجرة البؤس » . ونعود الى خالد نفسه الذى « ما كان ليفكر فى جمال ولا حسن ، ولم يكن يحفل بالولد ولا بتدبير منزل ، ولم يكن يشفق من وحدة ولا يبتغى أنيسا ، وانما كان يطيع أمر الشيخ ليس غير ، وقد أمره الشيخ أن يتزوج فهو يتزوج » (١)

ويبدو « خالد » سعيدا بهذا الزواج ويعزو الأب ذلك إلى كرامة الشيخ التى لا يعجزها شىء ، انها تحول القبح جمالا والدمامة حسنا . ويلح « طه حسين » فى اظهار رضوخ القوم لارشادات الشيخ ويكرر كلمة (أمر الشيخ) فى أكثر من موضع ويتتبع سلطان الشيخ فى كل مراحل الرواية . فالشيخ نفسه يعود وينصح خالدا بتطليق تلك الزوجة التى ابتلاه بها وينصحه بالزواج من أخرى ، ويتم ذلك الزواج ابن الشيخ الكبير بعد موته وبعد أن حل محله . يقول خالد حين يسأله أبوه أسعيد هو بهذه الخطبة الثانية ؟ « موقفى منها كموقفى من تلك الخطبة الاولى ، أمر الشيخ الكبير فأطعت ، ودعا الشيخ الصغير فأجبت . » (٢)

---

(١) شجرة البؤس . « طه حسين » ص ٢٢
(٢) المرجع السابق ص ٢٩

وكأن الدين متوارثا ، مات الشيخ الكبير ، فورثه ابنه يقـوم مقـامه ويتبعه نفس المريدين والأتباع .

ويشير الشيخ الجديد على « خالد » بالانتقال من بلدته إلى مدينة أخرى ويظهرنا المؤلف أن للشيخ فى هذه المدينة مآرب أخرى فقـــد كانت هى المدينة التى استعصت عليه ولم ترسل له الهبات والهدايا ولم تأته منهـا وفود مبايعة أو مشاركة . ولما عرف « خالد » أمر هـذا الايفـاد تردد ساعة بين الرضا والسخط ولكنه لم يلبث أن اطمأن فهو لم يتعود أن يخالف أمر الشيخ وتعمد « طه حسين » أن يظهر السلبية فى الدين أو بالأحـرى السلبية التى غرسها الدين فى نفوس الناس . فهم يخضعون لإنسان آخر يخطط لهـم حياتهم ومستقبلهم ، وهذه الزيارات التى كان يفاخر بها القوم انهـا تكلفهم فوق طاقاتهم وترهقهم من أمرهم عسرا وتودى بثرواتهـم ، ومع ذلك ينتظرونها كتشريف لا ينال ، ولا ننسي وصف مثل هذه الزيارات التي ذكرها فى كتاب « الأيام » حين كان يزورهم الشيخ فى إحدى غاراته هذه فيذهب هو ووفده بما فى البيت من طير وسمن وعسل ويدفـع بصاحب الدار الي الاستدانة .

ولم يجعل الكاتب حديثه عن الدين ظاهرا ككيان مستقل انما يظهره كعنصر فعال فى توجيه الأحـداث بل فى توجيـه أقـدار بعض النـاس . ونستطيع التعرف على كل مايعنيه المؤلف بهذا ، فهو لم يقدم ما قدم عبثا ، انما قصد إلى أن يبرز دور المعتقدات الدينية الخاطئة فى هدم دعائم المجتمع ، وهو الذى طالما كره ذلك السلطان المزعوم . وطالما كره رجال الأزهر وشيوخه ، وطالما كره التقرب إلى الله بالأولياء أو رجال الدين . وقد كان يعلم أن

من بين رجال الدين الغاش والكاذب والمنافق ، فقد لمس ذلك من سيدنا في صباه المبكر ، ذلك الرجل الذى يحمل القرآن فى صدره ويعلمه للصغار ، فهـو فى توضيح هذا العنصر وعمله فى المجتمع ينطلق من ذاته لتأكيد رؤيته الذاتية .

... ...

وأظهر دور التقاليد والعادات فى هذا المجتمع ، فقد كان مجتمع هـــذا الزمان يدين بمجموعة من التقاليد ، تعمل وتتحكم فيه بحرية مطلقة حتى ولو نجم عن ذلك ما يضعف هذا الكيان الأسرى ، ولا يتخلى عنها لأنهـا عادات متوارثه .

فمن أظهر هذه التقاليد طاعة الأبناء للآباء ، طاعة مطلقة حتى فى أخص الأمور وهو اختيار الزوجة دون النظر إلى اعتبارات شخصية أو رغبات خاصة . فالأب حين يرتضى لابنه زوجة يفرضها عليه ، وذلك مثل ما رأينا من موقف على من ابنه خالد ، ومثل هذا الخطبة المبكرة التى أرادت «زبيدة» زوجة «سليم» أن تفرضها على ابنها «سالم» ، وهو بعد لا يدرى من أمـــره شيئا ، كذلك الحال بالنسبة للفتاة اذا اختار الأب زوجا فهو مزوجها إياه لا راد لارادته حتى ولو لم يتناسب معهـا . فقد زوج ,, خالد ,, ابنته ,,سميحة ,, تلك الابنه الجميلة لرجل مسن له كثرة من البنين والبنات ، فقضت حياتها فى عذاب مقيم . ومثلما فعل خالد فزوج ابنته من ,, منى ,, لسالم خطيب ,, جلنار ,, القديم مع فارق السن بينهما ومع علمه بأن التى تريده هى ,, جلنار ,, لا هذه الفتاة التى لم تعرفه ولم ترغبه زوجا لها ، وهى تعلم أنه كان فى حكم زوج لاختها هذه التى قامت على تربيتها .

والأب هو الذى يختار نوع التعليم لأولاده فأن اختـار لهم الاكتفاء بتعلم القرآن كان هذا ، وان اختار لهـم تعلم مهنة أو صنعة ما كان هـذا أيضا . وان شاء لهم أن يتموا دراستهم إلى النهاية نفذ هذه المشيئة ولو أدى ذلك الى استغراب الناس وتندرهم . فارادة الآباء قدر ينفذه الأبناء .

ومن هذه التقاليد اختفاء الروح الاستقلالية ، فالابن اذا تزوج انضم بزوجة وأولاده إلى بيت الأسرة الكريمـة فيتضخم عـدد الأسرة وتزيد الأعباء وتموت النزعة الاستقلالية تماما ، ويترسم الأولاد خطى الأب فى تنشئة أولاده فيتبعون نفس هذه الطريقة .

وقد عانى كاتبنا نفسه مـن تلك السلطة التى كانت للأب والأسرة حين أراد أن يغير من طريق تعليمه الذى رسمه له أبوه فلقى من الاعتراض ما كان كفيلا أن يصرفه عن ذلك المستقبل الذى صنعه لنفسه .

ويصور حال المرأة فى المجتمع ، فالمرأة مقهورة مغلوبة على أمرهـا ، مستسلمة لقدرها . سلبية فى مواقفها . فهى كم مهمل ، من حق الرجل أن يفعل به مايريد ، يهملهـا أو يتزوج عليهـا أو يطلقهـا أو يسىء معاملتهـا يشجعه على ذلك مجموعة من التقـاليد توهمه بأنه المتصرف الوحيد بقدرهـا وأعطانا أمثلة لتعاسة امرأة ذلك العصر ، فهى رهينة البيت جاهلة تسيطر على عقلها الغيبيات ، تعيش بعقلية صدأة تفرض عليها ذلك الاستسلام العجيب . فهى خادمة فى المنزل لا أكثر من هذا ، لا رأى لها فى مصيرها أو حتى مصير أبنائها . ان أرادت أن تفرض رأيا هددت بالطلاق .

« وطه حسين » يحترم المرأة وكم نادي بتحريرها وتعليمها حتى تتسلح

بأسلحة تستطيع بها أن تواجه الزمان ، وتحميها من شق الانحرافات وقـد نشأ ومن حوله جموع النساء التعيسة فضاقت نفسه بهذه الأوضاع ، وقدم لنا نماذج من هاتيك النسوة وشقائهن ، صرخة فى ضمير الانسانية لخلق رأى عام يعمل على اصلاح حال المرأة .

وقد أجرى على لسان « زبيدة » زوجة سليم حديثا طويلا ما أحسبه الا أنه ثورة نفسية على الأوضاع : وما أحسب الا أنه حديث نابع من نفس « طه حسين » وصورة من احساسه بالغبن الواقع على المرأة فى هذه البيئة .

وفى هذا الموقف — موقفه من المرأة — تظهر ذات الكاتب بكل ثوريتها البناءة ورغبتها فى الاصلاح الاجتماعى ، والوقوف فى صف المرأة ، ذلك المخلوق المهضوم الحق .

« وطه حسين » لايفوته أن يتناول هذا المجتمع بالنقد فهو يتناول بعض الأوضاع الاجتماعية التى طالما كتب عنها فى بعض كتبه . فهو دائم النظر لصغار الموظفين . يرى أن هذه الطبقة فى حاجة إلى مزيد من الرعاية من الدولة ، هذه الطبقة التى يضطرها الفقر إلى أعمال تتنافى مع كرامة الانسان ، وقد سبق أن ذكر مثل هذه الآراء فى كتابه المعذبون فى الأرض ، مستقبل الثقافة فى مصر . وهنا فى « شجرة البؤس » يقول على لسان «سليم» فى مناقشة لهمع «خالد» عن الرشوة : « على الحكومة ألا تضطرنا إلى قبول الرشوة وإلى أن تأجرنا الحكومة أجرا حسنا لا أرى علينا بأسا من أن نستعين على الحياة بما يدسه الينا أصحاب المصالح من المال »[1]

---

(١) شجرة البؤس : « طه حسين » ص ١١٥

بهذا المنطق يحقق نظرية الدائمة إلى الفقر ، وأن الفقر سبب كل ما يعترى الإنسان من شرور ، وانه خلف كل نقيصة أخلاقية فى المجتمع .

وطه حسين ينشد العدل الاجتماعى ولا يرضى عن هذا التفاوت الطبقى الذى طالما أشار اليه وتناوله بالنقد فى مؤلفاته . فهو يقول فى مقدمة كتابه «المعذبون فى الأرض» : « إلى الذين يجدون مالا ينفقون و إلى الذين لايجدون ما ينفقون » . وفى « شجرة البؤس » يضع نفس الرأى على لسان « سليم » « أنا وأمثالى نرتشى لنعيش ، فأما رؤساؤنا وسادتنا فإن الحكومة تبسط لهم فى الأجر ، وتوسع عليهم فى الرزق ، وتقوم لهم بأكثر مما يحتاجون اليه ، وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشي ويأخذون لا كما نأخذ إنا نأخذ الدرهم والدراهم ونأخذ الدينار والدنانير ونأخذ السفط من البن، أو الجاعة من رؤوس السكر ، أو الحقيبة من الأرز ، فأما هم فيأخذون أضعاف ذلك ، وأضعافه ونحن نأخذ ما نأخذ لننفق على أنفسنا وعيالنا ، وهم يأخذون ما يأخذون ليشتروا الضياع يضيفونها إلى الضياع . صدقنى أنك لاتملك كما أنى لا أملك اصلاح ما فسد من الأمر »[1]

ونرى أن « طه حسين » ينطق الشخصيات بما يدور فى فكره هو ، فهذه هى تصوراته ونظراته الخاصة للأمور . ويسير بنا الكاتب عبر السنين ويسير بنا مع توالى الأجيال لنقف معه على ذلك التحول الذى حدث فى المجتمع . ويطلعنا على مظاهر هذا التحول .

فهذه مظاهر سلطة الدين تقل تدريجيا . فهذه أم منى لاتعترف بسلطان

( ) شجرة البؤس : « طه حسين » ص ١١٦

الشيخ الجديد الذى أشار على ابنتها وزوجها بالانتقال إلى بلد آخر . وهذا شيخ جديد يأتى فيقل عنده الأتباع ويحجم عنه بعض من المريدين السابقين ، وتأخذ الأسر فى تنظيم أمورهـــا فى شىء من الحرية ومن غير تدخل من الشيخ .

ومن أوضح نقاط التحول تلك الرغبة فى التعليم ، فكثير من الأسر لم تعد تكتفى بتعليم القرآن فقط . أو الرضا بوظيفة صغيرة . بل عرف الطموح كنزع من منازع الحياة . الطموح إلى حياة أفضل ومكانة أرقى . ويدل حديث « سليم » إلى صديقه خالد على هذا التحول الكبير الذى طـــرأ على الأسرة المصرية يقول « سليم » : « أنت تجاهد فى تربيه أبنائك وتعليمهم تتكلف فى ذلك مالا تطيق وتسلك بهم طرقا لم تسلكها أنت لأن أباك لم يدفعك اليها ولأنه لم يفكر فى أن يجعلك خـيرا منه كما تفكـر أنت . فى أن يكون بنوك أحسن منك حالا » . (١)

كذلك وضحت ظـاهرة الاستقلال الشخصى . فـلم يعـد الأب يرحب بوجود الابن وأسرته فى بيته . وأصبحت العلاقات المادية تتحكم فى علاقات الأسرة . وأصبح الأب يضيق بالنفقـات ويطلب من الابن أن ينفق على أهله ، وأصبح الابن يرحب بالاستقلال عن أبيه ويعمل على أن تكون سيرته فى أسرته من نبع ارادته المستقلة ، بل ويسير فيهـم سيرة مغايرة لمـا رآه من أبيه ، ويتبع أسلوبا مغايرا لتنشئتهم ، ويعنى بأنواع متقدمة من التعليم كموقف « خالد » من أولاده .

---

(١) شجرة البؤس : « طه حسين » ـ ص ١٤٥

ولم يعد الأبناء خاضعين ذلك الخضـوع لارادة الآباء فهـذا « سالم » ينقد رغبة أبيه ويترك تلك المهنة التى اختارها له ، ويتخلى عن تلك الخطبة التى عقدت باسمه منذ الصغر . ويختار زوجته بمحض ارادته .

وهؤلاء هم الأبناء يثورون ويقاطعون الأسرة لأن الأب والأم يريدان عقد خطبة ماكانوا يرغبون فيها ، ويكون للأولاد موقف من هذا الأمر يعلنون به رأيهم .

جيل يذهب وجيل يجىء ، ومفاهيم تنقرض تخلفها مفاهيم جديدة وهذه هى سنة التطور .

. . .

هكـذا كتب « طه حسين » شجـرة البؤس ، قصة أسرته أو قصة أى أسرة مصرية . فهو بهذه الرواية لم يقصد إلى قصة أسرته لأنهـا قصـة أسرة واحدة معينة ، انما جعل منهـا كما قلت قصة المجتمـع المصرى . لذلك لم تظهر الشخصيات بصورة واضحة ، فلم تظهر أى شخصية بملامحهـا الواضحة أو طبعها أو طريقة تفكيرها ، انما كانت الشخصيات مخلوقات تدفعهـــا الأحداث وتحركـها الأقـدار والتقاليد . لم يتعمق الكاتب شخصياته ولم يجعلها أكثر من عامل مساعد ، أو موصل جيد لإبراز الصورة التى أراد رسمها لهذه الفترة من الزمان ، ومجتمع هذا الزمان . قـــدم الصورة ككل ، وتعاونت جميع الشخصيات لإبرازها .

فالشخصيات مسطحة لم يعن بها ولا بدراستها ولا باعماقها ، اللهم الا تلك الشخصيه البائسة « نفيسه » التى اعتنى بها وبابراز شقائهـا والتى أعتقـد أن

« طه حسين » قد ترجم فيها لشخصية بعينها يعرفها حق المعرفة ، وتركت مأساتها فى نفسه أثرا ما . وفيما عـدا هـذه الشخصية لم تظهـر عناية المؤلف بشخصية أخرى . انما كانت كل عنايته موجهة إلى سرد الوقائع والحوادث لهذه الأسرة والانتقال بها من طور إلى طور ومن جيل ألى آخر مع العناية بتفاصيل الحياة اليومية والحياة العادية يمر بها مرورا سريعا فى الأيام المتشابهة « وثمة ملاحظة هامة عند « طه حسين » هي أنه يسترسل فى بعض الاحيان فى وصف بعض الشخصيات أو الاحداث ثم يوجز فى وصف البعض الآخر ، يبدو ذلك واضحا فى شجرة البؤس » (١)

وهو فى كل هذا مصور بارع ، تكتسى صوره بظلال من ذاته ، وعلى هذا تكون « شجرة البؤس » مثلها مثل « أديب » تعكس عنصر الذاتية فى حياته .

. . .

---

(١) شجرة البؤس : « طه حسين »
(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه : « كمال قلته » ص ٢٠٧

الباب الخامس

السيرة والترجمة الذاتية بين

طه حسين و أدباء العصر

ونستطيع أن نقول إنة قدم فى «على هامش السيرة» والوعد الحق سيرتين تاريخيتين لفترتى ما قبل الاسلام وبدء ظهوره . ولم يؤرخ فيها للنبى «محمد» عليه الصلاة والسلام ولم يقترب فيها من شخصه كثيرا وان كان يدور فى فلكه ، وقد قدم هاتين السيرتين من خلالة ، وكان هو المهيمن عليها وان لم يظهر بصوره واضحة ، ولكنة الدافع الاول والأخير فى كتابة المؤلفين .

وحين كتب عن «أبى بكر وعمر» رضى الله عنهما شرح لنا الحياة السياسية داخليا وخارجيا . وأعطانا بعض ملامح الشخصيتين ولكن من خلال هذا المنهج السياسى الذى اتبعاة . فهو لم يؤرخ لحياتهما ، وإنما أرخ لسيرتهما فى الحكم .

وفى الفتنة الكبرى « بجزأيه بدا طه حسين » مؤرخا الا انة انصب بشكل أساسى على الناحية السياسية شارحا كل الظروف والتغيرات التى دفعت بالمجتمع الاسلامى الي ناحية سياسية معينة . لم يهدف لعرض الأحداث بشكل سردى إنما هيأ من هذه الاحداث بشرحها والغوص في أعماقها ومن دوافعها ونتائجها مناخا مناسبا لادراك تلك الأبعاد السياسية وادراك الدور الذى يمكن ان تلعبة السياسة فى التاريخ ويضيف للاحداث كثيرا من رؤيتة الخاصة «كانت نظرته الي الأحداث نظرة خالصة مجرده لا تصدر عن عاطفة ولا هوى ولا تتأثر بالايمان ولا بالدين . إنما هى نظره المؤرخ الذى يجرد نفسة تجريدا كاملا من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها»(١)

وفى دراسته للشخصية الأدبية سلك طريقا جديدا فى عالم هذه الدراسات جعل لة نهجا متميزا عن غيرة فهو لم يأخذ بمذهب واحـــد

(١) طه حسين : « سامى الكيالى » ص ٩٠

الفصل الأول

بعد أن فرغت من عرض منهج « طه حسين » فى فن السيرة والترجمة الذاتيه في الأبواب السابقه ، أجد أنه من الضرورة عقد بعض المقارنات بينة وبين بعض من أدباء عصرة يتضح بعدها منهج الأديب أكثر وأكثر وتفهم بعدها خصائص هذا المنهج بعد ماستلقيه المقارنات علية من ضوء

وكما رأينا فى عرضنا لمؤلفات «طه حسين» فى السيرة العامة فانة لم ينح منحى المؤرخين ، بل جعل من نفسة مؤرخا من نوع خاص ، فهو حين كتب «على هامش السيرة» كتبها لا بمنطق التاريخ وحده ولكن بمنطق الأديب الفنان . وهذا ما خرجنا به بعد الدراسة لها .

فقد اتخذ صفة المؤرخ القاص وقد قال هو نفسه عنها : هى عمل أدبى ليست تاريخا وإن رجعت فيها إلى نصوص التاريخ .

«من السير ما كان ذا لون جديد وعرض جديد يأخذ من الماضى كله ويكيفه كله تكييفا جديدا ليصوغة صياغة جديدة فيها الخيال ، وفيها التصوير مثل ما كان فى جهد « طه حسين » ، وثمة فروق بعيده من هذا المنهج وغيره من المناهج الجديدة. فغيره من المناهج تلزم العرض العلمى وهو لا يلتزمه أو قل هى تلزمة على نحو وهو يلزم على نحو . فهى تسوقة لك كماروى لعناقشة وهو يناقشة قبل أن يسوقة اليك وقد ينتهى اليه وقد ينتهى الى غيرة [1] .

ويقول سيد قطب طريقة الدكتور طه هى طريقة الاستعراض التصويرى الهادى البطيئ الجميل الذى ترتسم فية الملامح والسمات على هيئنة واتئاد «[2]

---

(١) طه حسين كما يعرفة أدباء عصر ، ابراهيم الابيارى

(٢) كتب وشخصيات « سيد قطب ، ص ٣٠٠

فيتخذ الشخصية وسيلة للدراسة أى يتبع المنهج النفسى أو يتخذ مذهب الجبرية ،أو يتخذ المذهب الفنى الخالص . ولكنه يأخذ من كل هذه المذاهب وهذاهو المذهب الشامل الذى يجمع بين الفن والتاريخ وتأمل الشخصية .

يقول: «فى الحق أن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به سانت بوف أو تين أو جول لمتر

أوغيرهم من النقاد ، إنما يود لو استطاع أن يوفق الى هذا كلة ويستخلص منه عرضا شاملا لمايطلبة ويسمو الية فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب وعصرة وفنه [1]

بل أنة يضيف الى هذا كلة موقفة الشعورى الخاص فيعطينا صوره لهذة الشخصية من وجهة نظرة . وهو على هذا لا يجعل من دراستة سيرة بالمعنى المكتمل للسيرة ويقول عن نفسة : « لست حسن الرأى فى التراجم ، على أن مايعنينى من حياة رجل من الناس شئ أخر غير هذة الأعراض التى تطرأ لة وليس ينفعنى مولده ولا حبة ولاشقاؤه ولا كـل هذه الأشياء التى يمكن أن تلاحظ فى حياة الناس لأنى لا أجد فى هذا كلة أيسر الوضوح المقنع الذى تستبين بة قيمتة الصحيحة . والذى يميزة تميزا عميقا من الناس ومنى :[2]

فقد كان كتابة « عن أبى العلاء » رحلة فى عقل الرجل . وامتزاجا وتعاطفا أى كان شيئا مختلفا تماما عن السيرة .

وفى دراستة للمتنبى اتخذ المنهج الفنى الخالص الذى يعتمد على التذوق فأقبل على شعره يدرسة ويفسره ويحلله ويستوحية سيرة الشاعر وهو ان عبر فى الكتابين عن وجهة نظرة فى كل من الرجلين فقد صدر عن شعور صادق تجاههما .

---

(١) حديث الأربعاء : طه حسين « حـ ٢ ص ٥٣. دار المعارف الطبعة العاشرة

(٢) مع أبى العلاء فى سجنه : « طه حسين » ٧ ٨ ٩

يقول عن شعورة تجاه أبى العلاء : أريد أن أتحدث عنه حديث الصديق وأود لو استطعت أن اصدر فيما أملى عن القلب الذى يحب ويعطف ويرحم لا عن العقل الذى يمحص ويحلل ويقسو فى التمحيص والتحليل (١)

ويقول عن «المتنبى» لم أصدر فيما قلت عن المتنبي إلا عن رأى رأيته بعد روية وتفكير وبعد تمهل وترجيح (٢)

فهو بهذا يضيف كثيرا من رأيه فى دراسة الشخصيه الأدبية ،

وهذا ما أخذناه عليه وهو التحيز الشديد سواء فى الحب أو فى البغض .

. . .

ونقابل هذا الموقف فى الدراسة الأدبيه بموقف بعض معاصريه من الأدباء فى مؤلفاتهم وكتاباتهم.

ونبدأ بكتاب «محمد» للدكتور «محمد حسين هيكل» .

وفى هذا الكتاب يبدو المؤلف مؤرخا بل كاتبا من كتاب السيرة التقليديين فهو يستعرض السيرة متسلسلة متواليه الأحداث متتبعا خطها البياني فهو منذ بدايتها الى نهايتها فى أسلوب سردى إخبارى لم يحاول أن يجعله أسلوبا تصويريا أو إيحائيا ، فهو يقرر واقعا ويخبر به .

وهو فى هذا يختلف مع «طه حسين» الذى يعمد الى التصوير فى عرضه ويسير مع السيرة فى تسلسلها دون أن يملك برتابة السرد وانما أنت مستمتع بالقصة . ويهتم هيكل بجلاء بعض المواقف النبوية فى السيرة كحادث شق الصدر مثلا . يورد حولها الآراء بين التكذيب والتصديق أما «طه حسين»

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنة : «طه حسين» . ص ٢٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٩

فيسوق أحاديثه وما تحويه من أساطير وأحداث تحتمل الاختلاف عليها، يسوقها بدون مناقشة، ولا يورد آراء غيره فيها ، لأنه يوجهها إلى القلب ، والقلب يتقبل ما يروق له من أحاديث .

وهدف هيكل من وقفاته هدف علمي يبين به حقائق الإسلام ويكشف أباطيل خصومه بالحجة والمنطق يتساءل مثلا عن الهجرة إلى الحبشة فيقول : من حق من يؤرخ لمحمد أن يسأل أكان كل القصد من هذه الهجرة التي قام بها المسلمون بأمره ورأيه الفرار من كفار مكة ، وما يلحقونه بهم من الأذى ؟ أم أنها كان لها كذلك غرض سياسي إسلامي رمى محمد من ورائه إلى غاية عليا؟(١)

وقفة تساؤل وتأمل ومحاولة للغوص إلي ماوراء الأحداث يقصد اجلاء أبعادها ومراميها ، وهو بهذا يتميز عن كاتب السيرة العادى الذى لا يهدف إلا إلى الإخبار بها

ويهتم بأن يناقش حجج المستشرقين واحدة واحدة في أكثر من مسألة ويرد عليها مستشهدا بالقرآن ، مدليا برايه وتفسيره من وجهة نظر الإسلام والمسلمين، مثل مناقشته لحديث الاسراء والمعراج، وجدال المستشرقين حول مقتل أسيرى بدر ، ويرد عليه . وناقش الرأى الذى يأخذ علي الإسلام العمل بالسيف ، وقارن بين المسيحية والإسلام فى ذلك . والحقيقة أنه كان متنبها لكل المآخذ التى أخذها المستشرقون على الإسلام معتنيا كل العناية بدفعها ، بل أنه يعيب على المؤرخين المسلمين اغفالهم لبعض الحوادث مثل حادثة ثورة نساء الرسول بعد احساسهن بالغيرة من مارية القبطية التى ولدت للنبى ابراهيم حتى هجرهن الرسول جميعا لمدة شهر من الزمان ، مما أتاح الفرصة للمستشرقين فى تخطى

---

(١) حياة محمد : « محمد حسين هيكل » ص ١٦٩ الطبعة الثانية دار المعارف ٧٤

الدقة التاريخية فى نقدم لها . ويظهرهاهو على النقدالتاريخى النزيه حتى يخرج منها مغزاها الدقيق .

ويصل فى سرد سيرته إلى مابعد وفاة الرسول صلوات الله عليه ، ويقص جزءا من سيرة « أبى بكر» يرى أنه متمم للسيرة ويختم الكتاب ببحثين الأول فى الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن ، والثانى فى موضوع المستشرقين والحضارة الإسلامية ، قاصدا بهذا أيضا خدمة العرض الأول وهو « حياة محمـــد » .

الحقيقة أن حياة محمـد لهيكل يعتبر من أوائل الدراسات الجـادة فى أدبنا المعاصر التى تمثل التشكيل الجديد للسيرة . ويوضح المؤلف منهجه الذى سار عليه فهو أولا يكتب تاريخا أو بمعنى آخر يتناول شخصية تاريخية ويقرر أنه يتناولها تناولا علميا قائما على النقد والتمحيص فلا يقبل الروايات على علاتها ولا يسجل خبرا لا يثبت أمام النقد ، فهو يكتب من أجل الحقيقة التاريخية ، غير أن الكاتب لا يعالج حدثا تاريخيا بل يعالـج شخصية ، ومن هنا رأى أنه بحاجة إلى الاستعانة بعلم النفس من أجل فهم بعض جوانب الشخصية :[1]

« من السير ما كان شاملا يحكى فى شموله أساليب السير الأولى ويخالفها فى المنهج عرضا وتحليلا ونقدا مثل ما كان من جهد هيكل »[2].

وهذا شيء ملحوظ فإن « حياة محمد » تخالف السير الأولى فى المنهج عرضا وتحليلا ونقدا، لأنه يسوق أحاديثه بعد عرضها على العقل حتى لو كانت حادثه

---

(١) السيرة تاريخ وفن : د ماهر حسن فهمى ، ص١٣١

(٢) طه حسين كما يعرفه أدباء عصره : ، ابراهيم الأبيارى ، ص

من مسلمات الدين ، ولا يعرضها مسلما بها بل محاولا فهمها والاقتناع بها بعد عرض الآراء المخالفة ومناقشاتها حتى يصل إلى درجة من الرضا وقناعة العقل وهنا نجده على اختلاف مع طه حسين وقد تجنب مثل هذا الفعل ولم يرد مناقشة أو محاجاة لكنه اكتفى بأن يوجه مثل هذه الأحاديث إلى القلب حتى يصل به إلى الايمان، ولعله لاحظ أن من أمور الدين ما ينبغى أن يسلك به هذه السبيل .

ويقول سيد قطب : « طريقة هيكل هى طريقة استعراض السيرة وطريقته غير مبتكرة ، أما العلاج ففيه شيء من الابتكار ، الطريقة هى طريقة كتب السيرة المهذبة . فترى أساس طريقة هيكل وعمله هو التهذيب لهذه السيرة والموازنة بين النصوص ومراجعة الطبعات والمصادر ومناقشة الروايات والترجيح أو الرفض أو التفسير الجديد وبعبارة مجملة تهذيب السيرة وتحقيقها ، وذلك نهج ليس فيه إلا القليل من الابتكار فى العلاج لا فى أساس الطريقة » (١) وأرى أن سيد قطب قد ظلم المؤلف بعض الشيء ، فان طريقة التهذيب هذه التى يرى فيها أساسا لدراسة هيكل هى أفضل مافعله لأنه بهذا خرج علينا بسيرة كاملة متكاملة خالية من الشوائب وقد عرض سيرته على العقل متوخيا منطق الدقة والتمحيص ، وما من موضع كان محلا لتدخله إلا وتدخل بالحجة والبرهان والمنطق . ولا أدرى أى ابتكار كان يريد ؟ الأمر هنا لا يحتاج الى ابتكار ما . فالموضوع يفرض نفسه

---

(١) كتب وشخصيات : « سيد قطب » ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

ويبقى على الكاتب التحكم فى طريقة عرضه ، وقد عـرض المؤلف عرضا موضوعيا منطقيا فكان كتاب « حيـاة محمـــد » تاريخا كاملا لحياة هذا النـبي الكريم . « ونستطيع أن نقول فى النهاية أن حياة محمد ليس تاريخا خالصا ، ليس سيرة نقية ولكنه فى الواقع يمثل الحد الفاصل بين التاريخ والسيرة أو مرحلة تطور تاريخ الشخصيات وتحولها إلى سيرة لها خصائصها الفنية فى أدبنا العربى الحديث » (١) .

ونقرن « حياة محمــــد » لهيكل فى موقف المقارنة مع السيرة عند « طه حسين » بكتاب « عبقرية محمــــد » لـ « عبـــاس محمود العقاد » .

وقد نحا العقاد منحى مختلفا تماما عن منهج ‹‹ طه حسين ›› . فطه حسين كما رأينا لم يظهر شخص النبى صلوات الله عليه ظهورا مباشرا ولم يتناوله تناولا مباشرا ، إنما أبقى فى مؤلفاته أبدا الغاية والقيمة ولكنه لم يقترب منه . أما العقاد فهو يتناوله تناولا مباشرا . ويتناوله بالمقاييس العقلية قاصدا على ما أعتقد ابراز صورة هذه القيمة التى ظل «طه حسين» يدور فى فلكها كانسان . يقول : «سيرى القارىء أن عبقرية محمد عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها ، فليس الكتاب سيرة نبـوية لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات ، وليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو مجادلة لخصومه . أنمـــا الكتاب تقدير

---

(١) السيرة تاريخ وفن : « ماهر حسن فهمى » ص ١٣٦

لعبقرية محمد » (١)

فهو يريد أن يظهر «محمدا» صلى الله عليه وسلم كانسان ، بعد أن يكشف نواحي الامتياز والعظمة فى شخصيته .

ويطلعنا على مواضع التميز فى هـذه الشخصية . فيحدثنا عن فصاحة الرسول ، ودماثته التى تحببه إلى كل من رآه . وايمانه بدعوته وغيرته على نجاحها . ويطلعنا على عبقريته العسكرية ويجرى فى سبيل ذلـك مقابلة بين خططه والخطط الحديثة ليثبت تلك العبقرية العسكرية ، ويتحدث عن عبقريته السياسيه ويضرب الأمثال عليها . يقول : لا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده . بـل يضع كليهما حيث يوضع ويدفع بكليهما حيث ينبغى أن يدفع (٢)

ويتحدث عن العبقرية الادارية ويشير فى ذلك إلى هذه السليقة أوالموهبه التى تعرف النظام والتبعة والاختصاص بالعمل وإلى من تسند العمل. هذه الادارة العليا التى تكون أحيانا علاج نفوس وقيادة أخطـار .

ويدخل بلاغته فى صفات العبقرية ويضرب عليها الأمثال ، وكذلك صفات الحنان والود والعطف التى تتجمع فى شعور الصداقة . ويكتب عن

---

(١) عبقرية محمد : «عباس محمود العقاد» ، ص ٨ دار الهلال ٦٩

(٢) المرجع السابق ص ٦١

محمد الرئيس يقول : من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة ، فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرؤسيه . » (١)

ويتحدث عن محمد الزوج ومكانة المرأة منه ومعاملته لزوجاته وسماحته وأسباب تعدد زوجاته . وعن محمد الأب وعمار قلبه بمشاعر الأبوة الصادقة وان كان قد حرم من الذرية إذ لم تبق له إلا فاطمة ، وعرج على محمد السيد ومعاملته لمن هم دونه من الأرقاء والعبيد . ويتحدث عن صفة العابد فيه وعن رجولته بما فيها من قبول للدعابة وأريحية فياضه وآداب اجتماعية وعزيمة الزهد والايمان . وينهى كتابه بفصل بعنوان ,, محمد فى التاريخ ،، . يقول في نهاية الكتاب : أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدا فى عبقريته أو محمدا فى نفسه أو محمدا فى مناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ومن لايدين له برسالته ،، (٢)

وهو والحق قد نجح فى إظهار علامات التميز العبقرى فى هذه الشخصية ولم يعن بغير ذلك من عرض لسيرة أو تاريخ . يقول سيد قطب : طريقة العقاد هى طريقة رسم الصورة . وطريقة العقاد جديدة على المكتبة العربية جدة كاملة ، الطريقة والعلاج معا ، فهى ليست سيرة على طريقة السير العربية

---

(١) عبقرية محمد : عباس محمود العقاد ص ٩٠

(٢) المرجع السابق ص ١٥٣

وليست ترجمة على طريقة التراجم فى اللغات الأوربية ، انما هى صورة تتألف من بضعة خطوط سريعة حاسمة يبرز من خلالها انسان ،، (١)

وهذا هو الاختلاف بينه وبين ,, طه حسين ،، فطه حسين يحرص على اظهار المعنى ، والعقاد يحرص على إظهار الصورة ، وقد سلك كل منهما طريقه إلى ذلك .

واهتمام العقاد باظهار العبقرية داخل فى إطار نظرته إلى الانسان القائد أو المبدع عامة ، وداخل أيضا فى إطار فلسفته وإيمانه بالعبقرية الفردية على ماوقف عليه عند كارليل فى أبطاله أو ، نيتشا ، فى نظرية السوبرمان .

وقد تناول ,, طه حسين ،، شخصية الصديق . وتناولها العقاد أيضا فى عبقرية الصـــديق . وثمـة فروق بـين التناولين تتبـع الفروق بـين النهجين والعقليتين .

فطه حسين شرح لنا حياة أبى بكر السياسية عامة ، وأن أعطانا بعض ملامح لشخصية الخليفة الأول ، إنما أعطانا إياها من خلال هذا النهج السياسي الذى اتبعه . فهو لم يؤرخ كما قلت لحيـــاة ,, أبى بكر ،، وإنمـا أرخ لسيرته فى الحكم .

أما ,, العقاد ،، فقد أعطانا صورة الشخصية نفسها أو بالأحرى سيرة سلوك الخليفة الأول ، وحتى حين كتب طرفا من سيرته السياسية فقد عزا هذا إلى تلك الدوافع أو الطبائع السلوكية . وفي هذا يقول : أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقه النفسية ، فخلائق ,, أبى بكر ،،

(١) كتب وشخصيات : ,, سيد قطب ،، ص ٢٩٩

التى عرفناها دليل عليها : عفة وصدق ودعة وحزم وأناة وكيس وكل مايعهد من هـذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول فى جميع مـا حكم به وتولاه ،، [١]

وهذا يوضح ماقلته من أنه يستهدف بعرض تجارية السياسية ذلك النمط من السلوك الشخصى الذى تميز به ،، أبو بكر ،، رضى الله عنه . فهو كصنيعة فى عبقرية محمد . أراد إبراز صورة الانسان . وان كان قد عنى هنا بإبراز الناحية الأخلاقية السلوكية المؤثرة فى توجيه الأحداث والسياسة .

فقد كتب ،، طه حسين ،، سيرة سياسية للصديق ، وكتب العقاد سيرة أخلاقية له .

... ...

وفى دراسة الشخصية الأدبية كتب الدكتور عبد الوهاب عزام كتابه «ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام» تناول فيه شخصية المتنبى؛ حياته وشعره . واختلف فيه كثيرا عما كتب « طه حسين » فى كتابه ، مع المتنبى : اختلف فى أنه أراد أن يؤرخ للمتنبى ، وأختلف فى أنـــه انطلق من شعور إعجاب بالشاعر العربى الكبير . ونحن نعرف أن « طه حسين » كتب عن المتنبى ليقول آراءه فيه ويثبتها ، وكتب أيضا منطلقا من شعور البغض .

وأختلفا أيضا فى المنهج ، فسار « طه حسين » على المنهج الفنى الخالص الذى يعتمد على التذوق ، وسار الدكتورعزام على المنهج التاريخى الاجتماعى

(١) كتب وشخصيات : سيد قطب ص ٢٩٩

(٢) عبقرية الصديق : العقاد ص ١٥٥ دار المعارف الطبعة الثامنة ٦٦

ونستطيع أن نقول أن كتاب « الدكترر عزام » « سيرة شخصية تاريخية لشاعرنا الكبير المتنبى .

فهو أولا يذكر مصادر تاريخ « أبى الطيب » ويكتب نبذة عن القرن الرابع ، ويسير بالتسلسل بعد ذلك مع حياة الشاعر ويعتمد على الروايات التى يجمعها من المصادر ، ثم يناقشها رواية رواية ، فمثلا يستبعد أن يكون «المتنبى» قد أدعى النبوة بالفعل وذلك بعد عرض كل الروايات ومناقشاتها . ويأخذ بيد « المتنبى » حين يهاجمه البعض فى التجائه إلى « كافور » وكأنه فى هذا يرد على « طه حسين » بالذات لأنه كان أكثر الناعين عليه ذلك . بل أنه يورد نفس الرأى الذى قلته فى دفاعى عن « المتنبى » ضد « طـــه حسين » يقول : «ضاق» أبو الطيب بالمقام عند سيف الدولة لهذه الأسباب ولسبب آخر ينبغى ألا يغفل عنه الباحث ، ذلك أن الشاعر الطموح بلغ درجه عالية عند بنى حمدان فسمت نفسه إلى درجة أعلى منها ، ولم يكن فارق نفسه حب المجد والسطان والتطلع إلى الغلبه والتملك فذهب يلتمس منيته فى أقطار الأرض وأمل أن يجد فى مصر وسيلة إلى غايته فعزم أن يرحل اليها » [1]

والمؤلف هنا لا يدافع عن الشاعر ولكنه التبرير المنطقى لرحيله إلى مصر ، وأضفت أنا فى هذا أن الشاعر أراد أن يحصل على مكانه لا تقل عن مكانته التى أبعده عنها أعداؤه فى حلب . وأنه أراد أن يثبت أنه سيجـــد عند غيرهم ما أفتقده عندهم . وهذه التبريرات التى لم يحاول «طه حسين» أبدا أن يفكر فيها ، لأنه كما قلنا كان ينطلق من بغض للشاعر .

(١) ذكرى أبى الطيب بعد الف عام : « عبد الوهاب عزام » ص٩٨،٩٩

وتدخل المؤلف هنـا تدخل المفكر الذى يعرض الأحـداث ويناقشها ؟ فهو وان كان يهدف أولا وأخيرا إلى كتاب السيرة لهـذه الشخصية إلا أنه يفسر خطوات هذه الشخصية بما توحيه إليه الأحداث .

وهو يمزج السيرة بالتاريخ ، فقـد أرادها كما قلت سيرة شخصية تاريخية للشاعر . فمثلا حين يرحل « أبو الطيب » إلى العراق ، يكتب عن العراق من الناحيه التاريخية ليعطينا صورة للبيئة التي يقبل عليها الشاعر .

ويستمر فى تسلسل السيرة إلى مقتل الشاعر متبعتا الأحـداث على التوالى فيكتب عن الناحية الشخصية بعـــد ذلك لتكتمل أجزاء السيرة التى أرادها ,, شخصية تاريخية ،، . يتكب عن أخلاق ,, أبى الطيب ،، يقبين قارىء شعر الرجل ومتتبع سيرته الكبرياء وبعد الهمة والجرأة والاقدام والصبر فيرى رجلا قوى النفس كما كان قوى الجسم » (١)

ولكنه لايقتصر على المدح أو إبراز الفضائل ، بل يذكر المثالب والعيوب التى شاعت عنه ويناقشها .

ومن صفاته التى يذكرها تلك البداوية فى طباعه وشعره فيرى بين طباعه وشعره وبين البداوة صلة قوية . ثم يكتب عن علمه باللغـة والأدب وغيرهـما وعن مذاهبه وآرائه وينفى عنه القرمطة والعلوية . ثم يتحدث عن مكانته فى الأدب وما أحدثته من حركة أدبية. ثم يعرض آراء النقاد فيه ويخرج بخلاصة لهذه الآراء ويختم بفصل عن رأيه فى شعر أبى الطيب وخصائصه ، يدرس فيه مقومات شعره دراسة فنية أدبية .

وبهذا يكون قد استوفى كل جوانب السيرة الأدبية تاريخيـا وشخصيا ، مبتعدا بهـا عن الأحكام الشخصية التى تتنافى ونزاهة الدراسات الأدبية . فـلا يجوز فى نظرى وان اعتمد المؤلف على المنهج الفنى الجمالى وحده والذى يقوم على التذوق أن يكون هذا سببا فى أطلاق الأحكام الشخصية التى يقوم خلفها شعور خاص .

(١) ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام : د عبد الوهاب عزام ، ص ٢٠١

فقـد كتب الدكتور عبد الوهاب عزام بتجرد وأمانـة علمية فسأعطانا هذه الصورة الكاملة المتكاملة للدراسة الأدبية لشخصية شاعر كبير .

وكتب « طـه حسين » بتحيز وشعور مضاد للشاعر ، فأعطانا صورة مشوهة ، ولو خلت من هـذه الأحكام الشخصية لكانت أجمـل دراسة فنية أدبية لشعر « المتنبى » .

... ...

أما « العقاد » فيسلك مسلكا مختلفا عن « طـه حسين » وغـيره فى دراسه الشخصية الأدبية . فأول مايوحيه كتاب « أبو نواس » الحسن . بن هانىء للقارىء ، أن الكاتب قـــد أتخذ المنهج النفسي الخالص . وهذا هو الواقع بالفعل . الا أنه يبدو أن الأستاذ « العقاد » قـــد وقع فى حبائل الدراسات النفسية المعقدة . فهو لم يحـاول تناول الشاعر بالمنهج النفسى في تذوق شعره . والحكم بعد ذلك على هذه النفسية . ووقع تحت سيطرة حالة نفسية معينة أو بالأحرى تعريف لحـــالة نفسية تعرف بالترجسية . تراءى له أن يطبقها على « أبى نواس » . وأجهد نفسه كل الاجهاد فى شرح هـذه الظاهرة وتفصيلها آملا أن يفرض على القارىء فهمها ، ومحاولة تطبيقها على « أبى نواس » وقد جرّه هذا إلى تفصيلات وشروح مطولة واقتضاه ذلك أن يضيع منه نصف الكتاب تقريبا فى شرح عقدة النرجسية ومحاولة إيضاحها للقارىء .

والظاهر أنه طاب للأستاذ « العقـاد » أن يتخذ صفة المحلل النفسانى فى تطبيق تلك النظريات على « أبى نـواس » . فلجأ إلى الشعر يمسك فيـه بيتا ليقول هنا تظهر عقدة كذا ، وبيتا آخر ليقول هنا تظهر ظاهرة أخرى ، وهكذا. فهو لم يستوح الشعر ، ولم يسر على المذهب الفنى فى تعامله مع الشعر ، انما كان يخلص من تحاليله النفسية فيطبقها على الشعر مباشرة .

ولا أدرى لم لم أقتنع بمـا كتب « العقاد » ؟ رغم ما بذل من جهد شاق فى محاوله تقريب كلامه ، وتفسير نظرياته . كنت أرضي منه لو أنه درس الشعر

. أى الديوان كله تلك الدراسة الأدبية الفنية ، ثم خرج منها بأحكام على شخصيه الشاعر ودوافعه النفسية التى كانت تتمثل فى سلوكه . عندئذ ربما كانت دراسته النفسية قد اتخذت ثوب الاقناع أكثر مما بدت عليه ، وأكثر من حديثه حول العقد والغدد والافرازات ! !

وقد رأينا « طه حسين » يتناول بعض النواحى النفسية « لأبى العلاء » ، ولكنه لا ينتحل صفة المحلل النفسى أو العالم النفسى ، ولكنه يكتب عن هذه النفس لأنه عاش آلامها ، وعانى معاناتها . وهو لذلك أقرب من يفهم نفسية « أبى العلاء » . أنظر اليه حين يقول فى حديثه عن « أبى العلاء » . « لن يكون هذا إلا نحوا من حديث النفس »[1] فهو يعتبر كتابته عنه حديث النفس ذلك لأنه لصيق بهذه النفس . ويدرك تماما دوافع تصرفاتها النفسية بوحى من واقعة هو .

أما « العقاد » فليس ثوب المحلل النفسى لا ثوب الأديب فكان لا هذا ولا ذاك . وجاء كتابه غاية فى التعقيد والبعد عن الهدف .

وقد أظهر الشاعر شخصا مليئا بالعقد النفسية . وفسر كل اتجاهاته على هذا الأساس . فمثلا ظاهرة ابتعاده عن المقدمات الطللية لا يعزوه إلى حبه للتجديد ، وانما يعزوه لهذه العقدة النفسية التى نشأت عنده من انتسابه إلى أبويه ! !

يقول : « إننا نرى على الدوام أن ديوان الشاعر أصدق ترجمة لحياته الباطنية ، ويصدق هذا على « أبى نواس » وهو أصدق مايكون على خمرياته

(١) مع أبي العلاء فى سجنه : « طه حسين » ص ٧

التي تفيض بدلائل العقدة النفسية ومركب النقص الذي يساوره من انتسابه إلى كل من أبويه » (١)

ويقول : فهل كان أبو نواس يتجنب بكاء الأطلال إيثارا للتجديد أو ايثارا لمذهب كائنا ما كان من المذاهب الفنية ؟ كلا فانه لم يدع إلى تجنبها الا ليستطرد من ذلك إلى النعي على أهلها ومفاخر أنسابها » (١)

وهكذا سار ، يعرض كل شيء من الشاعر على محك التحليل النفسي . وعرض كذلك خمرياته ثم شعره في غزلة وحتى نسكياته.

وقد كتب فصلا عن « الشعر والشيطان » تكلم فيه عن « ولعة بالشيطان، والشيطان ومذهب فريد » ، وأعترف بأني لم أفهم منه شيئا .

وهكذا حفل الكتاب بهذه التفسيرات النفسية المتشابكة الغامضة فضاعت منه الناحية الأدبية .

يقول : تنتهي هذه الرسالة وهي كما يرى القارىء من عنوانها ومحور بحثها مقصورة على الدراسه النفسية لاترمي إلى ترجمة أو نقد أدبه أو شعره ولا تمس وقائع الترجمة أو شواهد الأدب والشعر إلا لما فيها من الابانة عن طبيعته والاعانة على تفسيرها واستطلاع كوامنها . » (٢)

وقد يرى كثيرون من الباحثين أن « كتاب السير » محللو نفسيون بطبيعتهم ، وليس معنى ذلك أن يعمدوا إلى التحليل النفسي دون سند من

---

(١) ، (٢) أبو نواس الحسن بن هانيء : « العقاد » ص ١٤٣ ، ١٤٧

(٢) أبو نواس الحسن بن هاني : « العقاد » ص ٢٠٤

الدراسات . فتشخيص حالة البطل بأنها سادية أو نرجسية أو عقدة « أوديب » ، ثم تفسيره كل تصرفاته على هذا الأساس تخرج من مجـال السيرة » (١)

وقد قال الأستاذ العقاد أن الدراسات النفسية كى تكون مؤكدة النتـائج والاستنتاجات ، لا يكفى فيها بتطبيق النظريات المعروفة ، أنما تستلزم إجراء الفحوص الشخصية وإخضاع المريض للمراقبة والملاحظه . فكيف يحكم الأحكام النفسية هذه على الشاعر ويفصل بينهما عديد من القرون ؟.

وأنا معه فهو يريد أن يدرس الشاعر دراسة نفسية ، فكان لابد له أن لا يخضع لفكرة معينة ويقتنع بها ثم يجرى تحليله كله على أساسها ، وكان لابد له من أن يوسّع مجال دراسته . وعليه أولا وأخـــيرا أن يستوحي الشعر حالات الشاعر النفسية لا أن يخرج بالحكم النهائى ثم يطبقه على الشعر . ينتقى منه مايوافق فكرته .

... ...

بعد هذه النماذج من المقارنات يتضح لنا أن « طه حسين » كان له لونه الخاص فى الترجمة الذاتية ولونه الخاص كذلك فى السير الغيرية .

وقد وقف كما قلت فى المقدمة موقف الريادة ممن كتب فيها وساعده على ذلك تطويعه لكل المـــذاهب المعروفة واخضاعها لمنطقة ودرسه ، وجملها باضافات شخصية من عنده وان كانت قد جنحت به أحيانا نحو فرض الذوق الشخصي أو الحكم الشخصي فهى لم تنقص من قيمة دراساته ولم تشوهها . وقـــد صور لنا قلمه الأبطال والحكام والشعراء والأدباء فى حياتهم وفى أشخاصهم تصويرا ان لم يحتو على كل الحقيقة فهو أقرب مايكون منها .

(١) السيرة تاريخ وفن : «د ماهر حسن فهمى » ص ٥٨

والمهم أنه حمل القارىء على متابعته دون أرهاق أو إمـلال كما حمـلة كذلك على أن يجاريه أو يأخذ مايقول مأخذ التصديق .

وهو فى هذا كله « أديب » باحث فنان وهو مع هذا كله أنسان يعايش الناس بقلبه وحسه وينقل عنهم كذلك بقلبه وحسه .

... ...



الفصل الثاني

حفل الأدب العربي بعـديد من التراجم الذاتية ، ومع ذلك بقى كتاب ,, الأيام ,, فريدا متميزا بين كل ما كتب . ذلك لأنه جمع كل المقومات الفنية للترجمة الذاتيه المنبثقة عن الذات والتى تستقطبها . و«ربما كان ,, طه حسين ,, خير من جارى الغربيين فى هذا المضمار ، فقـد كتب عن طفولته وشبـابه فى ,, الأيام ,, بدون أى تموية . وأعطانا صورة تامة لكل ما اضطرب فيه بسبب فقـــده للبصر فى سن مبكرة ولكل ما أثر فيه بسبب نشأته الأولي وسكب على أيامه كثيرا من فنه فجاءت قطعة أدبيه رائعة . (١)

وكانت لهذا رائدة بالنسبة للتراجم الذاتيه المكتملة . ويزيدها قوة أنهـا لم تنبع من مجرد الرغبة فى سرد تاريخ حياة للتعريف بنواحى تلك الذات ، أو الرغبة فى الافادة سواء بتقديم مثل أو عظة أو مجرد الاعجـاب بالذات . ولـــكنه نبع نتيجة معاناة نفسية بعد محنة شعورية تعرض لها بسبب موقف عصيب وأدى هروبه من واقعه إلى تأمل ذاته ، واستعادة ذكرياتهـا الأولي فى محاولة لتقويم الذات ، عله يجد فى هذا ما يمده بالأمل ويدعم فيــه القوة الروحية التي يستطيع الصمود بها في وجه قوى مناوئه . وعوامل تبعث علي اليأس والقنوط .

ويزيدها قوة انها تجربة إنسان عاش في ظروف غير عادية ، ظروف كان من الممكن أن تعوق غيره عن النجاح . وإنها تجربه إنسان يتحدى القــدر ،

---

(١) الترجمة الشخصية : ,, شوقى ضيف ,, ص ٥

ويتحدى العجز ويحيل ظلمة الحيـــاة من حوله إلى صباح يشرق فيه نور العلم والمعرفة .

ومما يزيدها قوة أن تجربته كبيرة ، عظيمة ، متعددة النواحي والاتجاهات بدرجة دفعت الدكتور احسان عبـاس إلى أن يقول : « هنـاك حظر في السيرة الذاتية . هو ان يحشد الـكاتب في سيرته تجارب كان من الممكن أن يفيد منها في بناء عدة قصص وفي خلق عدة شخصيات . وهذا ما وقع فيـه « طه حسين » في الأيام » ، فانه قد جمد تجاربه دفعة واحدة حتى كان هذا الكتاب — على أنه من أوائل ما كتب — أغنى كتبه وأحفلها وأكثرهـا امتاعا وأقربها إلى العمل الفني (١)

وكأن غنى التجربه الانسانيه قد هال الدكتور احسان ، ولكنى أعتقد ألا جناح على الرجل ، فمـا ذنبه إذا كانت تجربته غنية وافرة ؟ وحيـاته عريضة متسعة . وكان في عرضها متعة فنية وأدبية ونفعية . أيعنى هـذا أنه جمد تجاربه دفعة واحدة ؟

ويزيدها قوة أيضا أنها سيره اجتماعية ، لم يقتصر المؤلف فيها على تأمل ذاته والتقوقع داخل نطاق هذه الذات وحدها . إنما اعتنى بالحيـاة والناس من حوله متفاعلا مع البيئة المحيطة بكل دقائقها ، حتى ان اعتناءه بالبيئة يظهر في جزئين منها أكثر مما يظهر اهتمامه بالذات . لأن الذات هنـا رقيقة حيـة مطحونة بالحياة ، لا ذات مغرورة متعجرفه . حتى أنه يقدمها على استيحاء لا تقديما مباشرا . واستعان على ذلك بضمير الغائب يختفي وراءه حتى لا تظهر ذاته بوضوح كامل ، وكأنه يتحدث عن رفيق له .

---

(١) فن السيرة : « احسان عباس » ص ١٠٦

ولكنه حين يهمس بصوت تلك الذات يستطيع أن يمتلك قلب القارىء ويستطيع أن يمزج بينها وبينه فلا يحسها القارىء كيانا منفصلا عنه ، ولا يحسها ذاتا يأخذها العجب، انما يحسها ذاتا جديرة بالحدب والحب والرعايه .

وهو إذ يقدمها ، يقدم معها الظروف التى صبغتها ولعبت دورا فى تكوينها ويقدم للقارىء من خلال إحاطته الشاملة بظروف العصر والحياة كثيرا من الصور والتفصيلات .

,, امتاز بدقة التصوير والحرص على تسجيل كل شىء والبراعة فى سرد الحوادث التى نلتفت اليها فى ثوب رائع جميل ،، [1]

ويقول ابراهيم الابيارى ,, كتاب الأيام ،، بما صدر من تأريخ للعصر تاريخ ناقد لا جامع ، تاريخ يناقشك فى قضايا ولا يعنيه أصحابها ولا على يد من وقعت .[2]

ويقول الأب كمال قلته : ,, طه حسين ،، ناقد لمجتمعه أكثر مما هو ناقد لنفسه . ومحلل لبيئته وبلده أكثر منه مؤرخا لخلجات النفس . [3]

وأنا أوافقه أن ,, طه حسين ،، ناقد لمجتمعه ، ولكنى أضيف أنه كان متعمقا لأغوار النفس بنفس الدرجة التى دخل بها إلى أعماق المجتمع . وأمامنا الأيام بكل ما فيها من خلجات وأحاسيس ومشاعر .

---

(١) طه حسين الشاعر الكاتب : ,, سيد كيلانى ،، ص الدار القومية ٦٣
(٢) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه : ,, كما قلته ،، ص ١٩١
(٣) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : ,, ابراهيم الابيارى ص ٨٤

ويكفيه أنه أطلعنا على معاناته الداخلية وآلامه وعلى هذه التغيرات التى تحدث فى داخله فتنقله بين يأس ورجاء .

„ كان طه حسين " حريصا فى „ الأيام " وفى كتبه التى تحدث فيها عن نفسه ان يحدثنا عن تطوره الوجـدانى والعقلى وعن التجـارب النفسية المختلفة التى صنعت منه هذا الشخص العظيم .(١)

ولعل الأيام تتميز أكثر من غيرها من التراجم الذاتية بذلك البوح النفسي الذى تنفرد به بين مثيلاتها .

ويأتيها هذا التميز من أن صاحبها كان مثقـل النفس مجروح الشعور سيطر على حياته قدر قاس لم يدر علته فهو يكتبها بروح تختلف عن غيره من الكتاب فأغلبهم لم يحرمهم القدر من أى حاسة من حواسهم ويعيشون فى ظروف عادية ويدفعهم للكتابة شعور بالفخر والاعزاز والرغبة فى تعريف الناس بهم وبمشوارهم فى الحياة .

أما „ طه حسين " فانسان يريد أن يبث همومه . يريد أن يبوح بما تنوء به النفس . وهذا ما يوجد الفرق بين ترجمته وغيرها .

وربما كان فى „ الأيام "، ذلك النغم الحزين الذى تردد فى نفس صاحبها حتنيا فشرع فى كتابتها ، إذ جاءت فى أعقاب محنة خروجه من الجـــامعة ؛ ومروره بمرحلة من اليأس والقنوط والأسى العميق .وقد أشار « طه حسين » بنفسه إلى هذا فى بعض أحاديثه .

وأجمل ما فى „ الأيام "، ذلك التنوع فى الايقاع فى أجزائها الثلاثة ،

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره : „ رجاء النقاش " ص ٨٦٠

مما يبعد الملل عن القارىء فالايقاع تارة هادىء منبسط يتماشى مع هدوء الريف وانبساطه وسذاجته . وتارة يسرع مائجا بالحركه يوائم بينه وبين وسط هؤلاء الطلاب من طالبي العلم فى بيئه الأزهر . ثم يسرع أكثر فأكثر حين يصور حياة الجامعة الحافلة . ويعطى هذا التنوع للترجمة روحا نابضا وجوا متجددا . ويضفى عليها الحياة .

وتتميز كذلك بطريقتها فى القص . فالكاتب حريص على أن يوجد دائما ذلك الترابط الشعورى بين الماضى والحاضر . وعكس حاضره على ماضيه . وأخذ مسببات وتفسيرات من الماضى للحاضر . مما جعلنا نتمثل حياته ككل . ونتعرف فكره بكل مقوماته حتى فى الفترات التى لم يكتب عنها .

وتوخى « طه حسين » فى كتابتها أسلوبا سهلا ، فكان أكثر ملاءمة لمثل هذه الذكريات . اعتمد فيه التنوع الذى يلائم الأجزاء الثلاثة ببيئاتها المختلفة . ويبدو ذلك واضحا فى الجزئين الأول والثالث خاصة . ففى الجزء الأول تراه أسلوبا وصفيا تصويريا ممتدا . وفى الثالث تجده سرديا قصير الفقرات يناسب ما يخبرنا به من وقائع جدت فى حياته . وهذا التنوع يضفى على المؤلف كله جوا من الحيوية والاقناع .

وقد لون أسلوبه فى بعض المواقف بالفكاهة تمشيا مع بعض الوقائع الفكهة ، عرضها ليدخل بعضا من المرح على جو الكتاب . وربما بدت بعض هذه المواقف عادية لو لم يختر لها هذا الأسلوب الذى أبرز معناها الضاحك ، ولعله اختار ذلك ليخفف من الطابع المأسوى فى كتابه على ما فيه آلام .

« فالعرض سهل يتدفق حركة . وحياة الوقائع لايشوهها بعض المرح الممتع ، ولايفسدها الحزن الدفين الذى يسرى بين طياتها . وقد استطاع أن يضفى على الرواية مناخا عاطفيا مناسبا » (١)

ويلون أسلوبه بحرارة الصدق ، وجمال الأداء وموسيقى اللفظ يقول شوقى ضيف « كأنه يرى أن الأدب الجدير بهذا الاسم هو الذى يروع السمع كما يروع القلب فى آن واحد . وكثيرا ما تجد فيه الألفاظ المكررة وهو يعمد إلى ذلك عمدا حتى يتمم ما يريد من ايقاعات وأنغام ينفذ بها إلى وجدان سامعه وقارئه . و « طه حسين » من هذه الناحية يشبه أدباءنا القدماء من أمثال الجاحظ الذين كانوا يقصدون قصدا إلى التأثير بموسيقى كلامهم . فالكلام لا يؤدى بأوجز عبارة ، وانما يبسط بسطا لتحمل أداء موسيقى يضاف إلى أداء الأفكار والمعانى » (٢)

بكل هذا تميزت الأيام ، وبهذا كان لها مكان الصدارة بين التراجم الذاتية ، تلك المكانة التى يقول عنها احسان عباس : « أرى أن « للأيام » فى السير الذاتية الحديثة مكانة لاتتطاول اليها أى سيرة ذاتية أخرى فى أدبنا العربى وذلك لتلك الطريقة البارعة فى ثناياه المستقلة . وتلك اللمسات الفنية فى رسم بعض الصور الكاملة للأشخاص والقدرة على السخرية اللاذعة فى ثوب جاد حتى تظهر وكأنها غير مقصودة » (٣)

... ...

(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه : « كمال قلته » ص ١٩٣
(٢) الأدب العربى المعاصر فى مصر : « شوقى ضيف » ص ٢٨٧
(٣) فن السيرة : « احسان عباس » ص ١٤٢

وكما قلنا كان للأيام أكبر الأثر على فن التراجـــم الذاتية في الأدب الحديث . فظهرت بعدها ترجمات تترسم خطاها محاولة أن يكون لها ما قدر للأيام من نجاح .

وأكثر هذه التراجم قربا منها « حياتى » لأحمد أمين » . « وقد تأثر أحمد أمين بكتاب « الأيام » حين كتب سيرته ، وليس سبب هـذا التأثر ما أحرزه كتاب « الأيام » من شهرة أدبية فحسب . بل هو فى تلك النشـأة الأزهرية المتشابهة لنشأة صاحب الأيام . وفي العلاقة بين الأديبين » (١)

ولكن الأمر لا يقتصر على هذا الأثر وحده ولكنا نجـد « أحمـد أمين » يطبق المنهج نفسه الذى انتهجه « طه حسين » ويتبـــع المدرسة الاجتماعيـة الطبيعية . يقول : « لو ورث انسان ما ورثت . وعاش فى بيئة كالتى عشت لكان اياى أو ما يقرب منى جدا . لقد عمـل فى تكوينى إلى حـد كبير ما ورثت عن آبائى ، والحياة الاقتصادية التى كانت تسود بيننا والدين الذى يسيطر علينا واللغة التى نتكلم بها . وأدبنا الشعبي الذى كان يروى لنـــا ، ونوع التربية الذى كان مرسوما فى ذهن أبوى . فأنا لم أصنع نفسى ، ولكن صنعها الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئه » . (٢)

بل أنه أبرز اتجاه المدرسة الطبيعية أكثر مما أبرزها « طه حسين » الذى عنى أكبر العناية بالاتجاه الاجتماعى . ومما يوضح اتجاه « أحمد أمين » ظهور والده دائما بجانبه طوال الترجمة ، قدوة له أو مؤثرا فعالا .

---

(١) فن السيره : « احسان عباس » ص ٤٤٤

(٢) حياتى : « أحمد أمين » ص ١٠ الطبعة الثالثه ـ مكتبه النضهة ١٩٥٩

وقـد اعتنى بالبيئة الاجتماعية مثل « طه حسين » ، بل بصورة أوسع فقد اقتصر « طه حسين » في أثناء وجوده بالقاهـــرة على البيئة الأزهرية وطلابها . أما « أحمد أمين » فقد وسع نطاق البيئة فقدم وصفا للقاهرة القديمة فى أواخر القرن التاسع عشر بعاداتها وتقاليدها ومظهرها القديم . بل انه تميز بالتفاصيل المادية الدقيقة للحياة فى الحارة المصرية بمناظـــرها وجهلها وتأخرها . « انطبعت منها (من الحارة) فى ذهنى أول صورة للحيـــاة المصرية الصحيحة فى سلوكها وأحلامها عقائدها وخرافاتها وأوهامها ومآتمها وأفراحها وزواجها وطلاقها إلي غير ذلك . وكانت حارتنا مثالا للأسر فى القرون الوسطى قبل أن تغزوها المدنية الحديثة بماديتها ومغانيها »[1]

والفارق الجوهرى بين الكتابين أن كتاب « حياتى » يشمل معظم حياة المؤلف على مدى ستين عاما . أما « الأيام » فانها تنصب على النصف الاول من حياته فى الوقت الذى تنمو فيه الشخصية وتتكون وتتطـور . وفرض هذا الفرق على الكتابين طبيعة كل منهما ، « طه حسين » يصف الوقائع كما عاشها ، ووصف تفاعلها مـع نفسه . وأثرهـا فى نفسه . أى أنه ربط بين الاحداث وآثارها النفسية .

أما « أحمد أمين » فقد حكى الوقائع وكأنه مشاهد لهـا يخبرنـا بهـا . فهو تسجيلى أكثر من صاحبه يقول « شوقى ضيف » : « ترجمة حياتى » كتبها فى أواخـــر أيامه . فهى تصف حياته من أولهـا إلى نهايتهـا تقريبـــا . غير أنها لا تعنى بهذه الحياة بمقـــدار ما تعنى بالأحداث

---

(١) حياتى : «أحمد أمين» ص ٣٤

الهامة التى ارتبطت بها . فهو فيها إلى ذوق المؤرخين أقرب منـــه إلى ذوق الأدباء مثل « طه حسين » . فأنحدر فى أكثر ما كتب من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره . ولم يعن بأحداثه بل تحول مؤرخاً يسجل . وهـو فى هذا التسجيل قلما انفعل بما يرى ويشاهد على عكس « طـــه حسين » فى أيامه التى تشبه مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أى حجاب أو موارية »[1]

ويقول احسان عباس فى هذا : والحقيقه أن أحمد أمين قـد عاد بالسيرة الذاتية إلى التاريخ وابتعد عن الناحية الفنية التى تجعل من السيرة الذاتية ينبوعا يتدفق من النفس ويفيض على ماحولها »[2]

وانعكس ذلـك على الأسلوب . فاسلوب « طه حسين » فى أيامه مسهب تصويرى يعتمد على التكرار خاصة فى الجزء الأول , وأسلوب « أحمد أمين » محدد اخبارى . مما يناسب الثوب التسجيلى الذى ألبسه لحياته .

وبينما نجد ,, طه حسين ،، قد اندفع فى كتابة ترجمته بدافـع نفسى ناتج عن معاناة حقه ، تلك المعاناة التى تميز هذا المؤلف من كل ماعداه من التراجم . تلك المعاناة التى تعتمل فى نفس الفنـان ، وذلك القلق النفس هما السبب فى ظهور ,, الأيام ،، . بذلك الشكل التلقائى الفنى . نجد ,, أحمد أمين ،، يفكر قبل كتابة حياته ويتأنى . فـلم يكن هناك دفعـة ,, نفسية ،، ولا قلق فنى . يقول : لم أتهيب شيئاً من تأليف ما اتهيب من إخراج هذا الكتاب ، فان كل

---

(١) الترجمةالشخصية: « شوقى ضيف » ص ١٢٠ دار المعارف ٧٠
(٢) فن السيرة : ,, احسان عباس ،، ص ١٤٤

ما أخرجته كان غيرى المعروض وأنا العارض ، أو غـــيرى الموصوف وأنا الواصف. أما فى هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف والعين لاترى نفسها إلا بمرآة والشيء إذا زاد قربة ، صعبت رؤيته » (١)

وقد أخذ « أحمد أمين » بمبدأ«ود المعنفة ،، بـلى أنه هذا كان من أكبر العوامل أثرا فى دفعه إلى كتابة حياته . فهو يعزو سبب تأريخه لحياته : إلي أن عصر الأرستقراطية قد زال وأزهرت الديمقراطية فحلت محلها وتغلغلت فى الفن والأدب فلماذا إذن لا أؤرخ حياتى لعلها تصور جانبـــا من جوانب جيلنا وتصف نمطا من أنماط حياتنا ولعلها تفيد اليوم قارئا وتعين غدا مؤرخا فقد عنيت أن أصف ماحولى مؤثرا فى نفسى ونفسى متأثره بما حولى »(٢).

ويعجبنى مبدا الاختيار الذى سار عليه فى الكتابة . ويعجبنى التبرير الذى ساقه للأخذ بهذا المبدأ . يقول : وضعت هذا الكتاب ولم أذكر فيه كل الحق فمن الحق مايرذل قوله . وتنمو الأذن عن سماعه وإذا كنا لانستطيع عرى كل الجسم فكيف نستسيغ عرى كل النفس » (٣)

وثمة فارق كان بين الأديبين فى طريقـــة تأليفها ، وأشعرنا به أكثر « أحمد أمين » ، حين أشار اليه . فالمعروف أن « طـــه حسين » ، كان يملى ، وتفيض منه المعلومات أثناء الإملاء . فكان فى استطاعته التفكير وربط الموضوعات بعضها ببعض . وتتداعى إلى رأسه الفكرة تلو الفكرة بتنظيم

---

(١) حياتى : المقدمه « أحمد أمين »

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

وتسلسل فى إملائه . أما « أحمد أمين » فيقول : كثير من المعانى التفصيلية تأتى وأنا أكتب لا وأنا أفكر قبل أن أكتب ، ولهذا لما أصبت فى عينى ونهانى الأطباء عن الكتابة زمنا صعب علّى الاملاء . ولم أجد غزارة المعانى ما كنت أجد عند مزاولة الكتابة بنفسى »[1]

وكل مانقصده من هذه المقارنات أن نوضح أن ترجمة « حياتى » سارت فى اتجاه مخالف لاتجاه الأيام . فقد اتجهت إلى الناحية التاريخية أكثر من الناحية الذاتية . فلم تكن حديث النفس كما كانت « الأيام » . بل كانت تسجيل حياة أكثر منها تأمل حياة .

ويدخل كتاب « أنا » للعقاد فى عداد التراجم الذاتيه . الا أنه يعرض بطريقة مختلفة عن الترجمتين السابقتين . فهنا تنادى الذات مجاجلة « أنا » ولا أدرى لماذا أحس أن هذا العنوان يسبب صدمة للقارىء . أو ربما صدمنى أنا شخصيا . فلم أستطيع تقبل هذا التقديم الفردى . وليس أثقل على النفس من الاستماع لشخص يقول أنا . بل انى أتصور أن هذه التسمية قد هبطت بالمؤلف إلى عالم الواقعية المادية البحتة وهذا ما يصدم القارىء .

اختار "طه حسين" لمؤلفه اسم "الأيام" كلمة صغيرة ، كبيرة فى معناها . كلمه موحيـة . تسبب تداعيا إلى ذهن القارىء للأيام بكل مافيها ، فالأيام وقت من عمر الزمن ، ولعبة فى يدر القدر ، تطوى فى تعاقبها حياة أنسان . كل هذا يتوارد على الخاطر بمجرد قراءة هذه التسمية . لذلك

---

(١) حياتى : "أحمد أمين" ص ٣٠٥

فهى توحي لنا بالشمول، وكثير من ذلك الشجي الرومانسي الذى يبتعد بالتسمة عن دنيا الواقع المادية ، وان كان المؤلف فى صميم واقع انسان .

وكذلك كانت تسمية « حياتى » كلمة تعنى الشمول أيضا . وتوحى بالانفتاح العريض على حياة انسان . ويقوم بها الكاتب نفسه فى هدؤ . . وبحرف واحد ينسب اليه هذه الحياة التى يريد أن يقص قصتها .

أما كلمة « أنا » هذه ، فهى كلمة صغيرة الشكل والمضمون ضيقة ، محدودة الايحاءات . لاتقدم الا صاحبها فى نطاق الأنا المغرور .

ومنذ أن نقرأ هذه الكلمة نستطيع أن ندرك المحتوى . فالكاتب يقدم نفسه تقديما مباشرا، يضع صفاته أمام ناظريك لاينتظر حتى أن تدركها بنفسك . فكأنك تقرأ بطاقة شخصية لاينقصها الا الصورة الفوتوغرافية حتى يكتمل لها التقديم المادي .

يتحدث بشكل مباشر عن أبيه وعن أمه وعن بلدته وعن مذاهبه ورؤيته ويحاول تحديد ملامح شخصيته بوضوح وبالطبع لاننسى أن « طه حسين » لايظهر شخصه إلا من بين السطور وعلى استحياء شديد . ولذلك يتقبل القراء هذه الذات التى تتسلل بهدوء وخجل إلى نفوسهم .

واتباعا لهذا الخط الذى سار فيه « العقاد » ، نجده يكتب عن نفسه باستفاضه . عن قراءاته وعن كتبه المفضلة عن منهجه فى مؤلفاته . عن ميوله، ذكرياته ، صفاته تفكيره معتقدا أنه كتب عن كل شيء فيه وبالتحديد .

لايتركنا نستنتج شيئا أو نصل إلي شيء بأنفسنا . يقصد من هذا أن يبرز أمامنا كل مميزاته و نواحيه الشخصية .

وليس الكتاب بأى حال تاريخ حياة بأحداثها وتسلسلها الزمنى بقدر ما هو تركيز على الذات وقيمتها ، والرغبة الشديدة فى التحدث عنها . وإذا كنا قد قلنا ان « الأيام » تأخذ الاتجاه الروائى ، وأن « حياتى » تأخذ الاتجاه العاريخي . فان هذه الترجمة تأخذ اتجاها تنفرد به ، وهو التكثيف الشديد حول الذات ، أو الاستغراق التام فى الذات ، الذى ينبنى عن حب شديد لها ، وإعجاب أشد بها ، يتركز فى نطاق الأنانية التى تنطق بها كلة « أنا » .

ولكنا لا ننكر أن الكتاب قد أمدنا ، بل أغنانا بكثير من الآراء القيمة المفيدة . والنظرات الصائبة فى الحياة والفكر والأحاسيس . ولنأخذ مثالا من هذه الآراء فى قوله عن القراءة : دون غيرها هى التى تعطينى أكثر من حياة واحدة فى مدى عمر الانسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق وإن كانت لاتطيلها بمقادير الحساب . فكرتك أنت فكرة واحدة ، شعورك واحد ، خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك ، ولكنك إذا لاقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين أو أن الخيال يصبح خيالين كلا ، وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات الفكر فى القوة والعمق الامتداد،، (١)

(١) أنا : « عباس محمود العقا » ص ١٠٩ كتاب الهلال ـ العدد ١٦٠ سنة ١٩٦٤

ويقول عنه سيد قطب طريقة العقاد فى كتابة السيرة جديدة على المكتبة العربية جدة كاملة . الطريقة والعلاج معا هى ليست سيرة على طريقة السيرة العربية وليست ترجمة على طريقة التراجم فى اللغات الأوربية إنما هى صورة تتألف من بضعة خطوط سريعة حاسمه يبرز من خلالها إنسان ،، (١)

وربما كان سيد قطب يقصد بكلامه هذا التعريف بمنهج ,, العقاد ،، فى السير بوجه عام . الا أنى أرى أن هذا ينطبق أيضا على سيرته الذاتية هذه فقد كان هدفه حقا أن يبرز من بين الخطوط السريعة الحاسمة انسان ، وكان هذا الانسان هو ، أو على حد قول العقاد نفسه ، الانسان كما يعرف هو نفسه ، لا كما يعرفه الناس .

وفى « سجن العمر » للأديب الفيلسوف توفيق الحكيم . يبدو لنا أول ما يبدو ذلك الاطار الفلسفي الذى وضع الكاتب فيه ترجمته الذاتية التى تغطى المرحلة الأولي من حياته . وتبدو هذه النظرة الفلسفية حتى فى تسمية الكتاب تلك التسمة التي توحى بهذا الفكر الفلسفى . إذ يقول : هذه الصفحات ليست مجرد سرد تاريخ لحياة . أنها تعليل وتفسير لحياة ! ! » (٢)

وهو حين يوضح لنا هذه النظرة الفلسفية يوضح لنا منهجه فى الكتاب . هذا المنهاج الذى يعتمد على المذهب الطبيعى وأخذ عامل الوراثة والبيئة بعين الاعتبار ، وتأثيرها فى حياته وأحساسه انه نتاج لظروف محيطة ما كان

(٢) كتب وشخصيات : « سيد قطب » ص ٢٩٩ ـ دار الشرق

(٣) سجن العمر : توفيق الحكيم ص ١١ ـ مكتبة الآداب .

يستطيع الخلاص منها . وهو احساس تميز به الكتاب . يقول : ,, هذا السجن الذى أعيش فيه من وراثات كأنها الجدران . هل كان من الممكن الخلاص منها ؟ حاولت كثيرا كما يحاول كل سجين أن يفلت ، ولكنى كمن يتحرك فى أغلال أبدية . وبدت المأساة لعينى عندما خيل إلى يوما وأنا أحلل نفسي ، أنى لا أعيش حياتى إلا فى نسبة ضئيلة ، أما النسبة الكبرى فهى تلك العجينة من العناصر المتناقضة التى أودعت تلك النطفة التى منها تكونت . والنسبة الضئيلة التى تركت لى حرة من حياتى قضيتها كلها فى الكفاح والصراع ضد العوائق التى وضعها أهلى أنفسهم فى طريقى ومن خلفهم المجتمع كله فى ذلك الوقت . (١)

فالروح سجينة هذه العوامل ، والمؤثرات التى تنتج عنها كيان غريب من هذه الروح التى كانت تواقة ربما لأن تكون فى شكل آخر أو لكيان آخر .

ولهذا أسمى كتابه ,, سجن العمر ،، ذلك الاسم الذى يحمل من الشجلى ما يحمله إسم ,, الأيام ،، .

وفى حين نرى ,, طه حسين ،، يبدأ أيامه بنفسه ، نجد ,, الحكيم ،، يبدأ بأبيه وأمه ونشأة كل منها وطباعه وسلوكه كأنه بهذا يريد أن يعمق فكرته فيطلعنا على جذوره الأولى .

وهو وإن من سار فى الخط الطبيعى فى ترجمته ، إلا أنه يحرص على تسلسلها . فيقدم لنا ذكريات الطفولة ، وشيئا من طباعه وسلوكه فى تلك

(١) سجن العمر ص ٢٨٧

الفترة ، وبعضا من وقائع ضاحكة ، وبداية تسلل إحساس التذوق الفنى إلى النفس الطفلة . وتطور قراءاته واعترافات خاصة . إلا أنه كان يهدف بهذا كله إلى شيء آخر . يقول فى ختام كتابه : هذه مرحلة من حياة ، لم أرد منها قص حكايتها ، فلم ألتزم فيها بالطريقه المألوفة فى سرد تاريخ الحياة حسب الترتيب لتتابع الوقائع . ولكنى مزجت الأزمات والأحداث فى أكثر الأحيان كى أصل مباشرة إلى لب المقصود هنا وهو محاولة كشف شيء عن تكوين هذا الطبع الذى أتخبط بين قضبان سجنه طول العمر . (١) فهذا هو الهدف ، وهذا هو القلق الفنى وتلك هى المعاناة . وهذا هو الدافع للكتابة . ويحضرنى هنا صاحب الأيام بقلقه ومعاناته ودوافعه .

ولذلك لم يعن الحكيم بالناحية التاريخية ، انما كان همه الذات ، تلك الذات الحائرة الضائعة فى الحياة ، التى تحمل قدرها فوق كتفيها وتسير فى هذه الدنيا . ابتعد ,, الحكيم ،، عن المادية ، ويعلن رأيه فى الفن فيقول :« هو أن يترك تسجيل التاريخ للمؤرخين فهذا عملهم وهم أدق ، وأن يترك تفاصيل الأحداث للصحف اليومية التى تدونها يوما بيوم . يبقى بعد ذلك شيء لا يستطيعه غير الفن هو بعث الانطباع وإبراز الشعور ، ويقول عن ,, عودة الروح ،، وهى تحوى جزءا من ترجمته الذاتية : لم أرد أن أجعلها سجلا لتاريخ بقدر ما أردت أن تكون وثيقة لشعور (٢)

(١) سجن العمر : ,, توفيق الحكيم ،، ص ٢٩٩

(٢) المرجع السابق : ,, توفيق الحكيم ،، ص ١٦٦ ، ١٦٧

وتهزنا منه صراحة الاعتراف وصدقه في الحـديث . فهو يعترف بمـا فى النفس من مثالب أو نقص ويعترف بأخطاء سن المراهقة وبذهابه إلى الأماكن المظلمة بحى وجه البركة وكلوت بك . ولا يخجل من أن يعترف أنه قبل ذلك كان يلجأ إلى العادة السرية ؟ . ويذكرنا هذا "بطه حسين" عندما تحدث عن "أبي طرطور" يخفي وراء هذه التسمية خجله وحيـاءه . ولم يقف هنا موقف "أحمد أمين" إذ خجـل من تعرية نفسه ، لأنه رأى أن بعض جوانب الحياة ينبغى أن تخفى كما تخفى بعض جوانب الجسد .

صراحة متناهية وصدق . وينقد نفسه نقدا صادقا إذ يقول : ان أية منحة وأثمن منحة تعطى لمخلوق هى الحياة . فانى أنا نفسى مع الأسف لم أستطـع الانتفاع بهذه المنحه كما ينبغى ، لقد ضاع مني الكثير من قدراتى ومن موهبتى إذا كان لها وجود ، بسبب طبيعتي المثقوبة كالغربال بمـائة ثقب من القعود والتردد والاهمال . (1)

وصدق الاعتراف يدفعه لأن ينسب أى نجاح أن كان قد صادفه إلى الحظ فان كثيرا منه هبط على رأسه من حيث لا يدرى ولا يتوقع ! ! فهو لا يفخر بالذات ولا يتعبد فى محرابها إنما يعترف بقصورها وتقاعسها عن تحقيق النجاح فى الجانب العملى من الحياة ، حتى أنه ينقد نفسه هـذا النقد الساخر الفكه ، الذى أن دل على شىء فانما يدل على أن للرجل فلسفه خاصة يقدمهـــا بكل تواضع إذيقول: « إنى فى أغلب أحوالي قاعد هامد فى حوار دائم مع نفسى ، فى حركة دائمة داخل عقلى ، أفك الكون وأركبه . وكل شىء فى العـالم

---

(1) سجن العمر ص ٢٩٣

والمجتمع يهمنى ويهزنى ويحركنى ولكن جسمى لا يتحرك كثيرا . أن لدى القدرة على أن أجلس الساعات بمفردى لا أفعل شيئا ، وكثيرا ما يدهش الداخلى على إذ يرانى أحيانا قاعدا جامدا ليس أمامى كتاب أو ورق أو قلم ولا حراك بى كأنى تمثال من حجر . على أنى ما أنعزلت قط ولا انزويت إلا بالجسم وحده . (١)

وهل هذه إلا سمات الفيلسوف :

وكتب ,, الحكيم عن سجنه هذا بأبسط لغة وأسهلها . فلا فخامة فى الأسلوب ولا تمادى فى الوصف والتصوير . بل أنه لجأ أحيانا إلى اللغة العامية حتى يتمشى الأسلوب مع قدرة الأشخاص الذين ينطقون به . لكنه أسلوب محبب إلى النفس مفهوم يبعث على الابتسام بما يشع فيه من روح الفكاهة . ومع هذا فقد عرض لبعض الآراء الفنية فى المسرح والتأليف والاقتباس وعرض للبيئة الفنية وتطوره الفكرى فى الكتابة للمسرح .

وهكذا كتب ,, الحكيم،، ترجمته التى يقول عنها الدكتور زغلول سلام: كتاب سجن العمر، بوح أو ترجمة ذاتية فيه قدر كبير من الصراحه يكشف فيه عن حياته وأسرته ودقائق فى حياة والديه ثم فى حياته الخاصه إلى ما قبل سفره إلى فرنسا . (٢)

وقد قرن الدكتور زغلول كلمة البوح بهذه الترجمة . وهذا ما كنت أريد

---

(١) سجن العمر : ,, توفيق الحكيم ،، ص ٢٩١

(٢) دراسات فى القصة العربية الحديثة : ,, محمد زغلول سلام ،، ص ١٥٦ منشأة المعارف ٧٣

الاشارة اليه فى الحال . فسجن العمر هو الترجمة الوحيدة تقريبا التى تشارك الأيام فى هذا الشيء الذى تميزت به . وهو البوح النفسي . ولعل هـذا لأن المؤلفين قد صدرا كما قلنا نتيجة المعاناة والقلق . وهما مما يرقيان بالنفس حتى يصلا بحديثها إلى أن يكون بوحا شجيا بهذا الشكل .

وليس هناك دليل على المعاناة النفسية والقلق الفنى أقوى من تلك الكلمة التى قالها الحكيم فى أول صفحاته : أملى أكبر من جهدى ، وجهدى أكبر من موهبتى وموهبتى سجينة طبعي ولكنى أقاوم. كلمات موحية تستدعى كل كلمة منها وقفة فكر ، وتأمل عقل.

آخر التراجم الذاتية العربية التى سأعرض لها ، هى « ذكريات عارية » للدكتور سيد أبو النجا .

بعد الانتهاء من قراءة هذه الترجمة ، تسرع إلى الذهن كلمة « المنفعة » فهذه الذكريات كتبت بهدف المنفعة العملية . خبرة واسعة . ومعرفة شاملة فى أمور الادارة ودراية كبيرة بعالم الاقتصاد ، فلماذا لا يسجل كل هذا ليكون فيه نفع لأجيال قادمة ؟ . يقول الدكتور شوقى ضيف فى مقدمته لهذه الترجمة : أنه يعتقد أن على رجل الأعمال أن يقدم حساب الارباح والخسائر عن حياته فيكتب قصتها بالحق لتكون أعترافاته بأصاباتها وأخطائها نبراسا يهتدى به الذين يبحثون بعده (١) .

خاصة أنه قد كتبها فى الحلقة السابعة بعد ان كاد يستوفى مشوار حياته وقد أكتملت تجربته فى الحياة .

(١) ذكريات عارية : المقدمة ، سيد أبو النجا ، الطبعة الثانية دار المعارف سنة ٧٢ .

والقارىء يشعر أنه أفاد كثيرا بتجارب المؤلف العمليه وكشفه له عن خطايا دنيا الاعلان ووصفه لكثير من البلدان التى زارها ، وخرج من زياراته لها بآراء قيمة عن الادارة ونظمها . بل كأنه يؤرخ لفترة سيـاسية من تاريخ البلد من خلال أعماله فى الادارة . ويخرج من تجاربه بقيم فى عالم العمل يقول : « أن صاحبنا يشهد اليوم نجاح دار التربية ، فيعجب لان المدارس القومية لاتزال تمد يدها إلى الحكومة ، أو يرى نجاح دار المعارف فيعجب لاخفاق مؤسسة التأليف والنشر ، ويرى نجاح الاهرام فيعجب لتخلف بعض المؤسسات الصحفية التى كانت يوما فى المقدمة . ثم يزداد اقتناعا بدور الادارة فى صنع النجاح . (١)

ولم يمنعه مبدأ المنفعة من تأمل الذات وان كان هو الاتجاه الغالب فى كتابة الترجمة ، إلا أن المؤلف تأمل ذاته بعين النقد . ولعله أستفاد من حياته العملية المادية تلك النظرة النافذة التى طالما استخدمها فى دنيا المال والاقتصاد فكانت أكبر معين له فى كشف الخطأ والصواب ، واستخدمها فى تأمل الذات حتى أن الدكتور شوقي ضيف يقول فى المقدمة : „ هذه ذكريات يشيع فيها الوان من النقد الذاتى الموضوعى ، دائما موقفان متقابلان يمتزجان ، موقف الكاتب الراوى . وموقف الناقد الساخر . (٢)

وفى مجال نقده الذاتى يعترف بمركب النقص الذى جعله يأتى من الاعمال بما يستغرب به هو نفسه من بعد . كحرص على التظاهر بالاسراف فى التدخين

---

(١) ذكريات عارية : „ سيد أبو النجا “ ، ص ٢٠٧
(٢) المرجع السابق : „ المقدمة “ ، سيد ابو النجا

وركوبه الدرجة الأولى فى الترام وفى يده المنشة الطويله ، ووضعه فى الجيب الخارجى للجاكت قلما أحمر يدق به على المنضدة كلما دخل الفصل . وشربه للخمر فقط ليفعل فعل الرجال . كل هذا من جراء أن زميلا له أرسل نكتة قال فيها : أنه يأتى المدرسة على مشاية . فأصابه مركب النقص الذى لم يقتصر أمره على هذا بل تعداه فخلق فى سلوك صاحبنا صرامة شـديدة . ويعترف أنه أصيب بالشعور بالنقص مرة أخرى من جراء عيب جسمى من أثر كى بالنار فى قفاه جعله يمشى وكأنه يتعمد الخيلاء . ولا يضيره الاعـتراف بأن فتيات الأسرة كن يفضلن عليه سائر الفتيان . أو أن يقول لقد كان صاحبنا مدرسا ، ولكن كان فى سن المراهقة الفكرية . بل أنه يعرض أمـرا يضع نفسه فيه موضع الحكم من الناحية الخلقية . حين استخدم سكـرتيرة أجنبية فى أمر عاد بالربح على بلده . يقول : « ترى هل أخطأ صاحبنا حين استفاد من خيانة السكرتيرة ؟ .. لقد استرد لبلاده ربع مليون ليرة ، ولكنه علم فيما بعد أن لبنان ضاق بالسكرتيرة فغادرته إلى كندا . إن صاحبنا كرجل أعمـال استفاد من الفرصة المتاحة ، ولكنه لايدرى كيف يحكم رجـال الأخلاق على هذا التصرف » [1] .

وينقد المجتمع أيضا ، كقوانين التعليم التى تفرض على شاب يحب الطب أو الهندسة أن يتقدم للاشتغال بالتعليم . يقول بعد تأمله للمجتمع :

«قام الشاب من مكانه بعد أن فقد ثقته بالزمان ، لقد سرق الزمان منه امرأة عمه . وها هو ذا أستاذه يسرق منه نجاحه لماذا ؟ ! . ! . ألأنه سمح لنفسه على

---

(١) ذكريات عارية ص ٢١٤ .

استحياء أن يناقش الأستاذ مناقشة علمية جادة ؟ وهل التعليم الا تفاعل بين المعلم والتلميذ ؟ وكيف يسمح الأستاذ لنفسه بأن يظلم وهو فى كرسى القضاء ؟ أسئلة نقرت رأس الشاب وهو على أبواب الحياة . وأوشكت أن تفقده ثقته بمستقبله » [1]

ويطرح شوقى ضيف السؤال : هل تأثر الكاتب فى عرض ذكرياته بالأيام « لطه حسين » ؟ ! . ويرى أن صاحب الذكريات قد تأثر بصاحب الأيام فى طريقته فى التوارى عن الأنظار واستخدامه لضميره يبعده عن مواجهة القراء . كذلك تلحظ انه لم يقدم نفسه تقديما مباشراً أبدا . أنما تركنا نستشف شخصه وصفاته من بين السطور . فهو حين يقول مثلا : لقد نشأ صاحبنا فى بيئة أزهرية فيها خطب ومظاهرات كان من الممكن أن تسلمه إلي العمل الصاخب . ولكن أباه فرض علي طفولته نوعا من التسليم بالواقع والانصياع لمن هم أكبر منه فانطبعت شخصيته فى قالب من الرتابة يصلح للادارة ولا يصلح للسياسة » [2] . . . . أليس هذا تقديما للذات ؟ . بلى ، ولكنه تقديم على طريقة صاحب « الأيام » بل لعل وجود ”الأيام“ هو الذى أوحى للكاتب بكتابة ترجمته الذاتية .

ولكنه يبتعد كثيرا عن أسلوب الأيام ، والفرق بينهما فى الأسلوب هو الفرق بين الأديب ورجل الأعمال .

. . . .

وبعد ، فانه يتضح مما عرضنا أن ”الأيام“ تكتمل لها عناصر فى فن

(١) ذكريات عارية : ”سيد أبو النجا“ ص ٥٨
(٢) المرجع السابق ٥٨

الترجمة الذاتية لاتكتمل لكثير غيرها فى أدبنا الحديث والمعاصر . فقـد جمعت بين عناصر التكامل الفنى ، وعناصر الذاتية . يميزها ذلك البوح النفسي الشجى الذى جعلها متفردة بين غيرها من الترجمات .

... ...

وإذا ماعـــدينـا على أدبنا العربى الحديث والمعاصر ، وعبرنا إلى خارج حـدود وطننا العربى مغربين ، ونظرنا فى الأدب الغربى ، وجدنـا وفرة فى التراجم الذاتية . ومن بينها الترجمتان البارزتان : اعـترافات جان جاك روسو و « سيرتى الذاتية » ل « برتراند رسل » . ونعرض لهم عرضا سريعا بهدف التعرف على الفروق بين كاتبنا « طه حسين » وبين أدباء الغرب .

ويقارن الأب « كمال قلته » بين الظروف التى كتب فيها روسو اعترافاته والظروف التى كتب فيها «طه حسين» أيامه يقول : «كتب روسو إعترافاته دفاعا عن نفسه . وبـــدأت فى الظهور عام ١٧٦٥ م وكان مضطهدا أشد الاضطهاد من الحكومة ورجال الدين .

وكلاهما لايفيد التاريخ بالقدر الذى يخدمان فيه الرواية والأدب »[١]

ومن الوضح أن السبب فى ظهور كلا الترجمتين هو المعاناة ، والاحساس بالقلق الفني الذى يدفع الكاتب لأن يقول شيئا . وتجتمع الترجمتان فى شيء آخر وهو بعدهما عن الجانب التاريخى . ومعنى هـذا هو أن الذاتية هى التى تغلب على المؤلفين . ولكنى أريـد أن أفرق بين الذاتيتين . فروسو كما يظهر من اعترافاته رسم ذاتيته معتمدا على التحليل - وان كان قد صور ماحوله ، فمن خـلال هـذه الذات . أى انه حلل نفسيته أولا ، واضعا أمامنا عناصر ضعفه وقوته ، فضائله وخطاياه .

(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه ص ١٩١

أما « طه حسين » فقد تأمل ذاته لكن بلا تحليل . تأملها كجزء من الكيان العام الذى يتسع للمجتمع والبيئة .

وعلى ذلك نجد روسو ينطلق من ذاته إلى المجتمع . ونجد « طه حسين » ينطلق من المجتمع إلى ذاته .

يقول احسان عباس : «قد عنى روسو عناية فائقة بالصراع الداخلى دون تفلسف كثير حول ذلك الصراع فجاءت أعترافاته مثلا ساطعا على نقلها الواقعى للحياة » (١)

والحقيقة أن أهم ماميز الإعترافات ذلك التحليل للذات الذى يدفع الكاتب إلى كثير من الصدق الذى يندر أن نجده فى غيـــرها . فقد تأمل ذاته طويلا وخبر أعماقها فى محاولة لتقديم هذه النفسى من الداخل يقول : لقد عرضت نفسى كما كنت ، وضيعا ، زريا ، طيبا ، رفيع الذهن سامى الفكر تبعا لما كنت عليه . لقد أمطت اللثام عن أعمق مكامن النفس فأجمع حولى مالا حصر له من بنى جنسى ليعوا أعترافاتى وليرثوا لخستى ويستحيوا من نقائصى » (٢)

وقد فعل ، فقد كان صريحا صادقا . لم يعتن بابراز نفسه فى أطار فاضل . بل انه تعمد الإفاضة فى وصف رذائـله يقول : حلت أدنى الرذائل وأحط أخلاق السوقه محل هواياتى البسيطة . ولابد أنه كان لدى بالرغم من التقويم العظيم الذى نشأت عليه نزوع شديد إلى الانحلال لأن التبذل تم بسرعة بالغة دون أى أضطراب » (٣)

---

(١) فن السيرة: د احسان عباس ، ص١١٥ نشر دار الثقافة بيروت الطبعة الثالثة
(٢) اعترافات جان جاك روسو ـ ترجمة محمد بدر الدين خليل ص ١٥٠ دار الكتاب العربى ـ طبعة أولى سنة ٦١
(٣) المرجع السابق ص ٩٩

ويعترف بالسرقة ، ويحلل الدوافع إليها بمهارة ، بـل انه أخذ فى تحليل مجموعة من أحاسيسة الأول ومشاعره بفهم كبير ودون أى اعتبـار كما قلنا لأن يبدو متكاملا ، بل أعترف بنقائصة واحدة واحدة .

وفى إطار الصراحة الفائقة التى يتحدث بها لا يهمه أن يكشف عن الرذيله حتى داخل جدران الدير وفى نفوس الرهبان . ورغم شعوره بالضيـــاع لم يقترف الرذيلة . وكان يســـتنكرها ، ونفر دائما من الرجال الذين حاولوا استدراجة معهم إليها . وأستطاع أن يحتفظ بنفسه بعيدا عن الشذوذ بـل أنه احتفظ بطهره إلى ما بعد الحاديه والعشرين . ولم يقرب النساء طوال هذه المدة يقول : « تصوروا طباعى النزقة الحادة ودمى الحامى ، وقلبى المنتشى بالحب وصحتى الموفورة العفية وسنى . ثم تذكروا إننى فى هذه الحال وفى تعطشى إلى النساء لم أكن قد مسست واحدة منهن بعد ، فاذا الخيال والحاجة والغرور والفضول تتجمع كـلها لتكوينى برغبة متأججة فى أن أكون رجلا ، وفى أن أثبت إننى رجل (١)

ويكشف لنا عن رقة مشاعرة وطهر عواطفة حين يحكى عن غرامه بمدام بازيل : أبدا لم يعدل شئ من المشاعر المترتبة على نيل النساء تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمى مدام بازيل دون أن أجسر على مجرد لمس ثوبهـــا كـلاما من غبطة تضاهى تلك التى تستطيع أن تقدمها امرأة فاضلة يحبهـــا المرء . فكل شيء قربها يغدو تفضلا وصنيعا . (٢)

---

(١) اعترافات جان جاك روسو ص١٤٥

(٢) المرجع السابق ص ٨١

ويكتب تفصيلات كـــثيرة، وهو يعلم ذلك فيعتذر عن هذة التفصيلات المسهبة لأنه تعهد أن يصف للناس نفسة كما هي. ولكي يعرفة الناس جيدا يجب أن يحيطوا إحاطة كافية بصباه لان أحداثة الاولى ظلت باقية في ذهنه . إلا اني رغم هذا التبرير أجد أن الاعترافات في النصف الأول وصف لحيــاة تافهة ضائعه كان الأجدر بة لو أغفلها .

والغريب أنه أحس بقيمة التعليم في سن متأخرة بعد أن مرض حتى أشرف على الموت وهذا ما أذكى في نفسة الميل الى الدراسة بدلا من أن يؤدي الي تضاؤلة .

وكانت أفضل تسمية لهذا المؤلف هو الاعترافات . فهو يعترف في شجاعة بأشياء ليس من السهل الاعتراف بها أمام الناس . فيعترف أنه وضع أبنائة في في الملجأ ويبرر ذلك بأن حالته المادية كـانت سيئة ! ! وبحجة أنه كان يرى أن الدولة سترعاهم أفضل منه . وبانة يعتبر نفسة عضوا في جمهورية أفلاطون الفاضلة !! . بل انة تمنى لو أنة تربى مثلما يربون . ويبرر ذلك أيضا بأنة مساوىء نشأة أولادة في فضل ملجأ اللقطاء على نشأتهم بين عائلة أمهم لأنها أسرة سيئة التربية . واعتقد أنة لم يكن صادقا في هذا ، انما ســاق هذا التبــرير ليخفف عن نفسة ثقل الخطأ .

ولا أدري لم يحك للناس غرامياتة مــع الساقطات ؟ ! ! ونقابــل هذه الصورة بصورة « طه حسين » في أيامة ، وكم كان عفا في حكايته .

ومرة أخرى أجده منافيا للواقع ، وأعجب من أين كوّن مبادئه التي التي يقول عنها والتي جعلته يرفض الهدايا ويرفض المعاش الممنوح له من الملك، وهو الذى كان يعيش من قبل على نفقة امرأة . ورغم هذه النشأة الوضيعة

التى نشأها والتى فعل فيها أشياء مشينة حتى السرقة . أرى أن رفضه ربما كان لاعتبارات أخرى . وربما أراد أن يضيف إلى نفسه فضائل لم تكن فيـــه تعويضا عما اعترف به مسبقا .

ويحلو له أحيانا أن يضع القارىء فى حيرة ، على عكس « طـــه حسين » الذى لا يذكر شيئا يثير اضطرابا ما فى نفس القارىء ، انما هو ينساب مـع الأيام فى هدوء ويسر . ولكن جان جاك روسو يظهر نفسه بالشخص المتناقض . فبينما أفاض فى شعور الحب الذى أكنه لـ (تيريز) اذ به فجأة يقول أنه لم يشعر نحوها بأى ومضة حب ، كذلك الحال مـع مدام (دى فارأن) التى ظل يذكرها طوال الكتاب . ويذكر عواطف التقديس والعبادة تجاهها ، وإذا به يدخلها فى مقارنه هابطة يقول : « وبعد فماذا يظن القارىء إذا أعلنت هنا ـ بكل مالا بد أن يكون قد لمسة لديه من صراحة ـ أننى لم أشعر البتـه بأقل ومضة حب نحوها (أى تيريز) منذ رأيتهـا لأول مرة إلى اليوم . واننى لم أكن أكثر اشتهاء لمضاجعتها منى لمضاجعة مدام دى فاران ، وأن الحـاجة الحسية التى أشبعتها فى شخصها لم تكن بالنسبة لى سوى حاجة ناشئة عن باعث جنسى وليس لها علاقة بالمرأة ذاتها » [1]

وأرى أنه يناقـض نفسه ، خاصة بالنسبة لمدام « دى فاران » التى طالما وصف حبه واحترامه لهـا ، وكان هـــذا بصورة بعيـدا عن أى باعـث جنسى تجاههـا .

(١) اعترافات جان جاك روسو ص ٢٨٢

ويعيدا عن جو هذه المغامرات يوضح دور الأديب الملتزم . يقول : لقد عقدت دوما ان أشعر بأن مركز المؤلف لايمكن أن يكون مبرزا وكريما الا إذا لم يتخذ من التأليف حرفة ، ومن الصعب العسير ان تسمو بتفكيرك اذا كنت لاتفكر إلا لتكسب مايمكنك من العيش . فلكى تكون قادرا على الاقدام المجاهرة بالحقائق الضخمة لابد لك من ان لاتعول على النجاح ، ولقد كنت ألقى بكتبي إلى الرأى العام بضمير واثق من انني لم أتكلم إلا للمصلحة العامة دون ان احفل بأى شيء آخر » (١)

ونجد مثل هذه الآراء متناثرة هنا وهناك ، فهو في بعض الأحيان يفترعن قص مغامراته فيزودنا بمثل هذا الآراء القيمة . يقـول : انتهيت إلى ان أرى كل شيء كان يرتبط فى جوهره بالأمور السياسية وانه مامن شعب اينما وجه المرء بصره إلا وهو كما تجعله طبيعة الحكم فى بلاده » (٢)

ولو انه وضع فى اعتباره حين أراد كتابة هذه الاعترافات خدمة المجتمع كما أفادت بهذا مؤلفـاته نفسها ، لأغنـانا بكثير من الآراء القيمة . ومما آخذه عليه انه فى هذه الترجمة لم يعطنا صورة واضحة عن أفكاره ، ولم يخبرنا كيف كان يفكر ، وماهى الآراء والمعتقدات التى دفعتـه إلي تأليف مؤلف مثل العقد الاجتماعي . لم يطلعنا على النـاحية العقلية من شخصة ولاتطورة الفكرى .وكان تأملة لشخصة كلة منصبا على الناحية السلوكية و ناحية أحاسيسه ولم نحط علما بعقيدته هذه التى جعلت من كتابة إنجيلا للثورة الفرنسية لم يعرفنا مآخذه على ذلك المجتمع أو طرق إصلاحه. بل إننا لم ندرك أبدا أنه عنى بهذا المجتمع . ولو لم يشر فى إعترافاته إلى كتابه هذا.

---

(١) اعترافات جان جاك روسو ص ٢٧٤
(٢) المرجع السابق ٢٧٦

ما عرفنا إننا نقرأ عن رجل من الممكن أن يضع ماوضع من نظريات ومبادىء . لقد أغفل من ترجمة تكوينة الفكرى تماما .

ولكننا فى « الأيام » نكتشف نمط تفكير الرجل شيئا فشيئا .ومن يلحظ تطور الأيام يتدرج مع نمو فكره . أما هنا فنحن أمام حلقه مفقوده فهذا رجل يكتب عن مغامراته النسائيه بإفاضة ثم نجدة فجأة يقول : فكرت فى أن أضع كتابا فى المذاهب السياسية ! ! ولم يخبرنا لم أو ماهى العوامل التى كانت تتصارع فى نفسة حتى تدفعه الى كتابة كتاب كهذا . أو تفاعله مع هـــذا المجتمع حتى يكون هذا دافعا له لأن يكون صاحب هـذه الآراء القيـمة فى دنيا السياسة .

وربما سلك هذا المسلك لأنه أراد أن يحقق لنفسه المعرفة كإنسان عادى لا كمفكر عظيم لأنه يقول عن اعترافاته : عزمت على أن أجعله مؤلفا فريدا من نوعه بأن الزم صدقا لامثيل له يتيح للناس ولو لمرة واحده على الأقل أن يروا إنسانا على حقيقتة الكامنة فى أعمق أغوار النفس .(١)

وربما نجح فى هذه الناحية ولو انه اعتنى بالتطور الفكرى . وذلك الصراع الاجتماعى الذى نتج عنة هذه العقلية الخالده التى وضعت « العقد الاجتماعى » لكان ولا شك قد أغنانا كثيرا وكثيرا .

فالايام واعترافات جان جاك روسو وإن كانتا قد نبعتا من نفس الدافع للكتابة . إلا إنهما قد سارتا فى إتجاهين مختلفين . وشتان بين .

مؤلف يكشف آلام نفس ، ومؤلف يكشف عرى النفس .

• • •

---

(١) أعترافات جان جاك روسو ص ٣٢٢

ويأتى « برتراندرسل » فى سيرتى الذاتية ليكون أقرب إلى « طه حسين » فى « الأيام » فطه حسين كما قلت جمع بين الاتجاهين الاجتماعى والذاتى وهكذا كان « رسل » فقد قدم وصفا للمجتمع الأرستقراطى من خلال الأشخاص الذين كتب عنهم ، وجعلنا نعرفهم من خلال الرسائل المتبادلة بينه وبين مجموعة من الأصدقاء ، ومن خلال تقديمه لجدته وجده ودورهما فى حياته . ونشأته الأرستقراطية هى التى جعلته لايدور إلا فى فلك ذلك المجتمع بالذات ،

ولكنه أيضا تأمل ذاته . وتتبع تأثير الوراثة فيها فيعرفنا بأبيه وأمه وذكر عنهما أشياء تلقى الضوء على شخصيتهما . عرفنا بجده وجدته لأنه مضى طفولته بينهما . خاصة جدته التى ألقى الأضواء على شخصها وفكرها لما كان له من أثر فى تشكيل نظرته إلى الحياة . بل تحدث عن أفراد العائلة كلها أعمامه وعماته وأخيه . بل الخدم أيضا ! !

وقسم حياته إلى مراحل الطفولة ، المراهقة ، الجامعة ، الخطوبة ، الزواج الأول

وكان صريحا عندما اعترف بشرور الطفولة وبعض الأمور المخجلة عن سن المراهقة ، فى حين نرى أديبنا « طه حسين » يغلفها بأسلوب رقيق يبعد عنها ذلك الشعور بالخجل .

عنى بنفسه من الداخل وأطلعنا على تطورة الداخلى ونمو شعوره وإدراكه وتحدث عن أرائه ومعتقداته وتغيرها وعن صراعاته الداخلية وتحدث عن مرحلة من حياته فى صوره خطابات كانت بينة وبين زوجته ، وبينه بين اصدقائه وجدته . ويحدثنا عن حبة وعلاقته بزوجته .

ثم تغير أحاسيسه نحوها وأسباب ذلك . وأعترف لنا فى صراحته بعلاقته بأحد الزوجات ونساء أخريات .

ومس ناحية الدين والمعتقدات دون تحرج وقال : «الديانات كالأشجار تطعن فى السن مالم تتناولها يد الاصلاح من وقت لآخر لقد كانت للمسيحية مبادؤها الحالية أيام مجدها . إننا نريد شكلا جديدا يتمشى مع العلم ويرشدنا فى الوقت نفسة لحياة طيبه». (١)

ويعترف بالالحاد . ويناقش المسـائل الالهيه قال : «ماأسعد حيـاتي لولا أفكارى التعسة حول اللاهوت». (٢)

و وطه حسين , فى أيامة لم يتناول هذه الناحية إلا من بعيد . ونرى أنه جمع فى سيرته ماجمع ، طه حسين ، فى الأيام من العناية بالمجتمع والعناية بالذات وأكتملت له حلقات التطور الفكرى والتفاعل بينه وبين البيئة بصورة أوضح من تلك التى كانت فى إعترافات جان جاك روسو .

. . .

وهكذا عرضت لهذين النموذجين من السيرة الذاتية فى أدب الغرب بعد أن عرضت لها فى الأدب العربى لألقى بعض الضوء على ماكتب منها فى أدبنا الحديث والمعاصره عامة , وعلى ما كتبة , طه حسين , خاصة ، وليبدو أين يقف , طه حسين من هذا الفن الأدبى .

ولعله وضح أنه وقف فى المقدمة ، ولم يتخلف ، بل لم يسبقة الأدباء إنما جاء سابقا ولحق به من لحق .

. . .

(١) و (٢) أعترافات جان جاك روسوص ٦٩

نتائج البحث

بعد هذا العـرض الذى استغرق الأبواب الخمسة خرجت من بحثى هـذا بالنتائج التالية :

• السيرة : فن وعلم وصناعة وصدق ، فى إطار أدبى .

• الترجمة الذاتية : هى حديث النفس متسما بالصدق والصراحة والجرأة .

• كاتب السيرة أديب متميز عن غيرة من الأدباء ، فهو كاتب وناقد ومحقق وذواقة فى الوقت نفسه .

• هناك فروق بين السيرة الغيرية والترجمة الذاتية ، ولكنهما يتطلبـان درجة كبيرة من الفنية فى كتابتيهما وطريقة بنائهما وتسلسلها . فبناء السـيرة بوجه عام يقوم على أسس فنيه تأخذ من غيرها من الفنون .

• كانت السيرة النبوية هى المنهج الأول لكتاب السير العـرب . واختلطت السيرة عند العرب بالتاريخ ولم تكن أول أمرهـا أكثر من تجميع للأخبـار والمعلومات .

• لم تخرج السيرة عن النهج القديم الذى سارت عليه خلال عصور الاسلام الأولى إلا فى العصر الحديث بعد أن أخذت فى تطبيق المناهج الفنية الحديثة المتطورة .

• كذلك الترجمة الذاتية لم تكتمل مقوماتها إلا فى العصر الحـديث . وكل ماسبق منها لم يكن قائما على أسس فنية .

* كانت طلائع الكتابة فى فن السيرة فى الأدب الأوربى تقتصر على حياة القديسين ولم تصبح فنا أدبيا بحق إلا فى القرن السابع عشر . واكتمل لها المنهج الفنى السوى منذ القرن الثامن عشر استنادا على ما ظهر من دراسات للنفسية الإنسانية وتأثير عوامل الوراثة والبيئة والمؤثرات الخارجية . أما التراجم الذاتية فقد تميزت فى الأدب الأوربى بالصراحة والصدق والجرأة .

* عاش « طه حسين » حياة عريضة كان فيها أديبا اجتماعيا عمات البيئة والمجتمع فى نفسه . وقد كافح وثار حتى استطاع الوصول إلى ما وصل اليه ، يدفعه فى ذلك شعور بالغبن ، وارادة وتصميم واصرار .

* تكون فكره من حصاد الثقافة الفرنسية والثقافة اليونانية والرومانية ، وحصيلة التراث العربى القديم . فجمع فكره بذلك كل مقومات الأصالة والتطور والتجديد .

* كان « طه حسين » فى السيرة العامة مؤلفا من نوع خاص ، مؤلفا مزج بين السيرة والتاريخ والخيال فجاءت نوعا من القصص التاريخى .

* كتب « طه حسين » نوعا من السيرة السياسية تعرض فيها لنهج الخليفتين « أبى بكر » و « عمر » السياسى لا لسيرتها الشخصية وتعرض فى « الفتنة الكبرى » لفترة من أحرج فترات التاريخ الإسلامى بروح المؤرخ المتجرد الذى كشف من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عمت العالم الإسلامى فأعطانا صورة كاملة عن ذلك العصر .

* اختار « طه حسين » لدراسته فى الشخصية الأدبية منهجا خاصا احتوى

كل المناهج المعروفة كالمنهج الاجتماعى والمنهج النفسى والمنهج الفنى الجمالى . ويضيف إلى ذلك كثيرا من آرائه الخاصة .

* يلاحظ أنه فى دراسته للشخصية الأدبية يتحيز لمن يحب ويهاجم من يبغض معتمدا على حكمه الشخصى .

* قدم « طه حسين » فى « الأيام » صورة فنية أدبية مكتملة من صور الترجمة الذاتية كان فيها كاتبا اجتماعيا بقدر ما هو كانت ترجمة ذاتية .

* كانت « الأيام » ترجمة ذاتية مباشرة لطه حسين وكان « أديب » و « شجرة البؤس » انعكاسا لعنصر الذاتية فى أدبه .

* من المقارنات تبين أن « طه حسين » فى السيرة التاريخية مؤرخ قاص . يمزج السياسة بالتاريخ . ويضف إلى هذا المزيج رؤيته الخاصه واهتم بالسيرة السياسية .

* ما يعيب « طه حسين » فى دراسة الشخصية الأدبية هو التحيز الشديد سواء فى الحب أو البغض .

* كان « محمد حسين هيكل » فى « حياة محمد » كاتب سيرة تميز عن كاتب السيرة التقليدى بوقفات التأمل والغوص وراء الأحداث ومناقشة الآراء ومجادلة المستشرقين . وتخالف هذه السيرة السير الأولى فى المنهج عرضا وتحليلا ونقدا وتخالف أيضا « طه حسين » فى منهجه .

* تناول « عباس محمود العقاد » شخصية النبى صلى الله عليه وسلم تناولا عقليا مباشرا لكى يظهر منه « محمد الإنسان » والفرق بينه وبين « طه

حسين إن طه حسين يحرص على إظهار المعنى و «العقاد» يحرص على إظهار الصورة.

* كتب «طه حسين» ل «أبي بكر» سيرة سياسية وكتب «العقاد» له سيرة أخلاقية.

* في دراسة الشخصية الأدبية تناول «طه حسين» شخصية «المتنبي» واتبع في ذلك المنهج الفني الخالص، أما الدكتور «عبد الوهاب عزام» فقد طبق المنهج الاجتماعي التاريخي. وكان كتاب «عبد الوهاب عزام» سيرة شخصية للشاعر.

* واختار الأستاذ «العقاد» المنهج النفسي في دراسته للشخصية الأدبية.

* ومن المقارنات أيضا تبين أن «طه حسين» اتخذ في «الأيام» الاتجاه الروائي واتخذ «أحمد أمين» في «حياتي» الاتجاه التاريخي. أما «العقاد» فهو يتجه نحو التكثيف الشديد حول الذات والاستغراق التام فيها.

* يشارك «توفيق الحكيم» بكتابه «سجن العمر» «طه حسين» في «الأيام» في أهم الميزات اذ أن الكتابين كانا نتيجة معاناة نفسية وقلق فني، وتميزا بالبوح النفسي.

* يعتمد الدكتور «سيد أبو النجا» في «ذكريات عارية» مبدأ المنفعة العملي في عالم المال والادارة بالاضافة إلى النقد الذاتي الموضوعي.

* كانت اعترافات «جان جاك روسو» نتيجة قلق ومعاناة نفسية كما هي الحال بالقياس إلى «طه حسين» وإن كانت اعترافات «روسو»

تمتاز بتحليل الكاتب لذاته وتعريتها من الداخل . ويأتيها النقص من أن المؤلف قد أغفل عنصر التطور الفكرى .

ه أما « برتراندرسل » فقد جمع لسيرته ما جمع « طه حسين » فى « الأيام » من العناية بالمجتمع والعناية بالذات . واكتملت له حلقات التطور الفكرى والتفاعل بينه وبين البيئة بصورة أوضح من تلك التى كانت فى اعترافات روسو ، فكان وجه الشبه بينهما كبيرا .

......

المراجع العربية

الكتاب	المؤلف	الناشر
١ — الأيام	د . طه حسين	دار المعارف الطبعة الخامسة
٢ — أديب	,, ,,	,, ,, السابعة .
٣ — ألوان	,, ,,	,, ,, سنة ١٩٥٨ .
٤ — الحب الضائع	,, ,,	,, ,, ١٩٥١ .
٥ — أنا	عباس محمود العقاد	كتاب الهلال سنة ١٩٦٤ .
٦ — أبو نواس	,, ,,	دار الكتـاب العـــربى بيروت ١٩٦٨ .
٧ — الأدب الحديث	أحمد هيكل	دار المعارف سنة ١٩٧١ .
٨ — اعترافات جان جاك روسو	ترجمة محمد بدر الدين	دار الكتاب العربى ١٩٦١ .
٩ — الأدب ومذاهبه	محمد مندور	مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧
١٠ — الأدب المعاصر فى مصر	شوقى ضيف	دار المعارف سنة ١٩٥٨ .
١١ — إلى طه حسين فى عيد ميلاد السبعين	دراسة باشراف عبد الرحمن بدوى	دار المعارف سنة ١٩٦٢ .
١٢ — تجديد ذكرى أبى العلاء	طه حسين	دار المعارف سنة ١٩٥١ .
١٣ — تطـور الرواية العربية الحديثة	عبد المحسن طه بدر	دار المعارف سنة ١٩٦٣ .
١٤ — تاريخ آداب اللغة العـــربية	جورجى زيدان	دار الهلال سنة ١٩٥٤ .

١٥ — الترجمة الشخصية　شوقي ضيف　دار المعارف الطبعة الثانية .

١٦ — التراجم والسير　محمد عبد الغني حسن　دار المعارف سنة ١٩٦٩ .

١٧ — التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث في مصر　محمد أحمد العزب　رسالة (ماجستير) (مخطوط)　آداب عين شمس سنة ١٩٧٣

١٨ — ثورة الأدب　محمد حسين هيكل　مطبعة مصر سنة ١٩٦٦

١٩ — جنة الشوك　طه حسين　دار المعارف الطبعة السابعة

٢٠ — حياة قلم　عباس محمود العقاد　مكتبة غريب سنة ١٩٥٧ .

٢١ — حافظ وشوقي　طـه حسين　الخانجي سنة ١٩٥٣ .

٢٢ — حديث الأربعاء　طه حسيـــن　دار المعارف سنة ١٩٥٧ .

٢٣ — حيـــاتي　أحمد أمين　مكتبة النهضة سنة ١٩٥٩

٢٤ — حياة محمد　محمد حسين هيكل　دار المعارف الطبعة الثانية

٢٥ — خصام ونقد　طه حسين　بيروت العلم للملايين

٢٦ — دعاء الكروان　طه حسين　دار المعارف سنة ١٩٥٨

٢٧ — دراسات في الأدب والنقـــد　لويس عوض　بيروت سنة ١٩٥٩

٢٨ — دراسات في الرواية المصـرية　علي الراعي　مطبعة مصر سنه ١٩٦٤

٢٩ — دراسات في القصة العربية الحديثة　محمد زغلول سلام　دار المعارف بالإسكندرية

٣٠ — ذكرى طه حسين　سهير القلماوي　سلسلة اقرأ سنة ١٩٧٤

٣١ ـ ذكريات عارية	سيد أبو النجا	دار المعارف سلسلة اقرأ سنة ١٩٧٢
٣٢ ـ ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام	عبد الوهاب عزام	دار المعارف الطبعة الثالثة
٣٣ ـ سجن العمر	توفيق الحكيم	دار الكتاب العربي ١٩٦١
٣٤ ـ سيرتي الذاتية	برتراند رسل	دار المعارف ١٩٧١ .
٣٥ ـ السيرة تاريخ وفن	ماهر حسن فهمي	معهد الدراسات العربية سنة ١٩٧٠
٣٦ ـ شجرة البؤس	طه حسين	دار المعارف ١٩٦١
٣٧ ـ الشيخان	,, ,,	دار المعارف ٦٣
٣٨ ـ صوت أبي العلاء	,, ,,	دار المعارف ٤٤
٣٩ ـ صوت باريس	,, ,,	دار المعارف ٤٣
٤٠ ـ طه حسين الشاعر الكاتب	محمد سيد كيلاني	الدار القومية للطباعة والنشر ٦٣
٤١ ـ طه حسين كما يعرفه أدباء عصره	جماعة من الكتاب	دار الهلال ٦٣
٤٢ ـ طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه	كمال قلتة	دار المعارف ٧٣
٤٣ ـ على هامش السيرة	طه حسين	دار المعارف ٦٢
٤٤ ـ عثمان	طه حسين	دار المعارف ٦٢

٤٥ — على وبنوه　طـه حسين　دار المعارف ٦١

٤٦ — عبقرية الصديق　عباس محمود العقاد　دار المعـارف الطبعـة الثامنة ٦٦

٤٧ — عبقرية محمد　عباس محمود العقاد　دار الهلال ٦٩

٤٨ — فصول فى الأدب والنقـد　طـه حسين　دار المعارف ٦٩

٤٩ — فى الأدب الجاهلى　طـه حسين　دار المعارف ٥٢

٥٠ — فن القصة　محمد يوسف نجم　بيروت للطباعة والنشر ٥٥

٥١ — في الأدب الحديث　عمر الدسوقى　مطبعة الرسالة ٦٦

٥٢ — فن السيرة　إحسان عباس　بيروت ٥٦

٥٣ — فن السيرة الأدبية　ليون أدل ترجمة صدقى خطاب　طبـع الحلبى ٧٣

٥٤ — في النقد الأدبى　شوقى ضيف　دار المعارف ٦٦

٥٥ — الفنون الأدبية وأعلامهـا　أنيس المقدسى　دار الكاتب العربى ٦٣

٥٦ — فنون الأدب　تشارلتن ترجمة ذكي نجيب محمود　طبع لجنة التأليف والترجمة والنشـر

٥٧ — القصة فى الأدب العربى الحديث　محمد يوسف نجم　دار مصر للطباعة ٥٢

٥٨ — قادة الفكر　طه حسين　دار المعارف ٥٩

٥٩ — كتب وشخصيات | سيد قطب | دار الشروق
٦٠ — لحظات | طه حسين | مطبعة المعارف ٤٣
٦١ — مذكرات طه حسين | طه حسين | دار الآداب البيروتية ٦٧
٦٢ — من بعيد | طه حسين | المطبعة الرحمانية ٣٥
٦٣ — المعذبون فى الأرض | طه حسين | مطبعة مصر ٤٥
٦٤ — مرآة الإسلام | طه حسين | دار المعارف ٥٩
٦٥ — مع أبى العلاء فى سجنه | " " | دار المعارف الطبعة العاشرة
٦٦ — مع المتنبى | " " | " "
٦٧ — من حديث الشعر والنثر | " " | دار المعارف ٦٢
٦٨ — مستقبل الثقافة فى مصر | " " | مطبعة المعارف ٤٤
٦٩ — مع طه حسين | سامى الكيال | دار المعارف سلسلة اقرأ
٧٠ — مذكرات | ميخائيل نعيمه | مكتبة صادر بيروت ٤٩
٧١ — مسائل فى فلسفة الفن المعاصر | جويدى ترجمة سامى الدروبى
٧٢ — نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر | أنور الجندى | مطبعة القاهرة ٥٤

٧٣ ــ النقد الأدبى ومدارسه الحديثة — ستانلى هايمن ترجمة إحسان عباس ويوسف نجم — دار الثقافة البيروتيه ٥٨

٧٤ ــ النقد الادبى الحديث — الغنيمى هلال — دار نهضة مصر ٧٣

٧٥ ــ النقد العربى الحديث — محمد زغلول سلام — مكتبة الأنجلو ٦٤

٧٦ ــ نشأة النقد الادبى الحديث فى مصر — عز الدين الامين — مكتبة النهضة ٦٢

٧٧ ــ الوعد الحق — طه حسين — دار المعارف ٦٢

الدوريات :

١ — الهلال ـ العدد الصادرفى ديسمبر ١٩٦٠ ، والعدد الصادر فى فبراير ٦٦

٢ — الأهرام ـ الاعداد الصادرة فى ٣٠/١٠/٧٣ وبه مقال عن عصر طه حسين للدكتور ذكي نجيب محمود

وفى ٣١/ ١/٧٣ وبه مقال عن أمنية طه حسين بقلم كمال الملاخ

وفى ٣١/١٠/٧٣ وبه مقال عن طه حسين وديمقراطيه التعليم ـ بقلم على عبد الرازق

الاهرام ـ فى ٢/١١/٧٣ – مقال عن طه حسين للدكتور لويس عوض

وفى ١٦/١/٧٣ – خطابات من طه حسين إلى توفيق الحكيم

وفى ٢٣/١١/٧٣ – الأيام للدكتور لويس عوض

٣ — الاخبار ـ ٢/١١/ ٧٣ كان شجاعا حتى الموت – محسن محمد

٤ — المصور ـ ١٠/١١/٧٣ طه حسين سيمفونية ريفية ـ فتحى سعيد

٥ — مجلة الصياد ـ العدد ٢١/٥ نوفمبر ١٩٧٣ — طه حسين ديكارت العقل العربى بقلم رياض فاخورى



المراجع الإنجليزية

(1) 20 The Century English literature 1901-60 A.C. Ward university paperbacks Methun london 1964.

(2) A Biogarphical Portrait of Charlotte Show by: Janet Dungar. Alden Press 199.

(3) Encyclo Peadia Britannica Volume 3.

(4) Pnrnell's new English Encyclopeadia. «Biohraphy»

(5) An Anthology of Modern Biography. David Ced 1936 Thomas Uelson.

(6) The Mature of Biography by Muzzy.

(7) The Reader's Guide: Sir Willam Enrys williams P. 88. Published by penguin Books 1960.

(8) Ehcyclopeadia Britannica volume 2.

(9) The Nature of Biography.

(10)Aspect of Biography.

(11)A History of French Literature by cozanian Oxford 1959.

(12) Anthony Trollope An Autobiofrapyh with introducron by J.B. Priestley. Fontaina library 1962 .

(13) Orlando. Abiography by virginia woollf the Hogarth Press 1949 .

(14) The Porsonal Note, Herbert J C. Grierson and sondys wason, Oxford sniwersity press 1946.

فهرس